يوسف السباعي



إني راحلة



يوسف السباعى



إني راحلة

للمؤلف

أطياف	(قصص قصيرة ١٩٤٧)	الناشر مكتبة الخانجى
نائب عزرائيل . . .	(رواية ... ... ١٩٤٧)	» » »
اثنتا عشرة امرأة .	(قصص قصيرة ١٩٤٨)	» » »
خبايا الصدور . . .	(» » ١٩٤٨)	» » »
يا أمة ضحكت . . .	(» » ١٩٤٨)	» » »
اثنا عشر رجلا . . .	(» » ١٩٤٩)	» » »
أرض النفاق	(رواية ... ... ١٩٤٩)	» » »
فى موكب الهوى . .	(قصص قصيرة ١٩٤٩)	» دار الفكر العربى
من العالم المجهول . .	(» » ١٩٤٩)	» مكتبة الخانجى
هذه النفوس . . .	(» » ١٩٥٠)	» دار الفكر العربى
إنى راحلة	(رواية ... ... ١٩٥٠)	» مكتبة الخانجى
مبكى العشاق	(قصص قصيرة ١٩٥٠)	» دار الفكر العربى
بين أبو الريش وجنينة ناميش . . .	(قصص قصيرة ١٩٥٠)	» مكتبة الخانجى
أغنيات	(قصص قصيرة ١٩٥١)	» » »
أم رتيبة	(مسرحية . . . ١٩٥١)	» » »
هذا هو الحب . . .	(قصص قصيرة ١٩٥١)	» دار الفكر العربى
صور طبق الأصل . .	(» » ١٩٥١)	» مكتبة الخانجى
بين الأطلال	(رواية ... ... ١٩٥٢)	» » »
السقا مات	(» ... ... ١٩٥٢)	» » »
سمار الليالى	(قصص قصيرة ١٩٥٢)	» دار الفكر العربى
الشيخ زعرب . . .	(» » ١٩٥٢)	» مكتبة الخانجى

نفحة من الإيمان . .	(قصص قصيرة ١٩٥٢)	الناشر دار الفكر العربى
وراء الستار	(مسرحية . . . ١٩٥٢)	« مكتبة الخانجى
ست نساء وستة رجال	(قصص قصيرة ١٩٥٣	« « «
هذه الحياة	(« « ١٩٥٣)	« دار الفكر العربى
البحث عن جسد . .	(رواية ... ... ١٩٥٣)	« مكتبة الخانجى
جمعية قتل الزوجات .	(مسرحية . . . ١٩٥٣)	« النهضة المصرية
فديتك يا ليلى	(رواية ... ... ١٩٥٣)	« مكتبة الخانجى
ليلة خمر	(قصص قصيرة ١٩٥٣)	« « «
همسة غابرة	(« « ١٩٥٣)	« دار الفكر العربى
رد قلبى	(رواية فى جزءين ١٩٥٤)	« مكتبة الخانجى
ليال ودموع	(قصص قصيرة ١٩٥٥)	« « «
طريق العودة . . .	(رواية ... ... ١٩٥٦)	« الشركة العربية
أيام عمر	(مقالات . . . ١٩٥٧)	« « «
من حياتى	(« . . . ١٩٥٨)	« « «
لطمات ولثمات . . .	(مقالات ١٩٥٩) الناشر المكتب التجارى ببيروت	
نادية	(رواية فى جزءين ١٩٦٠)	الناشر مكتبة الخانجى
جفت الدموع . . .	(رواية فى جزءين ١٩٦١)	« « «
أيام مشرقة	(مقالات . . . ١٩٦١)	« « «
أيام وذكريات . . .	(« . . . . ١٩٦١)	« « «
أيام من عمرى . . .	(« . . . . ١٩٦٢)	« « «
ليـــل له آخر . . .	(رواية فى جزءين ١٩٦٤)	« « «
أقوى من الزمن . .	(مسرحية . . . ١٩٦٦)	« « «
نحن لا نزرع الشوك .	(رواية فى جزءين ١٩٦٨)	« « «
لست وحدك	(رواية ... ... ١٩٧٠)	« « «

الإهداء

إلى أحب من وفى . . . .

وأوفى من أحب .

إلى الحبيبـــة الأولى :

أم « بيسا » و « اسماعيل »

يوسف السباعي

الصور بريشة الفنان الأستاذ

حسن محمد حسن

مقـــدمة

الطبعة الأولى

جلست ذات مرة والمرحوم الأستاذ « المازنى » فى مسامرات الجيب ، وأذكر أن صاحب المجلة الأستاذ « عمر عبد العزيز » كان يعد العدّة لإصدار عدد من المسامرات خاص بالقصة ، وأنه سأل الأستاذ « المازنى » أن يكتب للمجلة قصة قصيرة

وقد أجاب الكاتب الكبير وقتذاك بأنه يكره كتابة القصة القصيرة ، ووجّه لى القول مداعباً بأنه يشفق علىّ من كتابة قصة كل أسبوع لأنه يعتبر القصة القصيرة عملية إجهاض ، وأن هذه القصة القصيرة المضغوطة المقتضبة فى بضع صفحات كان يمكن أن تستكمل نموها فتصبح قصة طويلة قائمة بذاتها ، وأنها لو تركت تنضج وتستوى لأصبحت ثمرة شهية مغذية بدلا من أن تقطف هكذا « عجر » ، وبدلا من أن يجهض الكاتب نفسه فينزل القصة وهى ما زالت جنيناً .

ورغم أنى لم أتفق مع الأستاذ المازنى فى رأيه تمام الاتفاق ، ورغم اعتراضى بأن القصة القصيرة شىء قائم بذاته ، وأنها رغم صغرها وانكماشهـا مخلوق مستكمل النمو ، وثمرة تامة النضج . . . رغم اعتراضى هذا . . . أشعر فى كثير من الأحيان بمدى ما فى قول المازنى من الصحة . . . فإن الجهد الذى أبذله فى كتابة قصة قصيرة ، مركز فى خلق الفكرة والجو ، لا فى الاسترسال وسرد التفاصيل . . . فإن مجرد بداية القصة هو أشق ما فيها وأنى قد أستغرق يوماً كاملا فى كتابة الصفحة الأولى من القصة . . . وقد أجلس وأقوم . . . وأقوم

وأجلس ، وأمسك القلم فترة طويلة ... ثم أترك الورق دون أن أكتب شيئاً . فإذا ما كتبت الصفحة الأولى ودخلت فى صميم القصة اندفع القلم يكتب بلا توقف وملأت الصفحة تلو الصفحة دون إحساس بأنى أفعل شيئاً ، ولا تصبح المشقة عندئذ فى الكتابة بل فى التوقف عن الكتابة .

فالمكان المخصص للقصة القصيرة فى المجلة محدود ، ولا بد من ختامها بعد عدد معين من الصفحات ... وهكذا أجد نفسى مضطراً إلى « فرملة » القلم ، وإلى أن أنتزع نفسى من جو القصة وأختمها فى بضعة أسطر فى الوقت الذى أحس فيه أنه ليس أحب إلىّ من الاستمرار فى القصة .

ولذا فقد كنت دائماً شديد الحنين إلى أن أكتب قصة طويلة ... ولكن الفرصة لم تتح لى ... فقد كانت الأعمال الكثيرة المتناقضة التى أخذت بها نفسى تشغل كل وقتى ... وكان من العسير أن أجد فسحة من الوقت أضيعها فى كتابة القصة الطويلة .

وهكذا ظللت حتى حل الصيف الماضى « صيف ١٩٤٩ » ، وسافرت إلى الاسكندرية بعد أن توفرت لدىّ بضع قصص قصيرة تريحنى من الكتابة بضعة أسابيع ، وصممت على أن أمضى هذه الأسابيع فى راحة تامة . وبدأت الراحة ، وأنا مخلوق لم يتعوّد الراحة ، فوجدت الحنين إلى الكتابة يعاودنى ، ووجدتها فرصة سانحة أستغلها لكتابة قصة طويلة .

ومضت بضعة أيام وأنا أحاول البداية حتى نجحت فيها . . . واندفعت بعد ذلك فى الكتابة ، أعيش فى جو القصة وأرتع بين أبطالها .

وبدأت أتلقى اللوم ممن حولى ... وقالوا لى إنى فى أجازة ولست فى أشغال شاقة ... وإن من الجنون أن أكتب عشر ساعات فى اليوم ... ولكنى

استمررت فى الكتابة ، حتى أصابنى الملل ، وأنهكنى الجهد ، فكرهت الكتابة، وكرهت القصة ، وكرهت أبطالها ، وكرهت نفسى .

وحاولت أن أستعيد فى ذهنى ما كتبت وأنا مجهد متعب ... فوجدتنى لم أكتب سوى سخافات ، ورأيت أن هذه القصة التى بذلت فيها كل هذا الجهد ستكون أتفه ما كتبت .

وتركت الكتابة ، وأخلدت إلى الراحة ... وقلت لنفسى : إن كرهى للقصة هو نتيجة الإفراط فى الكتابة .

ومرّ يوم دون أن أكتب ... ولكنى لم أكد أحس ببعض الراحة حتى عاودت الكتابة .

وأخيراً انتهيت من القصة بعد عشرين يوما

أجل إن كتابتها لم تستغرق أكثر من عشرين يوما ... فقد كان علىّ أن أنتهى منها قبل أن تنتهى الإجازة ... ويشغل كل وقتى بأعمالى العادية .

ولست أدرى مدى نجاحى فى كتابتها ، ولا مداها من الجودة او السخف . فلقد تركتها بعد كتابتها ، فلم أقرأها إلا مرة واحدة فى بروفات التصحيح قبل الطبع ... ولقد شعرت فى هذه المرة أنى قد أحببتها وأحببت أبطالها .

وإنى لأجد فى رضائى عنها أول ثمن أتلقاه على ما بذلت فيها من جهد ... أما بقية الثمن فهو رضاكم أنتم ... فإن دفعتموه فبها ونعمت .

وإلا ... فكفانى إعجابى بها ورضائى عنها ، وأغنانى الله عنكم وعن رضاكم وإعجابكم ... إنى قد كتبتها أولا لنفسى ... ثم لكم .

والسلام عليكم ورحمة الله .

يوسف السباعى

مقـــدمة

الطبعـــة الثانيـــة

كنت فى مقدمة الطبعة الأولى قلقاً على مصير الكتاب بين القراء وقلت إنى حصلت على بعض ثمن مجهودى فيه وهو إعجابى أنا به ، ثم تمنيت أن أحصل على بقية الثمن وهو إعجابهم به .

وأكون ناكراً للجميل إذا لم أعترف بأنى تلقيت الثمن مضاعفاً ... وأن القراء كانوا كرماء معى إلى أبعد حدود الكرم ... بل إلى أبعد مما أشعر أنى أستحق .

وقد تعوّد بعض الكتاب أن يرصعوا كتبهم بأقوال التقدير والمديح من ذوى الحيثية من الصحافة ورجال الأدب ... ولكنى أشعر أنى فقير فى هذه المرصعات ... لست أدرى لماذا ؟ قد يكون السبب هو أنى لا أكتب أدباً ... أو يكون لأن رجال الأدب لا يقرأون الأدب .

على أية حال ... لقد أغنانى الله عن تقدير ذوى الحيثية بتقدير القارىء العزيز المجهول ... التقدير المخلص الحار ، الخالى من النفاق والرياء ، الذى لا يرجو ثمناً ولا يطلب رداً .

ورغم أنى كنت أكره نشر هذه المرصعات ، ورغم أنى كنت أعيب على الكُتَّاب أن يقدموا كتبهم بمديح فى أنفسهم ... إلا أنى أشعر هذه المرة برغبة فى المغامرة بنشر تقدير مجهول ترك فى نفسى أبلغ الأثر .

* * *

دق التليفون فى منتصف ذات ليلة ... وأنا أقطن فى بيت محظور على أهله

التجوّل بعد التاسعة ... ومحظور عليهم اليقظة بعد العاشرة ... ودق التليفون في منتصف الليل يعني لديهم نبأ بكارثة ... فلم يكد الجرس يدق حتى هبوا جميعاً مذعورين من نومهم ... وكان أسبقنا إلى التليفون الخادمة « صلوحة » ووقفت تصيح في السماعة :

ـ آلو ... آلو .

دون أن يجيبها أحد .

وعدنا إلى مضاجعنا بين السخط على الإزعاج الطارىء والحمدلله على السلامة من نتائجه المحتملة .

ولكننا لم نكد نضع رؤوسنا على الوسائد حتى عاد الجرس يدق ... فهببنا ثانية . وكان أولنا وصولا إلا التليفون هو عمى ... ولكنه لم يفز من الطالب بإجابة .

وعدنا إلى الفراش لنهب مرة ثالثة وفي هذه المرة كنت أنا المجيب قلت :

ـ آلو ... آلو .

وأتى إلىّ الصوت وجلا خائفاً ناعماً متسائلا في ارتباك :

ـ الأستاذ يوسف السباعي ؟

وأخذت . ولكني لا أملك سوى أن أجيب :

ـ أيوه يافندم .

وأدرك أهل البيت من ردّي أن الطالب قد تحدث أخيراً .... وكما سبق القول لم يكن أحد منهم يتوقع من مكالمة في منتصف الليل ... إلا أن يكون نبأ وفاة .

وهكذا وقفت ممسكا بالتليفون ، ومن حولي حماي محلقاً ، وزوجتي فاغر

فاها ، وحماتى فى فراشها لا تستطيع النهوض وتصيح فى شبه ولولة :

ـــ مين مات ؟

ومن الناحية الأخرى فى التليفون أتى الحديث الناعم الوجل يقول :

ـــ أنا معجبة بكتاب قريتهولك ... وعايزه أبلغك إعجابى .

وأذهلنى قولها ... وأذهلنى أكثر منه صيحة زوجتى متسائلة فى ذعر بعد وقد نفد صبرها :

ـــ حد جراله حاجه ؟

وأبعدت السماعة عن فمى وطمأنتها بقولى :

ـــ لأ . .

ـــ أمال إيه ؟! مين بيتكلم ؟

ولم أجد بداً لطمأنتهم على أن أحداً لم يمت من أن أقول الحقيقة فأجبت والسماعة بعيدة عن فمى :

ـــ دى واحدة معجبة .

وصاحت زوجتى غير مصدقة :

ـــ مش ممكن ... انت بتكذب .

وكان تكذيبها لى معقولا ، فأنا فى نقل أنباء السوء قد عودتهم الكذب .. فقد سبق فى موقف مشابه لهذا أن أنبئت فى التليفون عن أخبار وفاة فأنكرتها عليهم حتى الصباح حتى أجنبهم المفاجأة وحزن الليل وسهره .

وعلى ذلك فقد أيقنوا من قولى أن المتحدث معجبة هو من باب الكذب وإخفاء أخبار الوفاة ، وأصروا جميعا على أن المتحدث يبلغنى عن وفاة عزيز لدينا

وصحت أؤكد :

ـــ قولتلكم واحده معجبه .

وعاد الإنكار :

ـــ مش ممكن ... انت بتكذب .

وضقت ذرعاً ... ولم أجد من وسيلة للتأكيد خيراً من أن أعطى السماعة لزوجتى لتسمع بنفسها حديث المعجبة .

ولكن المعجبة لم تجب ، وأخيراً لم تجد بداً من إعادة السماعة إلى موضعها .

وعدنا إلى الفراش ... ولكننا لم نكد نغمض أعيننا حتى دق التليفون مرة رابعة ، وفى هذه المرة أمسكت زوجتى السماعة ... ودون أن تقول : آلو . ودون أن يجيبها أحد .. انهالت فى حنق بالسباب على المتحدثة .

وأخذت منها السماعة ... وقلت لها مهدئا :

ـــ مافيش داعى للشتيمه ... لأنها لوكانت بتعاكس فالشتيمه حاتخليها تعند وتفضل تعاكس طول الليل ... سيبها لى أنا أكلها بالذوق .

وأمسكت بالسماعة وقلت فى صوت هادىء :

ـــ آلو ...

وأجابنى الصوت الرقيق معاتبا :

ـــ برضه دا يصح أنشتم الشتيمه دى كلها ؟

ـــ وبرضه يصح إنك تطلبى واحد فى نص الليل علشان تقوليله إنك معجبة ؟!

ـــ أنا متأسفة ... أنا أصلى لسه مخلصه الكتاب دلوقت ، ومقدرتش أحوش نفسى ... إمتى أقدر أكلك ؟

ــ فى أى وقت فى النهار ... أو ابعتى جواب زى كل اللى بيبعتوا .

ــ أبعته على فين ؟

ــ على البيت ... على المكتب ... على المجلة ... زى ماتحبى .

ثم أمليتها العنوان .

ولم تعجب زوجتى بالطبع تلك الطريقة المترفقة فى الحديث ... ولا أعجبها أن أطلب منها الكتابة وأعطها العنوان .

وبعد يومين وصلنى الخطاب التالى .

عزيزى ......

« تحياتى وإعجابى الذى لا حدّ له ولو أنك لا تعرفنى ، ولا أظن أنك »
« تهتم بمعرفتى إلا بمقدار ما يكون بين كاتب وقارىء له ، لذلك اسمح لى أن »
« أخفى عنك شخصيتى ، إنما أكتب إليك معتذرة عما كان منى ليلة أن »
« كلمتك فى التليفون ، وحجتى أنى كنت مندفعة إلى البحث عنك وسماع »
« صوتك بجوارحى وشعورى وبأى ثمن بعد أن انتهيت من قراءة »
« قصتك (إنى راحلة) ، ولعل لك بعض الذنب فى ذلك إذ أنك أخرجتنى »
« عن وعى ، وأفقدتنى كل سيطرة على نفسى ، وبالرغم من كثرة الأصوات »
« التى توالت فى الرد علىّ فقد هـــدانى قلبى إلى معرفتك ، ولو لم يكن لك بى »
« سابق معرفة ، فقد كان لإبداعك ما أخـــذ بمجامع قلبى ، وأشعرنى »
« أن هذا ليس بالخيـــال ، وإنما هو صادر عن الواقع ، وعن الشعور »
« الصادق الرقيق ، وأنه ترجمة بارعة صادقة لأجمل ما يمكن أن يخفق به قلب »
« رقيق فياض العاطفة ، حتى أنى لم أفكر فى الوقت وفيما صادفته فى محاولاتى »
« أن أكلمك ، فقد كنت فى نشوة من سرورى ولهفتى ودموعى ، ولعل تلك »

« التى ردّت علىّ وأعادتنى إلى الواقع . لم تحس بما شعرت به أثناء قراءتى لك »
« وإلا لالتمست لى عذراً ... أنا التى تعيش حياتها تافهة مقفرة من شعاع عاطفى »
« يملأ كيانى وينير وجدانى ، وقد وجدته ولو فى صفحة من كتاب ، ولكن »
« وصفك لسور معسكر الحرس ، والحقول التى خلف السراى ، والساقية »
« المهجورة هزّ كيانى وأعادنى إلى الخيال والذكرى ، فكل هذا هو مرتع »
« طفولتى ومبعث إحساسى ، وقبلة قلبى ، ومطمع آمالى ، ولكننى أرى أنى »
« قد أطلت عليك .. لا تظن أنى تألمت لما سمعت فقد كفتنى رنة الأسف التى »
« ظهرت من نبرات صوتك . لقد كانت أكثر مما أرجو وإلا لما سامحت نفسى »

١٣ ديسمبر سنة ١٩٥٠ « .... »

وعند ما انتهيت من قراءة الخطاب حملته إلى زوجتى وقلت لها :

ـــ أظنك بعد قراءته ستقرينني على الرفق الذى حدثتها به ... وأظنك ستجدينها لا تستحق ما منحتها من سباب ؟

ولم أعرف عن القارئة المجهولة سوى الخطاب المجهول والمحادثة فى منتصف الليل .

وإنى أحس منهما خير عزاء عن تقدير ذوى الحيثيات من أهل الصحافة والأدب

شكراً لها ... ولكل قارىء مجهول ... وقارئة مجهولة ... إنهم يملأوننى بالثقة والاعتزاز ... ويجعلوننى لا أعبأ بتقدير المشاهير والكبار .

إنى أكتب لهم ... وهم الذين جعلونى أطبع من كتبى الطبعة الثانية .. وهم الذين سيجعلوننى أطبع الثالثة والرابعة بإذن الله .

إنى أحب قرائى ... وأشعر أن قرائى يحبوننى .

والسلام عليكم ورحمة الله .

يوسف السباعى



مُلحدة

١

قد عزمت على الرحيل .

الى وماذا يدعونى إلى البقاء فى دنيا كم تلك ، بعد أن أضحيت فى غنى عنها وعن كل ما بها . . وبعد أن فقدت كل إحساس بأن هناك ما يربطنى بها ويشدّنى إليها ؟

ما أسهل الرحيل . . خطوة واحدة أخطوها فأمرق هذا الخيط الواهى الذى علقت به حياتنا .. وأنطلق هاربة إلى حيث لا تتطاولون علىّ بألسنتكم ، تاركة لكم جيفة تتلقى لعناتكم نيابة عنى .

« أذكروا محاسن موتاكم » .

أتراكم تذكرون لى محاسن ؟ . . أنا الزوجة الملوثة الخائنة الفارة مع عشيقها .. الراكلة بقدميها كل تقليد ، المحطمة كل قيد .

أى محاسن لى بعد هذا ؟

هل يمكن أن يلتمس لى أحدكم عذراً . . سوى الطيش والنزق ، وطاعة الشيطان ؟ !

لشدّ ما أكره أن أخرج من الحياة مظلومة

- إنى لم أحس قط بحاجتى إليكم . . لقد كان :

كلانا غنى عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانيا

وأنا أحس أنى ميتة . . ميتة ، وكان يجب ، والأمر كذلك ، أن يشتد إحساسى بالغنى عنكم . . ولكنى مع ذلك أحس بحنين شديد يدفعنى إلى الكتابة ، وإلى أن أقول شيئاً لكم أيها الآدميون الذين قد بت فى غنى عنهم !

أى دافع أحمق ذلك الذى يدفعنى للكتابة ؟ . أنا المحطمة المهدمة ، المشتتة الفكر ، الخاربة الذهن !

أنا الغريقة اللاهثة الأنفاس ، المكروبة الصدر ، المثقلة بالأحزان . . . الباكية حتى جفت منها المآقى ، ودميت الأجفان .

أنا أجلس وأكتب إليكم .. لِمه ؟ . . وسط هذا الحطام والرقاد ، والهشيم ، وأنا على قاب قوسين أو أدنى من الموت ، أجلس فى هدوء وأمسك القلم ، وأكتب على الورق . . كأنى أعيش أبداً .

لقد كان يجب أن يكون آخر ما أفكر فيه هو الكتابة .

كان يجب أن أبكى ، وأن أمزّق الشعر ، وألطم الخدود وأصرخ وأولول ، وأعدو فى الطريق مستغيثة صرعى .

ولكنى مع ذلك أجلس فى هدوء وأكتب .. كأن الأمر لا يعنينى .. أو كأنى لست أنا .

أجل . . إنى لم أعد أنا . . لقد بت امرأة أخرى فاقدة

الحس متبلدة المشاعر . . لقـــد تـكسرت منى النصال على النصـال .. لقد فقدت القدرة على الألم .. لقد أصبحت جسداً هامداً .. أما ما بقى فى من إحساس ، فهو ما يسمونه « حلاوة الروح »أو ترنح الذبيح .

ولـكن لِمَ أكتب ؟. لِمَ لا أخرج فى صمت ؟. لِمَ لا أعجل بالرحيل ؟ فأستريح !

أهى الرغبة فى رفع العبء بالاعتراف ؟ . . أم هى التوبة والاعتذار واستجداء الرحمة .

ولـكن أى اعتراف وأى توبة ؟ . . الاعتراف بالذنب والتوبة منه ؟

إنى ما أحسست قط بأنى مذنبة . . وما شعرت أنى أتيت أمراً إدّاً ولا فعلا نـكراً . . بل لقـــد قضيت أيامى أقاوم وأقاوم ، وأحرم نفسى الاستمتاع بالحياة . . حتى أفلت منى الزمام فى النهاية من فرط المقـاومة . . فاندفعت إلى هذا المصير . . .

أنا لست مذنبة . . إنمـا المذنب هو القدر الذى عقـد لى الطريق . . وقلب لى الأوضاع ، ودبر لى الأمور . . — أو على الأصح — أساء التـدبير . . بحيث أضحى لا مفرّ لى من

تلك المأساة والانتهاء إلى مثل هذا الدمار .

أتراني إذاً أكتب لأعترف بذنب القدر ؟

أى سخرية هذه ؟ . هو يذنب فى حقنا ، ونحن لا نملك إلا الاعتراف بذنبه .

على أية حال ، وأياً كان صاحب الذنب فينا .. فإنى أحس من الكتابة براحة المعترف ، وهدوء التائب المقر .

ذلك هو الحافز لى على الكتابة . . اعتراف محتضر ، يبغى أن يلقى عن أكتافه — قبل الرحيل — عنا أثقل كاهله ووزراً أنقض ظهره . . اعتراف صريح علنى . . لا إلى كاهن فى خلوة . . بل إلى الناس جميعاً .

ولِمَ الكاهن ؟ وعلامَ الخلوة ؟ .. أنا لا أخجل من اعترافى . . حتى أهمس به وجلة خائفة . . بل أطلقه بملء فمى لأعلن براءتى ، ولأصيح بكم : أنى مظلومة . . مظلومة فى الدنيا وفى الآخرة . . مظلومة حية وميتة .

أنا لا أخجل من اعترافى . . فإنى أجد فيه دفاعاً عن نفسى وعن سواى من المظلومين الذين انطوت صدورهم على أسرارهم ، والذين طوتهم عجلة القدر فراحوا ضحيتها واتهموا بالذنب ولا ذنب لهم . . وأجد فيه درساً يعلمكم أن تلتمسوا

المعاذير للناس ، وألا ترموهم بالخطيئة . . دون أن تعرفوا خبيئتهم . . فرب واحد منكم رماه القدر بنفس التجربة فما كان خيراً منهم .

إنى لا أخجل من اعترافى بل أطلقه بملء فى . . صائحة بكم : هأنذا ، وهاكم قصتى :

هاكم قصة الزوجة الخائنة الغادرة . . قصة المرأة التى قد تلعنونها كلما مرت بخاطركم ، والتى قد تتخذون منها لأنفسكم عظة وعبرة تتندرون بها حيناً وتضربون بها المثل أحياناً .

هاكم قصتى . . قصة - أقسم لكم - إنها ستثير فيكم كامن شجنكم ، وتهيج مشاعركم ، وتسيل مدامعكم وتندى مآقيكم .

أم ترونى واهمة ، لا تكاد قصتى تزيد على قصة كل عاشق أضنى الهوى فؤاده ، وأحرق الحب قلبه . . وأن الوهم يأبى إلا أن يجسدها لى ويرينى أنى شىء جديد فى عالم العشاق ، وأنى — فى المصاب والبأساء — نسيج وحدى .

من منا لم يعشق ؟ من منا لم يذق طعم الهوى . . حلوه وصابه ؟ . من منا لم تنشيه متعته ويضنه عذابه ؟ . من منا لم يسكره نسيمه ويغرقه عبابه ؟

كلنا عشاق . . وكلنا ريش فى مهب ريح الحب العاصفة العاتية . . لاسلطان لنا على أنفسنا ، ولا سيطرة لنا على قلوبنا

إلا بقدر ما تسيطر الريشة على نفسها فى مهب الريح ..
لا يغرّنكم من البعض جمود أو قسوة ، ولا يخدعنكم منهم ادعاء بالسيطرة على النفس وبالسخرية من الحب ، أو أنهم فوق سلطان الهوى .

لا يخدعنكم منهم هذا فهو قول هراء ، وكلام سيذهب هباء ، ولو كانت قلوبهم من حجارة ، ومسها الهوى .. للانت وسرى فيها النبض وجاشت بالحياة .

لا يغرّنكم زعم هذا البعض .. سلونى أنا عنهم ، فقد كنت واحدة منهم .. كنت ساخرة من الحب .. ملحدة به منكرة وجوده وسلطانه .

أجل .. هذا هو ما كنت ، عندما جلست إليه ذات مرة ، وجرى الحديث بيننا عن الحب ، قلت له ، وأنا أقلب شفتى فى سخرية :

— حب .. إنه مصاب الذين لا إرادة لهم ، وداء أشبه بالخمر والميسر .. يقبل عليه الناس للهو والتسلية .. ثم يزمن بهم فيدمر حياتهم ، ويقضى عليهم .. أو هو كالجواد يمتطيه الإنسان طائعاً مختاراً ليتنزه به برهة .. فيجمح به ويورده موارد العطب .

وتملكه الدهش فقد رأى فىّ ـ على حد قوله وقتذاك ـ

فتاة ، حلوة مرحة ، لطيفة ، كأنها الزهرة كللها الندى ، وطلع عليها النهار ، واستدارت بوجهها المشرق لتواجه فجراً جديداً وشمساً ساطعة تستمد من ضوئها نوراً ودفئاً ، وسألنى لِمَ أكفر بالحب ، وهو مثل الحرارة التى تبعث فيها النضرة والنضج ، والنسيم الذى يحمل عطرها فيجعله يتضوّع ويفوح ويسكر القلوب ويشمل الأفئدة .

وضحكت ، وقلت له : هذه أوهام الشعراء ، واتهمته بأنه خيالى ، كثير القراءة ، تنضح قراءته على أفكاره فتبديها حلوة معسولة ليست من الواقع المر فى شىء ، وأن على الإنسان فى هذه الحياة أن يتصرف بعقله لا بقلبه ، وأن يتبع مصلحته ولا يتبع هواه .

قلت له هذا وأنا مؤمنة به أشد الإيمان . . فقد كنت مادية التفكير . . مادية النزعة . . علمنى الوسط الذى نشأت فيه والتجارب التى مرت بى أن أمقت الحب ، وأن أفر منه فرار السليم من الأجرب ، وأن أتصوره شيئاً مفزعاً مروّعاً يجب على الإنسان أن يحذره ويتجنبه فما أودى بالمرء إلى التهلكة غيره ومادمّر حياته سواه .

كيف لا وقد نشأت فوجدت شيطان الحب قد عصف بكل ما حولى ، ووجدته فرّق بين أبى وأمى . . فما عشت

معهما قط سوياً ، وما أحسست أبداً بنعيم الاستقرار .

نشأت فى كنف أبى . . أب صارم قد لدغ من جحر الهوى مرة . . فأقسم ألا يلدغ مرة ثانية ، وركز كل جهده لينشئنى على طبيعته الجامدة وتفكيره العملى المادى ويقتل فى نفسى كل ميل للعاطفة أو الرقة والخيال .

لا أريد أن أندفع فأنبش أحداث الماضى البعيد ، ولكن يبدو لى أنه لابد أن أستعرض تلك الفترة الغابرة . . فترة الطفولة المكبوتة الحادة الصارمة . . إذ يبدو لى أنها السبب فى كل ما حدث ، وأن ذلك الكبت فى مشاعرى وأنا طفلة والمبالغة فى الحزم والشدة فى تربيتى ، قد أنتج نتيجة عكسية وسبب لى الانطلاق من أول ثغرة بدت فى حياتى . . وأنه ككل فعل كان لابد له من رد مساو له ، ومضاد له فى الاتجاه .

منذ أن وعيت الحياة وهم يلقنوننى أن أمى ميتة ، ولقد كان ذلك منهم منتهى الغباء .. فما كنت أعدم عندما شببت ، وبدأت التفكير ، من يذكر لى الحقيقة كاملة ، وينبئنى أن أمى على قيد الحياة ، وأن تيار الهوى قد جرفها فهجرت أبى ، وتزوجت برجل آخر .

وكرهت أمى . . من فرط ما بثوا فى نفسى كرهها ، ولأنى كنت بتربيتى الجادة ، وخلقى الجاف ، الذى عودنى عليه أبى

أرى فيها امرأة حمقاء ، إمرأة مجنونة طائشة .

لم أك أعرف وجهة نظرها ، ولا الظروف التي اضطرتها إلى هجر أبي ، ولا الإغراء الذي وقعت تحت وطأته .. بل لم أحاول قط أن أفكر في أنها يمكن أن تكون معذورة ، وأني لو وضعت مكانها لفعلت فعلتها .. بل كل ما كنت أقول عنها لنفسي : إنها امرأة خائنة غادرة .. تماماً كما تقولون عني ، وما حاولت أن ألتمس لها المعاذير .. كما لم تحاولوا أن تفعلوا .

وأي عذر هناك يمكن أن يكون لامرأة تركل بقدمها ذلك القصر المنيف والنعمة السابغة والهناء المقيم ، وتترك رجلا مثل أبي وقوراً جاداً محترماً .. قد يكون خلواً من المشاعر والرقة .. ولكن مالها وله ؟ لِمَ لا تتمتع بالغنى والراحة والاستقرار ؟ لِمَ لا تدعه في حاله ، وتتمتع بحالها ؟ كيف هنّا لديها : أنا وأخي ، فهجرتنا فيما هجرت ، وضربت بنا عرض الحائط ؟!

ذلك كان تفكيري تجاهها وقتذاك .. صورة أخرى لتفكير أبي وأمه التي تكفلت بي بعد طلاق أمي .

ويبدو لي الآن .. أن أمي قد تكون معذورة في فعلتها ، وأنه لو أتيح لها أن تسجل مشاعرها واعترافها كما أفعل ، فإني أجزم .. أني كنت مبرئتها ، وإن كنت مقتنعة بدفاعها ..

تماماً كما ستبرئوننى وتقتنعون بدفاعى . . أم ترانى واهمة فيكم ، محسنة الظن بكم ؟

ما أغبانا وأسخفنا . . نجلس مستريحين هانئين ، ناعمى البال ، قريرى الأعين ، ونتخذ من أنفسنا قضاة على غيرنا ، الغارقين فى العباب ، المحروقين بالشواظ . . لنقول ببساطة : هذا أذنب ، وهذا أجرم . . ما كان يجب أن يفعل ذاك ، وما كان يجب عليه أن يغرق أو يحرق .

ما أشبهنا بالقضاة الذين جلسوا لمحاكمة الربان الذى غرقت سفينته فحكموا عليه بالإعدام بعد مداولة سبعة أيام عرفوا خلالها ما كان يجب أن يعمله الربان حتى لا تغرق سفينته ، وأجابهم الربان فى دهش : حقيقة هذا ما كان يجب أن أعمله ، ولكنكم لم تعرفوه إلا بعد مداولة سبعة أيام فى حجرة هادئة . أما أنا فما كان أمامى سوى ثوان معدودات فى زوبعة عاتية .

كلنا نفعل كما فعل القضاة . . لا نذكر لأصحاب الخطايا ظروفهم الهوجاء ، ولا مشاعرهم المرهفة ، وأحاسيسهم التى تسوقهم — إلى ما نسميه خطايا — سوق غرائب الإبل .

ما الخطايا ؟ . أهى شىء ملموس محدد ؟ ! أم هى مسائل نسبية . . تتغير تبعاً لتغير مشاعرنا واختلاف وجهة أنظارنا ؟ إنى عندما ارتكبت ما تسمونه خطيئة . . كنت واثقة

وأنا فى الظروف المحيطة بى أنها ليست من الخطيئة فى شىء . . وأن ما فعلت هو خير ما يجب أن أفعله وأنه حق فى الحياة .

وأؤكد لكم أن كل مخلوق سواى . . ما كان يفعل سوى ما فعلت .

وما دام الأمر كذلك . . فلِمَ نسميه خطيئة ؟ !

وهكذا لا أشك أن أمى قد اتخذت الطريق الأكثر ملاءمة لها ، والذى بدا لنا وقتذاك . . انحرافاً عن الطريق السوى ، انحراف بالنسبة لنا . . أما لها فما أشك أنه كان سوياً .

لعلها لم تنعم بسعادة مثالية ، ولكن من قال : إن الطريق السوى . . أو أى طريق فى الحياة يعطى سعادة مثالية ؟ كثيرون جداً لم يرتكبوا ما نسميه خطيئة . ومع ذلك فما كانوا أسعد حالا . . لقد كان لطريقهم السوى . . متاعبه الخاصة ، التى لا تقل بحال عن متاعب الطريق المنحرف .

أبى مثلا . . الرجل الجاد ، النموذجى الصارم . . كان إنساناً شقياً . . شقياً بجده ونموذجيته وصرامته . . شقياً بى وبنفسه وبامرأته الهاجرة .

ويبدو لى أنه قد جعلنى موضع تجربته ، وأنه قد صمم على أن يجعل منى مخلوقة أخرى غير أمى . . مخلوقة مثله . . لا أضحك ، ولا أشعر ، ولا أحب . . ولا أريد ما أحب

— على النقيض — لقد كان يحرّم عليّ كل ما أحب . . ويعطيني كل ما لا أرغب .

ولم أكن ألعب كما يلعب الأطفال . . بل كنت أجلس معه وجدتي يعلمني — على حد قوله — شيئاً مفيداً نافعاً

وهكذا نشأت جامدة الحس . . مادية التفكير . . كافرة بالعواطف . . هازئة بالحب . . لا أرى فيه — كما قلت — سوى داء عضال يفتك بإرادة الإنسان ، ويسلبه رشده ، ويحرمه القدرة على التفكير السليم وعلى التمييز بين ما يجب وما لا يجب ، وتبين ما حرّم عليه وما أحلّ له .

كنت أرى فيه داء يصيب الإنسان فيجعله يندفع بلا تفكير ولا روية . . كأنه قذيفة لا يستطيع شيء أن يغير اتجاهها حتى تذهب إلى مستقر لها .

وهل لا يعتبر داء . . ذلك الذي يصيب الإنسان فيجعله يأتي بكل ما هو شاذ مستغرب ؟! يصيب الملوك فيركلون من أجله عروشهم . . يصيب الآباء فينسيهم أبناءهم ، ويصيب الأزواج فيلفظون من أجله زوجاتهم ، ويقوّضون حياتهم . أي داء يمكن أن يصيب الإنسان شر من هذا ؟ وأي سعادة يمكن أن يمتع بها إنسان تكون له القدرة على أن ينأى بنفسه عنه ، ويعيش بمنجاة منه ؟



ميلاد جديد

٢

هذه هى الأفكار التى تملأ رأسى وقتذاك ، والتى كانت طبعتها فى نفسى الحياة التى نشأت عليها ولقنتها إياى العواصف التى عصفت بأبى وأمى .

كنت متشبعة بها ، ولم تكن لى تجارب فى الحياة بعد . . فلقد كنت ما زلت فى مستهلها . . فتاة فى دور المراهقة . . أو كما قال صاحبى : زهرة فى كمها لم تتفتح بعد . . فحاولت أن أتخذ من تجارب من سبقونى عظة ودرساً ، فلا أقع فيما وقعوا فيه .

وبدأت التجربة الأولى . . رافعة الرأس ، أبيّة النفس ، جامدة الحس . . وقفت أنظر إلى الصائد وهو ينصب الشباك حولى فى تحدٍّ وثقة وسخرية .

لم يكن الصائد غريباً علىّ ، ولم أكن أتصور قط أن يكون هو صائدى .. فقد تعوّدت أن أراه دائماً ، دون أن تختلج فى نفسى عاطفة أو تتحرك جارحة ، فما كنت أرى فيه أكثر من صبى ، وما كنت أضمر له أى نوع من المشاعر . . لا بغض ولا حب ، ولا مجرد إحساس بوجوده .

كان ابن خالتى . . ولم يكن بين عائلتينا أى ودٍّ أو تقارب ، بل كان بيننا شبه عداوة ، أو عداوة مستترة . . لست أدرى منشأها بالضبط ، وإن كنت أرجح أن علتها حسد من جانب

عائلته ، وترفع من جانب عائلتى .

كانت أمى وأمه أختان اختلف حظهما فى الحياة . . فقد تزوجت أمه موظفاً عادياً . . عاجله الموت وابنه ما زال فى المهد .. وأخذت الأم وحدها تكافح الحياة وليس لها من سند لتربية ابنها سوى معاش ضئيل القدر .

وتزوجت أمى من أبى ، وهو مقاول فى مستهل عمله . . أقبلت عليه الأيام ، فمنحته سعة فى الرزق وانتعشت أعماله ، وتضخمت ثروته . . حتى أضحى فى فترة قصيرة من كبار المقاولين المعروفة أسماؤهم .

ولم يكن بين الأختين — أمى وأمه — من التحاب والمودة ما يجب أن يكون بين الأخوات . . ويعلم الله من كانت منهما السبب فى ذلك ، قد تكون أمه بانطوائها وأحزانها وحرمانها وحاجاتها دون أن تجد من يمد إليها يداً ، وقد تكون أمى بتقصيرها وأنانيتها وتباعدها . . أو قد تكون لا هذى ولا تلك ، بل يكون أبى بجفافه وقسوته وصرامته وتقتيره ورفضه أن يمد يد المعونة إلى الأم الأرملة والولد اليتيم . . وتجاهلهما كأنهما لا يمتان إلينا بصلة قربى . .

قد يكون أى من هذه الأسباب هو علة القطيعة والتنافر ، أو قد تكون كلها متجمعة . على أية حال لقد كانت نتيجتها

هوة كبيرة بين العائلتين ، وازدادت الهوة عمقاً . . بانفصال أمى عن أبى ؛ وانقطاع كل صلة بيننا وبينهم . . إلا صلة واهية . . هى صداقة أخى لابن خالتى . . صداقة ناتجة عن زمالة فى الدراسة وتقارب فى السن .

تلك هى الصلة الوحيدة بيننا وبينهم . . الصلة التى لولاها لما أحسست أن لى ابن خالة . . ولما وقع عليه بصرى قط .

كنا نسكن فى « حدائق القبة » فى شارع « ولى العهد » . فى إحدى الفيلات المطلة على المزارع ، وكان أحمد - ابن خالتى - يزورنا فى فترات متباعدة : فى أيام الجمع أو العطلات ليقضى اليوم بطوله مع أخى « على » يلعبان فى المزارع أو يلهوان بصيد الأسماك .

ولم أكن خلال زياراته المتقطعة لنا فى صباه أبصر له وجهاً إلا عند حضوره ، فقد كان يلقى علىّ — لو صادفنى — تحية مقتضبة عابرة ، ولم أكن فى لقائه أقل جفافاً ولا بروداً ، فقد كنت بطبيعتى باردة جافة . . ثم يختفى بعدها فى حجرة أخى ، حتى ينطلقا سوياً إلى المزارع .

تلك كانت علاقته بنا فى صباه . . مجرد صديق لأخى . . ما رأيت فيه ما يلفت النظر إلا ذلك الترفع والإباء والكبرياء

الناتج عما يسمونه الإحساس بالنقص . . فما من شك هناك أن نشأته كانت أقل كثيراً من مستوى نشأتنا ، فما استطاع كفاح أمه فى تربيته إلا أن يهيء له حياة متواضعة ، لا يكاد يحصل منها إلا على الضرورات القصوى كالطعام والتعليم . . أما ماعدا ذلك من كماليات العيش الذى كنا نرتع فيه فقد حرّم عليه .

لم يكن هناك وجه للمقارنة بين مسكنه الذى كان يقطنه مع أمه فى شارع «بلبغا بشبرا» وبين قصرنا المنيف ذى الحديقة الغناء والجاراج والعربة الفخمة ، والخدم والحشم ، والطباخ . ولم أكن أنا لأفكر فى ذلك الفارق أو أقيم له وزناً أو أجعله باعثاً على نفورى منه أو إقلالى من قدره . . لولا شيء واحد هو تلك « النفخة الكدابة » التى كان يبدو بها ، وتلك الكبرياء وذلك الترفع الذى كان يلقانا به . . فقد جعلنى أبادله نفخة بنفخة . . وكبرياء بكبرياء . . حتى أضحى بيننا مايشبه التحدى الصامت . . واستكثر كل منا على الآخر — بلا أى سبب — تلك التحية الصامتة التى يلقاه بها فى الفترات المتباعدة التى كنا نتقابل فيها . . وانتهى الأمر بيننا إلى التجاهل التام . . كأن كلا لايعرف صاحبه .

ولم أعر أمره اهتماماً يذكر ، فقد كنا لانكاد نلتقى إلا

لماماً . . ولم يكن له فى ذاكرتى إذا ما غاب أى موقع . . ومع ذلك فقد ضايقنى هذا الإصرار منه على تجاهلى ، أو على الأصح بادلتى التجاهل والإنكار ، وأحسست منه بخدش لكبريائى .

هكذا ظلت العلاقة بيننا ونحن لم نتعد بعد دور الصبا . . نجتاز العقد الثانى من عمرينا . . وكان الفارق بيننا لايزيد على الثلاث سنوات . . وكان هو فى مرحلة التعليم الثانوى ، وأنا فى دراستى الابتدائية .

ونجح هو وأخى فى البكالوريا ، ودخل أخى كلية الهندسة وعلمت منه أن « أحمد » التحق بالكلية الحربية فقد عاونته مهارته فى لعبة الكرة على القبول بلا وساطة .

ومرّت الأيام بعد ذلك ، وأنا لاأسمع عنه شيئاً ، ولا أرى له وجهاً . . واختفى تماماً من محيط حياتى . . ولم يعد بى من حاجة إلى تجاهله أو إنكاره فقد نسيته تماماً .

ومضى عامان كغيرهما من الأعوام لم يحدث خلالهما فى حياتى جديد ، اللهم إلا منح أبى رتبة الباشوية عقب تبرعه بمبلغ ضخم لأحد المشروعات الخيرية ، ولو أن ذلك لم يحدث بالنسبة لى تغييراً يذكر . . فقد استمر أبى هو هو بنفس الجد ونفس الصرامة ، ونفس الإصرار على الحزم فى تربيتى . . وإن كانت قد زادت فى حياتنا بعض المظاهر التى تستلزمها رتبة الباشوية .

وفى ذات يوم قبيل الغروب . . يوم صيف من أيام يوليو وأستطيع أن أحدده بالضبط بالثلاثاء الخامس من الشهر عام ١٩٣٧ . . ولست من غواة تذكر التواريخ ، ولكن هذا اليوم بالذات أعتبره فى حياتى يوماً خطيراً . . يوم بدء التجربة . . يوم اشتعال الشرر والتهاب العاطفة . . يوم ميلاد جديد .

وكنت أجلس يومذاك فى شرفة رحبـــة كائنة بالدور الأول بهـا درج متسع يفضى إلى الحديقة ، وقد رصت فى أركانها أصص الزرع الأخضر من فوجير وأسبرجس ، وتسلقت على أعمدتها المدادات المزهرة . . وتسللت أشعة الشمس الغـاربة أرجوانية دامية من خلال المتسلقات فصبغت الشرفة باللون الأحمر .

ولم يكن أحب إلى نفسى من أن أخلو بهـا فى تلك الشرفة المحببة فأشرد بذهنى فى عالم جميل من الأوهام ، وأطرح عن نفسى أحزانها وأعباءها . . وأنطلق بها حرّة من قيود المـادية التى أعيش فيها والصرامة التى أحاط بها .

وسمعت وقع أقدام فى ممر الحديقـــة تقترب من الشرفة لم أعبأ بها كثيراً . . فما توقعت أن تحمل إلىّ سوى أحد الخدم ، أو الطباخ ، أو سواهم من أتباع الدار يسألوننى عن

التوافه من الأمور . . وتوقفت الأقدام ، ولم أكلف نفسي مشقة رفع بصري عن كتاب كنت أثبت في صفحاته عيني ، وقلت للقادم متسائلة دون أن أنظر :

ـــ هيه ! .

ووصل إلى أذني صوت غريب يتمتم معتذراً :

ـــ أنا آسف . . لم أقصد قط أن أقطع عليك وحدتك أو أسبب لك إزعاجاً .

ورفعت بصري لأتبين صاحب الصوت ، فأصابني من مرآه دهش وعجب ! لقد وجدته « أحمد » . . الصبي المتكبر « ذا النفخة الكدّابة » . . وقد وقف أمامي في حلة رسمية أنيقة كشفت عن اعتدال قوام ، ورشاقة قد ، وقد أحاط الحزام الجلدي العريض بوسطه ، فأظهر ضيق خصره واتساع صدره ، وبدت البدلة لامعة الأزرار محكمة على جسده كأنها قطعة منه . . ولاح لي وجهه وقد لوّحته الشمس فحوّلت بياضه إلى سمرة حمراء ، واستقام طربوشه على جبينه ، وافتر ثغره عن ابتسامة أبدت أسنانه بيضاء منظومة .

تلك كانت الصورة الخاطفة التي التقطتها عيناي له . . ووجدت الدهش والمفاجأة ينسياني ما كان بيننا من تجاهل وتحد ، وهتفت به مرحبة :

ـ أحمد ! . . أهلا وسهلا . . تفضل .

وصعد الدرجات مقترباً منى ، وقال وهو يمد يده :

ـ أكرر أسفى إذا كنت قد أزعجتك .. . لقد حضرت لزيارة « على » .

وكرهت منه هذا التحديد . . ولكنى حمدت الله أن أزال سابق نفخته وكبريائه . . وأن جعله يكف عن ترفعه حتى لا يضطرنى إلى معاملته بالمثل والعودة إلى سابق تجاهلى له ، وترفعى عنه .

وأدركت من مظهره أنه قد تحسن كثيراً ، وأن العامين قد جعلا منه مخلوقاً متزناً . . وأضاعت منه ذلك الإحساس بالنقص الذى كان يجعله يصر على سخافة الكبرياء ، ووجدت أنه قد أضحى أكثر رقة فى الحديث ، ولباقة فى التصرف .

ولم تستغرق منى تلك الملاحظات سوى ثوان معدودات أجبته على أثرها :

ـ أعتقد أن « على » سيحضر بعد برهة . . وتستطيع بالطبع أن تنتظره . . إذا كان الانتظار لا يثقل عليك .

ويبدو لى أن من الخير أن أعترف صراحة ـ مادمت قد سميت كتابتى هذه فى بادىء الأمر اعترافاً ـ بكل خلجات

نفسى . . وأن أذكر ما وراء أقوالى . . فالإنسان غالباً يقول شيئاً وفى نفسه شىء آخر .

لم يكن فى قولى أن « على » سيحضر بعد برهة ، وسؤالى إياه أن ينتظره . . شىء غير طبيعى . . ولكن الشىء غير الطبيعى كان فى قرارة نفسى . . فإنى لم أكن أعلم أن « على » سيحضر بعد برهة . . أو على الأصح كنت أعلم أنه لن يحضر بعد برهة . . فهو لم يتعوّد قط أن يكون فى الدار فى هذا الوقت .

ما الذى دفعنى إذاً إلى هذه الكذبة التافهة ؟

أمر واحد . . لا يمكن أن يكون هناك دافع سواه .
وهو رغبتى فى استبقائه ، وفى الجلوس معه ، والتحدث إليه .

كيف حدث هذا ؟ . وكيف انقلب تجاهلى له وإعراضى عنه . . إلى رغبة فى مسامرته ؟

أهو ذلك التغير الذى أصابه ؟ . . أهى البدلة العسكرية الأنيقة ، والقوام الممشوق ، والوجه الوسيم ؟

ولكن هذا لايعتبر تغيراً بمعنى الكلمة ، فوجهه هو هو ، وقوامه قد يكون اعتدل ونما بعض الشىء . . ولكن لم ينقلب الانقلاب الذى يوازى انقلاب مشاعرى .

أم ترى التغير حدث فى نفسى أنا ، وأنى أنا التى ترعرعت

وأصبحت أنظر إلى الحيـاة وإلى سائر الناس نظرة تختلف جد الاختلاف عن نظرتى وأنا فى العاشرة أو الثانية عشرة .

أعتقد أن كليهما صحيح ، وأن التغير المزدوج فى نفسى ونفسه قد سبب ذلك الانقلاب فى مشاعرى . . وكما أستطيع أن أجزم — بنظرة المرأة الفاحصة الثاقبة — قد سبب أيضاً انقلاباً فى مشاعره .

أجل . . لا أشك . . أننى قد أحدثت فى نفسه الأثر الذى أحدثه فى نفسى ، وأنه رأى أن العامين اللذين لم يرنى خلالهما قد جعلا من تلك الصبية النحيلة العجفاء البارزة عظام الظهر والترقوة . . الرفيعة الساقين . . فتاة أخرى . . بارزة الصدر ، مكتنزة الردفين . . ممتلئة الساقين . . لقد رأى الثمرة الفجة قد نضجت ، والزهرة فى البرعم الأخضر قد تفتحت وتلونت وتضوع عبيرها .

خلاصة القول . . أننا افترقنا : صبى وصبية ، والتقينا : شاب وشابة .

* * *

وجلس فى الشرفة بجوارى ، وران حولنا صمت سببه حياء عقد ألسنتنا . . ونفضت عن نفسى الحياء . . فما وجدت هناك ما يبرره . . إذ كنت أحاول أن أفهم نفسى دائماً أن

باردة الحس ، جامدة المشاعر . . وأنه لا ضير عليّ من الجنس الآخر .

واعتذرت لنفسي عن استبقائه بأني لم أفعل إلا ما تقتضيه المجاملة وواجب القرابة (كأن القرابة قد نشأت بيننا فجأة) .

ونظرت إليه أتفحص حلتـه . . وثبتت عيني على علامة معدنية في « ياقته » تمثل جندياً يمتطي حصاناً ، وقلت متسائلة محاولة خلق موضوع للحديث :

ــ علامَ تدل هذه العلامة ؟

ــ على السواري .

ــ أنت في السواري إذاً ؟

ــ أجل .. لقد التحقت به عقب أن تخرجت . . منذ ما يقرب من شهر .

ــ أتركب الخيل ؟

وحدق فيّ ضاحكا وأجاب :

ــ لا أفعل غير ذلك . . لأنه لا يوجد عندنا حمير ،

ــ لطيف ركوب الخيل . . كم أود لو تعلمته ، ولكني أخشى الاقتراب من الحصان .

ــ أستطيع أن أعلمك إذا شئت . . المسألة لا تستدعي إلا كثرة مران . . وليس هنـاك ما يخيف في الحصان . .

إنه مخلوق مهذّب ما لم نسىء معاملته . . .

ـــ كل مخلوق مهذّب ما لم تسىء معاملته .

ـــ ابن آدم . . لا . . ألم تسمعى قول الشاعر :

« إذا أنت أكرمت اللئيم تمرّدا » .

ـــ لقد ذكرتنى بالشعر . . لقد سمعت من أخى أنك تقرض الشعر ، وأنك رسام ماهر ، فما الذى حوّلك إلى هذا الاتجاه العسكرى ؟

ـــ وأى ضير فى ذلك . . هل حرّم على الضباط قرض الشعر والرسم .

ـــ ظننت أنك ستدرس فى الفنون أو الآداب حتى تتخصص فى أحدهما .

ـــ هذه أشياء لا يحسن التخصص فيها . . فهى لا تؤكل عيشاً . . إنى لا أستطيع أن أرتزق من الشعر أو من الرسم ولكنى أستطيع أن أمتع بهما كهواية .

ـــ وهل أنت سعيد بمهنتك الجديدة ؟

ـــ جداً . . رغم أنها شاقة فى بادىء الأمر . . وخاصة خلال فرقة « الركبدارية » . . التى نتعلم فيها فن الركوب . . نحن نركب أحياناً أربع ساعات متوالية .

ـــ أربع ساعات ؟ ! على فكرة .. ألم تقع عن الحصان ؟

ــ كثيراً . . ألم يقولوا : لايقع إلا الشاطر .

ــ وأنت شاطر ؟

ــ عندما أقع فقط .

وانطلقت ضاحكة . . ثم عدت أسأله :

ــ وكيف تمضى أوقات فراغك ؟

ــ فى « الميس » مع الرفاق ، أو فى السينما .

ــ وحدك ؟

ــ أحياناً وحدى .

ــ والأحيان الأخرى ؟

ــ مع رفيق .

ــ من أى نوع ؟

ــ يختلف النوع حسب الظروف .

ــ إننى أعرف أن الضباط « أشقياء » . . ولابد أنه قد أصابتك منهم عدوى « الشقاوة » .

ــ عدوى خفيفة جداً . . لا تزيد أعراضها عن الصداقة البريئة .

ــ لا أعتقد فى الصداقة بين رجل وامرأة .

ــ ولمَ ؟

ــ ليس فى هذا الجيل . وليس فى هذا البـــلد . . نحن

لم نتعود بعد أن يصادق الفتى فتـــاة صداقة بريئة لا تثير الأقاويل .. إن طبيعتنا الرجعية لا تهضم تلك الصداقة .

ـــ إنما الأعمال بالنيـات ، وما دمت واثقاً أن صداقتى بريئة .. فلا يهمنى ما يقوله الناس .

ـــ ولـكن الصداقة قد تتطور .

ـــ إلى ماذا ؟

ـــ إلى حب .

ـــ ليـكن . . ماذا فى ذلك ؟

ثم اندفعت أفصح إليه رأيى فى الحب وأعلن له إلحادى به :

ـــ إنى لا أومن بالحب .

وتدرج بنـا الحـديث من موضوع إلى آخر . . وكانت الشمس قد غربت .. وتسلل الظلام حولنـا دون أن نشعر ، ووجدته ينظر إلى الساعة فى يده . . ثم يقول :

ـــ الساعة السابعة والنصف . . لقد مضى على وجودى هنا ساعة .. وأعتقد أن « على » قد يتأخر أكثر من ذلك فقد يكون ذهب إلى السينما .

ولم أكن أتوقع قط أننـا أمضينا فى الحديث ساعة . . فقـد مضت الساعة كلمح البرق . . ووددت لو استطعت أن أستبقيه ساعة أخرى . . ولـكنى كرهت لنفسى أن تتعلق

بمتعة . . وأن تنزلق — وهى الجامدة البـــاردة الكافرة بالمشاعر — فى أول تجـربة . . وعزمت على أن أجرّب إرادتى التى أجهد أبى نفسه فى تقويتها وتربيتها . . وأن أصد نفسى عن الفتى ، وأثبت ما ادعيته فى أول الأمر من أن ما فعلت معه لم يكن سوى مجاملة وواجب قرابة .

هذا هو السبب الأول الذى جعلنى لا ألح فى استبقائه ، أما السبب الآخر ، وهو الأهم ، فهو خوفى من أن يحضر أبى وقد حان ميعاد عودته فيجدنى جالسة معه .

قد يقول قائل : وماذا فى ذلك ؟ . . وأى عيب فى أن أجلس مع ابن خالتى ؟

ولست أشك فى أنه لم يكن هناك عيب ، وأن أبى رغم صرامته وقسوته ، لو رآنى جالسة معه لما أثار ذلك فى نفسه أى إحساس بتبرم أو غضب ، فما أظنه يحرّم علىّ الجلوس مع « ابن خالتى » المعروف بهدوئه وحسن خلقه ، وما أظنه يجد فى ذلك إثماً أو جرماً ، ومع ذلك فقد كنت أكره أن يرانى فى جلستى هذه ، لأنى كنت أحس فى باطنى — رغم براءة الجلسة — أنى قد فعلت إثماً . . وكنت أنا أدرى النـاس بذلك . . أدرى من أى مخلوق لسبب واحد ، لا يمكن أن يدركه سواى . . وهو أنى أحسست بمتعة فى الجلوس إليه .

لقد سبب إحساسى بالمتعة . . الشعور بالوزر . لأنه كان يجب علىّ أن أحرم نفسى هذه المتعة .

ووجدتنى أمد يدى إليه محيية وأنا أنظر إليه فاحصة من أعلى إلى أسفل ، ومن أسفل إلى أعلى .

وأصابه شيء من الارتباك وتساءل :

— أبى شيء لا يعجبك ؟

— بدلتك . . وفرط أناقتك . . حتى لتبدو أنك لست ضابطاً حقيقياً .

— لست ضابطاً حقيقياً ؟ ! ماذا أكون إذاً ؟

— ممثل .

وكنت أقصد بقولى مجرد المزاح . . ولكن بدا لى أنه قد حمل قولى محمل الجد . . فقد لمحت فى وجهه علائم ضيق ، وهممت بأن أعتذر له وأزيل ضيقه ، ولكن سمعت صوت عربة تقف بالباب ، ثم سمعت صوت أبى مقبلا . . فلم تكن هناك فرصة للاعتذار .

وحيّاه أبى وهنأه بالتخرج تهنئة مقتضبة . . ثم ودّعنا وولى وجهه شطر الخارج وأخذ يقطع أرض الحديقة بقدميه فى مشيته العسكرية .

وسرت وأبى إلى داخل الدار ، وبعد برهة حضر أخى ،

وجلسنا للعشاء ، وأنبأته أن « أحمد » أتى لزيارته .

وبدا عليه الاهتمام وسألني فرحاً :

ــ أحمد . . ابن خالتي !! لِمَ لم ينتظر ؟

ونظرت إلى أبي ، وللمرة الثانية وجدتني أكذبُ على غير إرادة ، وأجبته قائلة :

ــ كان على عجل . . فلم يشأ أن ينتظر .

ــ لاشك أنك أسأت استقباله كعادتك .. أنتِ باردة .

ــ أكنت تريدني أن آخذه « بالحضن » ؟ .

ــ يجب عليكِ أن تتعلمي الترحيب بالناس . . أنت لم تعودي صغيرة .

ــ من قال لك أني لم أرحّب به ؟

ــ أنا أعرف طبعك . . جافة باردة .

وكان أخي دائماً يتهمني بأنني إنسان بلا شعور ، وكان لا يفتأ يبدي تبرمه بي وبأبي وبحياتنا الجافة ، ولم يكن يتورّع عن إعلان كرهه لنا . وعن تمني اليوم الذي يفارق فيه الدار .

ونظر إليه أبي نظرة صارمة وقال له :

ــ ليس لك بها شأن . . عليك نفسك . . . أنت غير مسؤول عن تهذيبها .

ومضت فترة صمت . . ثم سألني أخي :

— هل كان يرتدي بدلته العسكرية ؟

وأجبته باقتضاب وبغير اهتمام :

— أجل !

— كيف كان يبدو بها ؟

— لا أدري .

— كيف ! . ألم تريه ؟

— لا أدري .

— وقحة . . باردة .

ثم نهض أخي عن المائدة وهو يرميني بنظرة غيظ .

وذهبت إلى الفراش ليلتذاك . . ولست أريد أن أمعن في المبالغة أو أكون روائية الحديث ، فأزعم أني قد شغفت به منذ تلك الليلة حباً ، وأني قد بت صريعة هواه . . أو أنني لم أنم من فرط التفكير فيه . . لم يحدث لي بالطبع شيء من هذا ، وإن كنت لا أستطيع أن أنكر أن جفنيّ لم يغمضا بمجرد أن رقدت في الفراش . . لا لتفكيري فيه . . بل لنهي نفسي عن التفكير فيه ، ولإبعاد صورته عن مخيلتي . . ولأردد لنفسي أنه لا شيء ، وأن سواه من الرجال لا شيء ، وأني أستطيع بإرادتي وصلابتي أن أجعل

بيني و بينهم جداراً سميكا يقيني عدوانهم .

لم يكن ما أصابني تلك الليلة حب . ولكنه كان مبادىء استيقاظ للقلب . . تماماً كما يفتح المرء عينيه في الصباح أول مرة ثم يتثاءب ويتقلب في الفراش . ثم يغمضهما مرة أخرى ويروح في غفلة قصيرة يستيقظ بعدها لينهض من الفراش ، ويبدأ عمله .

لقد أصاب القلب إذ ذاك . . ما يمكن أن يسمى أول رعشة . . أو أول هزة . . نفضت عنه ذلك السبات العميق المغرق فيه . . وأزالت عنه تلك الأتربة السميكة من الحزم والصرامة والكبت والتربية التي قد تراكمت فوقه . . . وطرقت قيود الجمود التي كبلته ، وشققت صخور الجليد التي أحاطت به .

وأغمضت عيني ، وأنا قلقة حائرة . . بين متعة الإحساس الجديد ، وخوف الخطر المجهول الذي كنت أتوهمه وراءه . كانت بي رغبة في الاستزادة منه وخشية من عواقبه .

لقد بت وأنا أتلهف على زيارة أخرى ، وعلى حديث أطول . . وتمنيت لو استطعت أن أعتذر له ، وأن أزيل

عن وجهه ذلك الضيق الذى سببته له ، وفى الوقت نفسه كنت أرجو ألا أراه . . وأصمم إن رأيته أن أعود إلى سابق تجاهلى اياه . .

لقد نمت فى اليوم الخامس من يوليو سنة ١٩٢٧ ، وأنا أحس أن ناقوس القلب يدق إيذاناً باقتراب الخطر ، أو إيذاناً بميلاد جديد .. ميلاد عاطفة . . ميلاد قلب .



البقية تأتي

٣

ناقوس القلب إيذاناً بالخطر . . ولكنه لم يكن
خطراً عاجلا ، فقد خفتت الدقات وسكت الرنين دو
وعاد إلى القلب سكونه المخيم . . وأعقب رجفته استغراق
فى السبات عميق ، وعاد إلى سابق عهده من الجفاف والبرود .

لم تتح لنا الظروف لقاء عاجلا . . يواصل إيقاظ القلب ولا يدعه يتثاءب ويتمطى ، ثم يغفو ويستغرق فى سباته ، فقد سافرنا فى اليوم التالى إلى الإسكندرية ، ومرّ بى صيف كغيره من سابقيه راكد ساكن . . كأنى فيه من فرط تشابه أيامه وتكرر أعماله موظفة حكومية . . فنى الساعة العاشرة أكون ، وجدتى ، قد اتخذنا مجلسنا فى الكابين ، ويكون أخى قد ارتدى المايوه وانطلق إلى البحر .

وتمر بنا الساعات متثاقلة فى الحديث ، أو فى عمل «تريكو» أو فى استقبال بعض العجائز من صديقات جدتى أو الفتيات من زميلاتى ، حتى إذا حانت الساعة الثانية حضر أبى ليمكث ربع ساعة أو نصف ساعة ثم يعود بنا إلى البيت للغداء وبعد الظهر إما أن نذهب إلى سينما ، أو نستريض على الكورنيش .

كانت الحياة تسير بى هادئة طبيعية مثلى . . وكنت رغم

إحساسى بالفراغ والركود ، ورغم تبرمى بها أحياناً . . أحس إعجاباً لصمودى أمام نظرات الشباب من صحاب وغير صحاب وترفعى عن الأعين المحدقة ، والأحاديث المعجبة ، وأحسد قلبى لأنه لم يلن ، ولم يتلهف ، ولم يحن ، وتناسيت تماماً ما كان من أمر محركه الأول ، وموقظه من سباته ، وقارع النواقيس فى حناياه ، وموقد الشموع فى رحابه .. تناسيته تماماً وحمدت للأيام هذه المنحة من النسيان .

وعدنا إلى القاهرة فى أواخر سبتمبر بعد ثلاثة أشهر ، واستقر بنا المقام فى دارنا وقد خلا ذهنى منه . . ولم أعد أتوقع منه أية زيارة ، بل ولا أنتظرها .

وفى ذات يوم كنت وجدتى فى محل « شيكوريل » نبتاع بعض الحاجيات عندما التقينا هناك بخالتى — والدته — ولم نك قد التقينا قبل ذلك بأعوام .

وتصافحنا ، ووجدتها تنظر إلىّ فى دهش وتقول :

— ما شاء الله . . لقد كبرت يا « عايده » ، وأضحيت عروسة . .

وأصابنى شىء من الارتباك ، وخاصة أنى وجدت بعض روّاد المحل يتلفتون إلىّ ويحـدقون فىّ بتطفل . . ، كأنما أرادوا أن يتأكدوا حقيقة أننى قد أصبحت « عروسة » .

ولم أجد ما أدارى به حيائى سوى أن أتكلم فقلت لها لمجرد رغبتى فى أن أقول شيئاً :

ـ كيف حال أحمد ؟

ـ بخير . . الحمد لله . . لقد أضحى هو الآخر رجلا .

ـ لقد رأيته فى حلته الجديدة .

ـ أعرف ذلك . . فقد أبلغنى أنه كان فى زيارتكم ، وأنه جلس معك مدة طويلة .

وتدخلت جدّتى فى الحديث قائلة :

ـ كيف . . إنى لم أبصره .. لِمَ لم تخبرينى أيتها الماكرة ؟

وأجبتها فى تلعثم :

ـ لقد حضر لزيارة « على » ولما لم يجده مكث ينتظره وأظن أنك كنت ليلتذاك فى زيارة عمى « زكى بك » .

ووجدتها توجه الحديث إلى خالتى :

ـ يجب أن تدعيه لزيارتنا ، لقد كان دائماً صديق «على» .

وأجابت خالتى :

ـ وما زال صديقه . . إنه يحبه كأخيه . . ولكنه « واخد على خاطره » من عايده .

وتساءلت فى دهش :

ـ منى أنا ؟

ـ أجل . . لقد قال لى إنك قلت له إنه كالممثلين . . وقد صمم أن يكف عن زيارتكم منذ ذاك اليوم .

ـ لقد كنت أمزح . . إنى آسفة جداً . . أرجوك يا « تنت » أن تعتذرى له عنى .. إنى لم أقصد أن أغضبه أبداً.

وقالت جدتى مؤذنة بانتهاء الحديث هامة بالانصراف :

ـ دائماً لسانك طويل ، وكلامك فارغ .

ثم ودعنا خالتى ، وانصرف كل منا فى طريقه .

وعدنا إلى البيت وأنا أحس فى القلب ذبذبة ضعيفة . . ورجفة خافتة .

وفى اليوم التالى ـ قبيل العصر ـ وكنت مضطجعة على الأريكة فى الدور العلوى ، سمعت جرس الباب يدق وفتح الخادم الباب ، وسمعت خليطاً من صوته وصوت آخر . . جعلنى ـ برغمى ـ أنهض واقفة ، وأتجه بحركة لا إرادية . . إلى المرآة لأطمئن على شكلى . . وأصفف شعرى بقدر ما أستطيع من السرعة ، وأمر بأصابعى على حاجبى لأرتبهما وأعيد الشعيرات الخارجة إلى مكانها .

ووجدت أنى بهذا العمل السريع الذى فعلته بلا تفكير ، قد أعددت نفسى للقائه ، كأنى جزمت أنه قد حضر للقائى أنا ، لا لقاء أخى . . مع أنى ـ فيما مضى ـ لم أحاول مرة واحدة

أن أعنى بلقائه . . فقد كنت اعتبره فى غير دائرة الاختصاص ، وكنت غالباً أتنحى عن طريقه حتى لا أكلفْ نفسى مشقة تحيته والترحيب به .

وسمعت صوته يتصاعد إلىّ من أسفل وهو يقول للخادم:

ـــ سيدك « على » موجود؟

ـــ لا ياسيدى . . لقد خرج منذ نصف ساعة .

ـــ ألا تعرف متى يعود؟

ـــ لا أعرف بالضبط . . ولكنه تعوّد ألا يأتى إلا فى المساء .

ومضت فترة صمت قصيرة ثم سمعته يقول :

ـــ حسناً . . أخبره أنى قد أتيت لزيارته .

وبدا لى أنه يهم بالانصراف .. فتملكنى الضيق ، ولكنى سمعت الخادم يرد قائلا :

ـــ سيدتى « عايده » موجودة ، أتريد أن أنبهها بحضورك؟

وحمدت للخادم قوله ، وانتظرت الإجابة ، وأنا أرهف السمع ويداى منهمكتان فى تصفيف شعرى ، وعيناى مثبتتان فى المرآة .

وبعد فترة تردد سمعته يجيب :

ـــ لا . . لا داعى . . بلغها سلامى .

وهنا لم أجد بداً من ترك المرآة ، والإسراع إلى أسفل ،
وأنا أسأل الخادم بصوت عال كأنى لا أعرف من الزائر :

ــ من بالباب . . يا ابراهيم ؟

ــ سيدى « أحمد بك » .

ــ دعه يتفضل !

وارتفع صوت أحمد يحيينى :

ــ إزيك يا عايده !

ــ أهلا وسهلا .

وهبطت إليه ومددت يدى أصافحه .

ولأول مرة فى حياتى أشعر أن لمصافحة الأيدى متعة ، ولتلامس الأصابع لذة ، وتبين لى أن الأجساد البشرية موصل جيد للحرارة الكهربائية . . فقد سرى إلىّ من مس يده تيــار أحدث فى جسدى رجفــة وفى قلبى خفقة ، ووجدتنى أضطرب وأرتبك رغم كل ما بذلت من جهد لكى أتمالك وأبدو طبيعية

وجلست على أحد المقــاعد وطلبت منه أن يجلس ، ونظر إلى وجهى وقال مبتسما :

ــ يبدو عليك اسمرار البحر ! !

ــ ألسمرة تعجبك ، أم البياض؟

– حسن فى كل عين من تود !

– عدنا إلى الشعر . . ألم تنسك « الخيل » إياه ؟

– بل شجعتنى عليه . . إنها أشياء متلازمة . . الخيل والبيد والشعر .

– والهوى ، وليلى ؟ !

– مالى من ليلى . . الآن على الأقل !

– وبعد ذاك ؟ .

– من يدرى ! .

وتذكرت غضبه لإساءتى إياه بتشبيهه بالممثلين فقلت له :

– لقد نسيت أن أعتذر لك !

– علامَ ! !

– على ما بدر منى فى المرة السابقة . . إنى ما قصدت به سوى المزاح . . أرجو ألا تكون غاضباً منى !

– أنا أغضب منك ؟ . حاشا لله !

– إذاً لِمَ قلت لوالدتك إنك لا تزورنا بسببى ؟

– أنا قلت هذا ؟

– قلت ما يشبه هذا . . قلت إنك تحب أخى ، وإنه صديقك الدائم . . ثم قلت إننى أسىء إليك .

وأطرق برأسه برهة ، ثم رفع إلىّ بصره ، وابتسم قائلا :

ـ الواقع أنى لم أتعوّد منك سوى المعاملة الجافة ، والبرود والتجاهل . . أتنكرين ذلك ؟

ـ لا أنكره ، ولكن بسببٍ .

ـ أى سبب ؟

ـ سببك أنت .

ـ أنا ؟

ـ أجل .. لقد كنت أعطيك واحدة بواحدة ، والبادىء أظلم . . لقد كنت دائماً البادىء بالكبرياء والنفخة والتجاهل ، فقابلت معاملتك هذه بالمثل .

ـ هذه مسألة يصعب حلها . . . من كان منا البادىء بالتجاهل ، ؟ . . تماماً كمسألة البيضة والفرخة . . أيها وجد قبل الآخر ، وأيهما نتج عن الآخر . على أنى أعتقد أن خير طريقة لحل المسألة هو أن نكف سوياً عن تلك المعاملة ، ومن جانبي أنا . . ساكف عنها ولو لم تكفى أنت ، وسأعتذر لك عن كل مامضى من نفخة وكبرياء وتجاهل ، وسأبدأ عهداً جديداً من التواضع . . ما رأيك ؟

ـ حسناً ، وأنا سأبادلك عهداً بعهد ، ووعداً بوعد .

ـ اتفقنا . . دعينا نتصافح على ميثاقنا الجديد . . ميثاق حسن المعاملة .

وضحكت مقهقهة ، ومددت يدى لمصافحته . . وسرى بيننا نفس التيار الذى سرى أول مرة .

وصمت برهة ثم سألنى :

ـ أمازلتِ تريدين أن تتعلمى ركوب الخيل ؟

ـ ليتنى أستطيع .

ـ ولِمَ لا . . سأحضر إليك بالحصان ذات مرة ، وسأخرج بك للتنزه بين المزارع .

ـ وإذا وقعت ؟

ـ تركبين مرة أخرى . . إذا استمر الحصان فى مكانه ، وإذا جمح تعودين سيراً على الأقدام .

ـ وإذا كسرت ساقى ؟

ـ يتبقى لك ساق ثانية

ـ وإذا قذف بى فى الترعة ؟

ـ تغرقين إذا كنت لا تجيدين السباحة ، وتبتل ثيابك وتصابين بالبرد إذا كنت تعرفينها .

ـ ما شاء الله . . أهذا هو ميثاق حسن المعاملة ؟! من منا البادىء بنقضه . . كسرت ساقى ، وقتلتنى غرقاً . أهذه معاملة ؟

ـ هذه معاملة الخيل . . لست مسؤولا عنها .

ـ دعنا من « الخيل » الآن . . خبِّرنى كيف تقضى

وقتك . . هل ما زلت تتعلم فن الركوب . . أم صرت راكباً فناناً . . أم فناناً راكباً ؟!

— كليهما . . لقد انتهت فرقة « الركبدارية » ، وأضحيت ضابطاً قديماً مسؤولا ، وتسلمت « بلوك » ، وأضحيت قائداً لأربعين جندياً ، وأربعين حصاناً . . ما رأيك ؟

— كثير عليك . . ماذا تفعل بكل هذا ؟

— إذا لم تكفي عن السخرية . . سأبطل الحديث .

وضحكت وأنبأته أني لا أسخر بل أستكثرها حقيقة . . . وقلت وأنا مسترسلة فى الضحك :

— لو كنت مكانك وسلمونى أربعين حصاناً لاعتبرتها كارثة ، وهربت هاربة خشية أن « يرفصنى » أحدها . . أو « يعضنى » آخر . حدثنى ماذا تفعل بهذا البلوك الذى تقوده ؟

— أدرّب الجنود ، وأتولى رعايتهم والعناية بهم ، وأنا مسؤول كذلك عن نظافة الخيل ، وطعامها ، وسروجها ، وتدريبها .

— كان الله فى عونك .

— عدنا إلى السخرية !

— هذه سخرية ؟ . أنا أطلب من الله أن يعينك على الأربعين حصاناً . . كيف تقوم لها بكل ما ذكرت ؟

ــ أستيقظ حوالى السادسة . . وأكون فى الإسطبل الساعة السادسة والنصف . . فأتمم على الجنود والخيل . . وأتأكد أن واحداً منها لم يضع .

ــ واحد يضيع ؟ كيف ؟

ــ لقد سمعت أن الطوبجية سرقوا ذات مرة بغلاً من السوارى . . ومن ذلك اليوم ، وأشد ما أخشاه أن يسرقوا منى حصاناً أو عسكرياً .

ــ وبعد أن تتمم عليها ؟

ــ نبدأ التفتيش على نظافة الخيل والسروج والجنرد ، ثم نصطف للتابور . . وفى الساعة السابعة نتحرك إلى الخانات وهى أرض مفروشة بالقش نتخذها ميداناً للتدريب . . فإذا ما انتهى التابور عدنا إلى الشكنات لسقى الخيل وإطعامها . . ثم نتناول طعام الإفطار ، وتبدأ بعد ذلك عملية « الطومار » . . وهى تنظيف الخيل . . وهى أثقل عملية تصادفنى فى يومى وأشدها مللا . . فإنى أذرع فيها الإسطبل ما يقرب من المائة مرة ، وأسرح فى كل شىء . . وأقرض الشعر ، وأؤلف القصص . . ويبدو لى أن دهراً قد فات ، ثم أنظر إلى الساعة فإذا بها لم تتجاوز نصف الساعة .

* * *

لست أدرى ما يدفعنى الآن إلى تذكر تلك التفاصيل التافهة . . ولكن يبدو لى أن فى تذكرها إطفاء لحرقة نفسى وتهدئة للوعة قلبي . . إنى أستطيع الآن أن أذكر أقواله كلمة كلمة . . أستطيع أن أذكر كيف كانت تلك الأحاديث التى قد تبدو لكم تافهة مملة . . ذات وقع لذيذ فى مسمعى . . كنت أصغى إليها باهتمام عجيب .. شاعرة أنى قد بت أمت إلى دنياه بصلة وثيقة ، وأن عالم الخيل والجنود « والطومار » و « حياة الميس » ونوادر الضباط وأعمال الشكنات قد أضحت أشياء هامة لدىّ ، كما هى هامة لديه .

كنت أحب حديثه عن نفسه . . مدعية لنفسى أنى أحب الحديث . . كمجرد حديث . . وأن هذا لا يعنى قط أنى مهتمة بصاحب الحديث .

كنت أدعى هذا ، وأنا أعلم فى قرارة نفسى أنى كاذبة ، فما خطر ببالى من قبل . . وقد أمضيت على قيد الحياة سبعة عشر عاماً . . أن أهتم بالخيل . . أو بالضباط . . أو بالجنود ، بل ما فكرت لحظة أن هناك شيئاً يسمى « السوارى » بل كنت أعرف أن هناك جنوداً وضباطاً .. ولا أكاد أفرّق بين ضابط البوليس والجيش .

وظل يحدثني ذلك اليوم دون أن يمل من الحديث ، أو أمل من الإنصات . . حتى سمعت صوت « جدتى » تنادينى بأن أصعد لارتداء ملابسى استعداداً للخروج ، فقد كنا على اتفاق بأن أصحبها فى زيارة إحدى العائلات الصديقة .

وتمنيت أن تذهب وحدها ، ولكنى لم أكن من الجنون بحيث أحاول أن أدعى أى سبب للتخلف ، فقد كنت أكره أن أضع نفسى موضع الشكوك . . لا أمام الناس فحسب بل أمام نفسى .

وعند ما سمع هو صوت « جدتى » تهيأ للانصراف ، واستأذننى فى أن يصعد لتحية « جدتى » . . فصعدنا سوياً .

وكانت «جدتى» مخلوقة طيبة ، حلت فى حياتى محل الأم ، ولم أكن أجد فيها عيباً إلا شدة شبهها بابنها ـ أبى ـ من ناحية التربية والآداب والكرامة ، وغير ذلك مما أثقلوا علىّ به .

ولقيته « جدتى » بالترحاب . . . ترحاب العجائز الذى لا يخلو من الربت والبسملة ، ودعوة الله أن يحرسه ويحفظه من العين .

وتقبل « أحمد » دعواتها بالشكر وبعض الخجل . . ثم ودعنا وانصرف بعد أن دعته « جدتى » إلى تكرار الزيارة

خاصة وأن عمله ليس بعيداً عن البيت .

وخرجت مع « جدتى » قبيل الغروب . . وقد تملكنى إحساس بالسعادة لا أدرى كنهه ولا علته .

كنت أحس بنشوة خفية . . كنت على حال من الطرب والسرور تدفعنى إلى حب الناس كلهم وحب الدنيا بأجمعها .

كنت ميالة إلى المرح والغناء . . كنت أشعر برضى عن كل شىء ، وعند ما عدت إلى الدار وتناولت العشاء وذهبت إلى النوم أحسست برغبة تدفعنى إلى الجلوس فى الشرفة وإلى أن أفكر كثيراً .

وأحسست وأنا أحدق فى النجوم بحنين إلى شىء مجهول وبدا لى كأننى شىء ناقص . . مازال له بقية .. هنا أو هناك ، وأنى أتلهف على بقيتى . . وبدا لى أنها تحوم حولى ، أو أحوم حولها . . وأنها تتوق إلىّ كما أتوق إليها ، وأن كلا منا سيظل يلهث فى الحياة ويتخبط حتى نلتقى . . فنصبح شيئاً تاماً كاملا ، قائماً بذاته .

ولم أحاول أن أحدد لنفسى على أى شكل خلقت بقيتى وعلى أى صورة كوّنت . . ولا حاولت أن أقترب بها من الحقيقة فأجسدها على هيئة معينة ، وألبسها لمخلوق بالذات ،

فقد كنت أجبن عن ذلك . . كنت أفضل أن أبقى هائمة . . وأن أقول لنفسى إن هـذه أوهام وأحلام . . على أن أعترف لها بأنى — ببساطة — أسعى إلى الحب ، وأن هذه البغيـة التى أتوق إليها .. إنسان حى كائن .. أشعر به يقترب من محيط حياتى ، ويطرق باب قلبى .

كنت أكره أن أعترف حتى لنفسى . . أن رجـلا ، أو على وجه أدق ، أن « أحمـد » . . قد بدأ يتخذ لنفسه فى نفسى مركزاً ممتـازاً . . وأنى ككل أنثى أوشك أن أتردى فى هاوية الحب . . إن لم أكن قد ترديت فعلا . . وأن كل تلك المنـاعة التى حصنت بهـا ، والمبادىء التى لقنتها .. قد تهاوت عند أول هجمة من هجمات الحب .

وذهبت إلى الفراش ورأسى خليط من الأفكار وبنفسى مزيج من المشاعر . . حنين ، وخوف ، وتمنّ ، وانتظار ، وكان كل ذلك قد أحيط بهالة من السعادة والإحساس بأن أحداثاً توشك أن تقع فى حيـاتى ، وبأنى رغم كل ما أدعيه من السخرية من الحب . . والإلحاد به ، . ورغم جمود حسى ، وبرود مشاعرى . . قد تردّيت فى الهـــاوية . . وأننى مهما ادعيت ومهما زعمت فقد وقعت فى الشرك ، وبت أتلهف على حضور « أحمد » . . وأتشوّق إلى رؤيته .

كيف لا ، وأنا إن قد قاومت تفكيرى فيه فى يقظتى هاجمنى طيفه فى نومى ، فلم يدع لى حلماً واحداً أخلو فيه بنفسى دون أن يشاركنى فيه .

قاتل الله الأحلام ، لقد هزمتنى شر هزيمة . . لقد كنت أراه وأحبه فى كل حلم .



أمنية مشتركة

٤

أخذ « أحمد » يتردد بعد ذلك على دارنا فى فترات متقاربة . . وكان حضوره طبعاً . . لزيارة أخى ، أو على الأقل هذا ما كان يبدو فى الظاهر وإن كنت بإحساس المرأة قد استطعت أن أجزم أنى وحدى كنت مقصده .

ولم تتح لنا فرصة لقاء طويل ، إذ كان يجد أخى فى كل مرة يأتى إلينا ، وكان إما أن يمكثا معاً أو يخرجا سوياً . . ولم أك أعدم فى كل مرة سبباً يبرر لى أن أدخل حجرة أخى وأن أسلم عليه وأتحدث معه حديثاً سطحياً عابراً .

وفى ذات يوم ، فى أواخر أكتوبر ، اتفقت مع «جدتى» على أن أصطحبها إلى إحدى دور السينما حيث كان يعرض فيلم مصرى ، وارتدينا ملابسنا استعداداً للخروج ، ووقفنا بالباب . . وعندما كنا نهم بركوب العربة لمحت « أحمد » مقبلا علينا .

وبعدما اقترب منا حيانا وقال متسائلا :

— « على موجود » ؟

وأحسست برغبة تصدنى عن الذهاب إلى السينما وتمنيت أنى لو أجلتها إلى يوم آخر . . فقد كان الوقت مناسباً للتمتع بجلسة لطيفة . . ولكن لم تكن هناك وسيلة للنكوص .

وأجبته :

— لقد خرج منذ برهة .

ونظر إلىّ .. وقد بدا عليه أسف ظاهر لم يستطع أن يخفيه .. أسف لأنه لم يجد أخى ، وأسف أشد لأنى لست باقية فى البيت .

ولم يملك سوى أن يحيينا .. ويهمّ بالمسير .. ولكن « جدتى » دعته إلى أن نوصله بالعربة إلى حيث يريد .

وركب بجوارى ، وسألته « جدتى » :

— إلى أين ؟

— ليس لى مقصد معين ، ربما ذهبت إلى السينما .

— إذاً تذهب معنا ، إننا ذاهبتان لمشاهدة فيلم (الشيطان شاطر) .. هل رأيته ؟

وأحسست أن الأمور قد تطوّرت فى غمضة عين إلى خير ما أشتهى .. لأنه لاشك سيصحبنا إلى السينما .. وأنى أوشك أن أجلس بجواره ثلاث ساعات .. وتمنيت أن يقول إنه لم يره وكان هو عند حسن ظنى ، فأجاب سريعاً :

— لا .. لم أره .. ولكنى سمعت أنه من خير الأفلام . إنهم يقولون إنه مضحك جداً .

— كذا قالت لى عايده ، ولهذا أصرّت على أن تدعونى

لمشاهدته .. أنا لا أحب السينما . . ولكن عند ما يكون الفيلم مضحكا تصبح محتملة .

وانسابت بنا العربة فى « شارع الملك » ثم شارع « الملكة نازلى » ، وتملكنى إحساس عجيب بالسعادة والرضا عن جلستى بجواره .. وأخذت أرقبه بطرف خفى .. ولم تخف عليه نظراتى فسألنى مازحاً :

— أما زلت ترينى كالممثلين . . مفرطاً فى الأناقة . . مفرطاً فى الجدة ؟

وضحكت وأجبته :

— لا . . لقد بدا عليك القدم . . وأوشكت البدلة أن تبلى . . بعد شهر ستصبح كالسعاة .

وتدخلت جدتى ناهرة إياى :

— يابنت .. كفى عن قلة الأدب .

وأجاب هو ضاحكا :

— دعيها . . فسأعرف كيف أعلمها الأدب . . إن بيننا ميثاق حسن معاملة . . والشتائم فى عرفها من حسن المعاملة .

ووصلنا إلى السينما ونظرت إلى واجهتها فإذا بى أرى إعلاناً عن فيلم جديد ، وإذا بالفيلم الذى أتينا لرؤيته قد انتهى عرضه .

وكان الفيلم المعروض أجنبياً . . وتملكنى خوف

من أن تنكص « جدتى » عن الدخول .. وقلت لها :

— لقد انتهى عرض الفيلم . . والفيلم الجديد أجنبى . . ما رأيك يا نينه ؟

— فيلم أجنبى ؟ أنا لا أفهم من هذه الأفلام شيئا . . كان يجب عليك أن تتأكدى من برنامج العرض فى الصحف .. حتى لا نقطع « المشوار » بلا فائدة .

— ولكنه فيلم جيد جداً .. من أحسن الأفلام .

— أحسن الأفلام وأردؤها عندى سواء ، لأنى لا أفهم كليهما .

— سأشرح لك .

— لا .. لا .. لا داعى لتعب القلب .

ومضت فترة صمت لم أستطع أن أخفى خلالها علائم الضيق على وجهى وأردفت « جدتى » قائلة :

— على أية حال . . يمكنك أن تدخلى السينما مع « أحمد » وسأذهب أنا لزيارة « نفيسه هانم » ثم أعود إلى البيت .

ولم أصدق أذنى ، فقد وجدت أن الظروف قد كرمت معى إلى حد التبذير والسفاهة .. وأسرفت فى سخائها إلى درجة لم أتصورها قط .

أهكذا ينتهى الأمر بنا بمثل هذه السهولة إلى أن ندخل وحيدين سوياً ؟ لا .. لا .. هذا كثير !

وكان الواجب علىّ أن أبدى بعض التردد والممانعة ، وأن أقول مثلا « لا ضرورة اليوم للسينما » أو « لا يا نينه سأعود معك » أو أدعى أن « نفيسه هانم » قد أوحشتنى .

كان هذا الواجب علىّ ، وكانت تلك هى الأقوال الطبيعية المنتظر منى قولها .. ولكنى خشيت أن ينقلب الأمر فى اللحظة الأخيرة ، فتوافق « جدتى » على أن أعود معها ولا يصيبنى غير الندم . . « وعلى نفسها جنت براقش » .

وهكذا وجدت نفسى أقول ببساطة وكأنى أمتثل لأمر مجبرة عليه :

ـــ أمرك يانينه !

وهبطنا من العربة ، وأحسست بيده تطبق على يدى ليقودنى وسط الجماهير المتراصة أمام دار السينما . . وتركنى قليلا ليبتاع التذاكر . ثم دلفنا إلى الداخل .

وقادنا عامل المقاعد « ببطاريته » وسط الظلمة إلى مقاعدنا وسرنا نتحسس طريقنا وهو يمسك بيدى حتى استقررنا على

المقاعد، وانتهى عرض «الجريدة» التى حضرنا فى خلالها
وعرضت إشارة الفيلم القادم .

وقلت له وأنا أشاهد الإشارة :

ــ الظاهر أنه فيلم مدهش !

ــ نراه سويا .. إذا لم يكن لديك مانع .

ــ ولكن «جدتى» لا تحب الأفلام الأجنبية !

وخيل إلىّ أنه يبتسم فى خبث وهو يقول :

ــ وفيها إيه ! تذهب لزيارة نفيسه هانم .. حفظها الله

وحلت فترة الاستراحة وأضيئت الأنوار . . وأخذنا
نتطلع إلى الوجوه المحطة بنا ، ووجدته يشير برأسه محيياً ،
وتلفت إلى حيث ينظر فوجدت سيدة وفتاة فى مثل سنى وشاباً
يبدو أنه أخوها . . فقد كانا متقاربين فى الملامح .

وعندما انتهى من تبادل التحيات والابتسامات ، نظر إلىّ
وقال مفسراً :

ــ محمود عبد الرحيم وأخته «ابتســـام» وأمهما . .
جيراننا فى المنزل .. والأم أعز صديقات أمى . . عائلة طيبة .
وأمى تحبهم كثيراً .

واسترقت نظرة أخرى إلى الفتـاة ، فاحصة إياها فحصاً

سريعاً . . فوجدتها على كثير من الجمال . . وخاصة جمال الوجه . . أما جسدها فقد بدا لى على قدر ما رأيت مائلا إلى السمنة .

وقلت مسترسلة :

— الفتاة جميلة ! .

فأجاب بعدم اكتراث :

— بنت حلال .

وعدت أقول مازحة وفى شىء من السخرية :

— أراها تنظر إليك كثيراً ؟

ونظر إلىّ برأسه محدقاً كأنه يود أن يعرف ما وراء كلامى ، ثم قال وهو يبتسم :

— متأكدة ؟

— جداً . ويبدو لى كأن وجودى معك قد ضايقها !

— معها حق . . أليست « عروستى » المقبلة ؟ على كل حال سيزول ضيقها عند ما تعلم أنك ابنة خالتى ، وأن ما بيننا مجرد قرابة . . وأن وجودنا فى السينما سوياً . . كان عفواً بلا سابق موعد ولا تدبير .

ورغم ما كان فى لهجته من مزاح . . ورغم تأكدى أنه يرد على محاولتى إغاظته . . فإنى أحسست من قوله بضيق خفى

حاولت أن أقاومه وأخفيه بأن أفرض على نفسى شعوراً بعدم المبالاة .

وقلت له فى لهجة حاولت جهدى أن تكون مازحة :

ـ لمَ كنت تنكر إذاً أن لك ليلاك ؟

ـ ليلاى شىء . . وعروسى شىء آخر . . هذه عروس بالإكراه . . فقد اتفقت أمى وأمها منذ ثمانية عشر عاماً . . ـ أى منذ ولدت ـ أنها ستصبح زوجتى . . وأغلب الظن أنهما قد قرآ الفاتحة و « جزء عم » بأكمله .

ـ وماذا يمنع من أن تتزوجها ؟

وعاد يحدق فىّ فى غيظ :

ـ وماذا يجعلنى أتزوجها ؟

ـ الذى جعل الناس كلهم يتزوجون .

ـ على أية حال . . أنا لا أعتبر صداقة أمى لأمها . سبباً يجعلنى أودى بنفسى إلى تهلكة الزواج .

ـ أو تعتبر الزواج تهلكة ؟

ـ طبعاً !

ـ إذاً فلن تتزوج ؟

ــ إلا أمام عامل واحد . . يتهاوى أمامه كل عزم .

ــ وهو ؟

ــ الحب .

ــ حب ! !

قلتها بمنتهى السخرية والاستخفاف ، وأجابنى ضاحكاً :

ــ آه . . لقد نسيت أنك من ألد أعداء الحب .

وأطفىء نور السينما إيذاناً بابتداء الفيلم ، وهدأت الضجة التى كانت تسود المكان خلال الاستراحة ، والتى أتاحت لنا أن نتبادل الحوار السابق . . ووجدنا أنفسنا ــ على غير رغبة منا ــ قد اضطررنا إلى الصمت وإلى أن نتجه بأبصارنا إلى الشاشة.

وبدأ عرض الفيلم . . وحاولت أن أركز تفكيرى فى الحوادث التى تتتابع أمامى ، ولكننى وجدت تفكيرى يتفرّق بدداً ، وذهنى يشرد فلا أكاد ألمه ، ولم أستطع أن ألتقط من القصة المعروضة سوى مناظر متفرقة متباعدة لا أعى لها معنى ولا أرى بينها رابطة .

كانت الأفكار تموج فى ذهنى وتختلط . . أحمد وعروسه المقبلة . . ابتسام وأمها وقراءة الفاتحة . . أيمكن حقاً

أن يتزوجها ؟ لِمَ لا ؟ ولكن ألم يقل إنه لا يحبها ؟ . . من تكون ليلاه ؟ ألا يحتمل أن يتزوجها إرضاء لوالدته ؟! ألا يحتمل أن يحبها على مر الأيام ؟ !

ولكن مالى أنا ولهذا . . ليتزوجها . . أو ليتزوج سواها من نساء الأرض . . ماذا أريد منه ؟ وأى حق لى عليه ؟! تباً لى من حمقاء ماجنة !

وبدأ يتملكنى إحساس بأنه يسترق النظر إلىّ فى الظلمة ، وأنه هو الآخر لا يتبع حوادث الفيلم .

وتمنيت لو أننا استطعنا الكلام وعاودنا الحديث . . لكى أقول له — ولنفسى — رأيى فى الحب ، وأعلن له أنى جامدة العاطفة . . بينى وبين الحب جدار ثخين يقينى شره ويؤمننى عصفه .

وازداد بى القلق . . وخيل لى أنه لم يكن بأقل منى قلقاً ، ووددت أن نغادر دار السينما ونستبدل بجلستنا فيها جلسة فى الشرفة الخضراء المورقة النضرة المزدهرة . . وكنت أعلم أن القمر الليلة فى تمامه ، وأنه يخلع على الشرفة سحراً عجيباً .

وفجأة وجدت قلقى يزول . . وذهنى الشارد يستقر ، وأفكارى المختلطة الصاخبة تهدأ وتتركز . . كل ذلك كان مبعث حركة تافهة بسيطة .

كنت أجلس فى أول الأمر ويداى متشابكتان فى حجرى ، ولكن حدث أن غيرت جلستى وملت مسندة مرفقى الأيمن — والأقرب له لأنه كان يجلس عن يمينى — إلى مسند الكرسى مادة ساعدى ، باسطة كفى على حافة المسند .

ومدّ هو يده - بقصد أو بغير قصد - ليسند كفه على نفس المسند . . وشعرت بكفه توضع برفق فوق كفى . . ولم أحرك ساكناً فقد أحسست بالتيار الخفى الممتع الذى سبق أن أحسست به عند مصافحته . . ولكنه كان فى هذه المرة أشد وأقوى ، كانت كفه أكثر دفئاً وحناناً ورقة .

وبدأ بيننا الحديث ، ليس بالشفاه ، ولكن بالأصابع والأكف .

وإنى لأكتب الآن ، وأنا امرأة ذات خبرة وتجربة ، ذقت من كؤوس الهوى أعذبها . . ومن متع الغرام ألذها وأشهاها ، ولكنى أقسم أننى ما ذقت فى حياتى أمتع من مناجاة يدينا ليلتذاك .

أحسست بباطن يده يتحسس برفق وشغف ظاهر يدى كما يتحسس البخيل أنفس ما يملك ، ليطمئن على وجوده . . أو كما يتحسس الأعمى العاشق وجه من يحب . . ثم بدأ يدفع

أصابعه أسفل أصابعى فيتحسسها أصبعاً أصبعاً بمنتهى الرقه كأنما يخشى أن تذوب فى يده ، أو تتفتت بين أصابعه ، وبدا فى تحسسه هذا كأنه غير مصدق أن هـذه أصابع أو كأنه لأول مرة يمسك أصابع .. أو كأنه قد أذهله أن يجد بالكف خمسة أصابع ! !

وأحسست به — بعـــد ذلك اللمس المفرط فى الرقة والحنان — يحتوى كفى فى يده ، ثم يضغط عليها ضغطاً خفيفاً .. خفيفاً جداً . لا يكاد يحس ، وكأنى به يهتف من أعماق قلبه « أنا أحبك » .

وبدأ بعد ذلك دور العناق .. ولِمَ لا أسميه عناقاً وأنا ما أحسست من العناق الحقيقى بأكثر منه متعة !

لقد تخلل أصابعى بأصابعه فتشابكت أيدينا ، واستقرت يدى فى يده وأحسست براحة عجيبة .. كأنى قد استقررت فى أحضانه .

قد يبدو حديثى مضحكاً ، وقد يستغربه البعض وينكره البعض الآخر متهمين إياى بالعته أو الجنون ، ولكنى واثقة تمام الثقة .. أن العشاق سيفهمونه .. العشاق الذين يرسلون مناجاتهم مع الرياح ، ويتفاهمون بذبذبة القلوب .. لابد

أن يقدروا كيف تتفاهم الأكف وتتناجى الأيدى .

ووجدته يلتفت إلىّ فى الظلمة ويهمس :

ـــ أراضية أنت عن الفيلم ؟

ـــ نصف ونصف .

ـــ ما رأيك فى مغادرة السينما ؟

ـــ إلى أين ؟ !

ـــ إلى البيت . . نجلس فى الشرفة إياها !

وصادف عرضه هوى فى نفسى ، ولو أنى أوتيت شيئاً من الشجاعة لكنت البادئة بعرضه .

وصمت برهة ثم همست به :

ـــ هيا بنا .

ونهضنا عن مقاعدنا متسللين إلى الخارج ، وقد تملكنى خجل شديد وأحسست أن الناس جميعاً يرقبوننا ، وخيل إلىّ أن عينين معنيتين بالذات تحدقان فينا . . هما عينا « ابتسام » .

وخرجنا إلى الطريق ، وتلفت حوله يبحث عن « تاكسى » ولكنى كرهت أن أحمله أجره ، وأصررت على أن نركب الأوتوبيس ، وسرنا فى « شارع فؤاد » حتى بلغنا تقاطعه بشارع « سليمان باشا » ثم اتجهنا إلى أوتوبيس ١٤ .

وحضر الأوتوبيس بعد فترة قصيرة ، واتخذنا مجلسنا متجاورين على مقعد واحد ، وكانت العربة ـ على غير العادة ـ تكاد تكون خالية .

واستغرقنا فى الحديث . . فى حديث طويل لم يقطعه غير الكمسارى عند ما حضر لإعطائنا التذكرتين .

ولست أدرى . . من أين كان يأتينا كل هذا الحديث الذى لا ينضب له معين . . إنى لم أك قط ثرثارة . . بل كان أكثر ما تعيبه علىّ « جدتى » هو ميلى إلى الصمت وعجزى عن مسارتها والحديث معها ، ولكنى كنت معه طلقة اللسان ، أستمرىء الحديث معه وأستعذب الإنصات إليه .

كنا نتكلم ونتكلم . . دون أن نحس مرة واحدة أننا نتكلف الكلام . . أو يعيينــــا موضوع للحديث . . ولم نكن نعرف ما دمنا سوياً . . أن هناك شيئاً يسمى الملل أو السآمة . . لأننا ما أحسسنا بمرور الوقت . . فقد كان يمر بنا كلمح البرق . . كان عقرب الساعات يعدو فى سيره . . أما عقرب الدقائق فلم يكن له فى زمننا وجود .

وكان يجب أن نترك الأوتوبيس قبل النهاية بمحطة . . ولكننا لم نشعر إلا وقد وقفت العربة فى نهاية الخط .

وغادرنا العربة . . وكانت المحطة الأخيرة قائمة قرب « الجامع » المطل على « سراى القبة » والكائن فى زاوية ينتهى عندها « شارع الملك » ويبتدىء الشارع المؤدى إلى المطرية الممتد بحذاء سور السراى البحرى ، والذى يقوم السراى على أحد جوانبه ، وتقوم المزارع على الجانب الآخر ، وتظلله أشجار البانسيانس الممتدة على الجانبين .

وكان علينا لكى نذهب إلى البيت أن نعود أدراجنا من « شارع الملك » ولكنى رأيته قد توقف أمام الجامع برهة لينظر إلى أشجار البانسيانس الممتدة فى الطريق الزراعى ، ونظر إلى ساعته ثم قال :

ــ الساعة الآن ما زالت الثامنة . . ما رأيك فى التنزه فى هذا الطريق ؟

ولو قال لى إنسان من قبل أنه يحتمل أن أسير مع شاب ــ أياً كان ــ فى مثل هذا الطريق وفى مثل هذه الساعة من الليل . . لسببته واتهمته بالجنون . . فما كنت أجرؤ قط على التفكير فى مثل هذه المشية المشبوهة المسترقة ، وما كان يخطر ببالى أن أسير فى الطرقات وفى المزارع . . كما يهيم العشاق المخابيل

ولكنني في تلك اللحظة . . والقمر يبسط نوره الهادىء الرطب على المزارع الممتدة ، والجامع قد بدا أبيض نظيفاً كأنه قد اغتسل بنور القمر . . والأشجار قد ترامت ظلالها على الطريق . . فبدت قارعته وكأنها سجاد منقوش ، والنسيم يحرك الأوراق فيبعث منها حفيفاً كأنه الأنفاس الناعمة .

وهو ! ! هو . . ذلك المخلوق الساحر العجيب . . الذى فعلت بى مسة يده . . ما لا تقدر عليه عصا موسى . . الذى جعلنى — أنا الباردة الجامدة — أذوب . . وأتحلل . . كما تذوب قطعة الجليد عندما يلتقى بها فى فوهة بركان .

كيف أقاوم وقد استعان علىّ بنسيم الليل وضوء القمر وهمس الشجر ! !

وترددت برهة . . فقد مرّ بخاطرى . . ما يمكن أن يقوله أى من أهل الدار : أبى أو جدتى أو أخى . . لو عرفوا أنى أسير مثل العشاق فى مشية شاعرية ؟

وتملكنى خوف .. لا مما يمكن أن يفعلوه بى ، فما كنت لأخاف إنساناً قط . . حتى أبى ، ولكنى كنت أخاف على كبريائى أن تتحطم . . كان أقصى ما أخشاه وأكرهه . . هو أن يقال عنى إنى عاشقة وأنى ترديت فى هاوية حب . . حتى

ولو كان حب الرجل الذى سيصبح لى زوجاً .

وقلت لنفسى إن البيت آمن عاقبة . . فإنى فى بيتى أستطيع أن ألتمس مائة حجة أدفع بها عن نفسى وصمة الحب . . فأدعى أنه يحضر لأخى ، وحتى لو قال أحد إنه يحضر إلىّ ، فإنى أستطيع أن أجيب : ما ذنبى ؟ أيمكن أن أطرده ، أو أحرّم عليه المجىء ؟

كنت أفضل أن أتخذ دائماً — ما دمت أوشك أن أتردى فى الهاوية — موقفاً سلبياً ، حتى أستطيع التنصل بسهولة .

وهممت بأن أقول لا ، وأنه خير لنا أن نعود إلى البيت .

ولكنى وجدته لم يستطع على ترددى صبراً ، فجذبنى من يدى قائلا :

— هيا بنا .. هى أننا ما زلنا فى السينما .

وسرت معه مترددة فى بادىء الأمر ، ولكنى تذكرت أن جلسة الشرفة غير مضمونة ، إذ يحتمل أن يكون أخى قد عاد مبكراً فيضطر أحمد إلى الجلوس معه .

وأمر اخر ، استطعت أن أقنع به نفسى — أو على الأصح — أغالط به نفسى ، وليس أسهل على الإنسان من مغالطة نفسه .

لقد قلت إن المسألة مسألتي أنا أولا وآخراً ، وأني مادمت واثقة من نفسي ، قادرة على كبح جماحها ، فلا خوف على كبريائي ، وعلى مقاومتي .

إني لا أحب ، ولن أحب ، هذا مجرد ترويح عن النفس ، وإن صحبة إنسان لطيف مهذب ، قريب ، لا يمكن أن تعني أني ترديت في هواه ، إنه مجرد أخ ، أو صديق .

أما التنزه في النسيم العليل ، وفي ضوء القمر ، فهذا شيء طبيعي . . كيف يكون التنزه إذاً ! في هجير الشمس وحمارة القيظ ؟ أكل المتنزهون عشاق ؟

لا . لا . يجب أن أكف عن هذه الوسوسة ، وهذا الخوف . . ويجب أن أكون أثبت جنانا ، وأشجع قلبا . . لايجب أن أفر من الحب ، بل يجب أن أواجهه وأقهره .

وهكذا ــ ككل المنافقين ــ تمكنت من إقناع نفسي وطمأنة قلبي ، ولم أحاول أن أتساءل مثلا : لو كان أخي محل أحمد ، أكنت أقدم على النزهة معه بنفس السرور . . وبنفس المتعة ؟ !

وبدأنا السير في الطريق .. وعاودنا الحديث ، حديثاً عاماً حاداً عن مبادىء وآراء ووقائع . . ليس فيه أي أثر من أحاديث العشاق ومناجاتهم .

وبلغنا منتصف الطريق ، فلاح لنا بين المزارع شبح ساقية قديمة ، وسور مهدم ، وشجرة توت ضخمة قائمة على بقايا الساقية . . وبدا منظرها فى ضوء القمر . . أشبه بلوحة زيتية من صنع فنان ماهر . . ووقفنا برهة نتأمل المنظر الساحر — أو على الأصح — الذى أبدته لنا أوهامنا ، ساحراً .

وسألنى فى رقة :

— أنستريح قليلا على السور بجوار الساقية ؟

ويبدو لى أنى كنت فى تلك الليلة قد نسيت لفظ « لا » ، فقد أشرت برأسى مجيبة : « كما تشاء » .

واتجهنا يسارنا فى الطريق الضيق بين المزارع ، ولم نسر إلا مسافة قصيرة ، ثم بلغنا الساقية وجلسنا على حافة السور مواجهين القمر .

وحتى فى هذه الجلسة . . كنت مقنعة نفسى تماما ، أن المسألة ليست مسألة حب ، وأنى لم أشعر بعد بالحب .

أى حمقاء منافقة كنت ؟ ماذا كنت أظن الحب ؟ طارق يدق الباب ، ويسأل عنى . . ثم يمسك بتلابيبى ، ويطبق على خناقى ، ويقول : « أنا الحب » ؟!

أيكفى .. لكى أتجنب الحب . . وأضحى غير عاشقة . .

ألا أتكلم عن الحب ، وأن تكون كل الأحاديث بيننا لاتحمل طابع المناجاة ؟ أيكفى أن يكف اللسان عن أقوال الحب ، حتى يضحى المرء غير عاشق ؟

لقد كان هذا هو مبدئى ، الذى أقنعت به نفسى لكى أحارب الهوى .. كنت دائماً عفة اللسان ، عفة التصرّف .. إذ كان لسانى ومظهرى هما أقصى ما أستطيع التحكم فيهما ، أما قلبى فقد كان فوق إرادتى .. كان جامحا شارداً ، لا سلطان لى عليه .. كان ثائراً علىّ .. متمرداً على حكمى ، مستقلا تمام الاستقلال .. كنت فى واد ، وهو فى واد .. كنت أجفل من الحب ، ويمعن فيه . أدعى الجمود والبرود ، وهو يرقص طرباً بلا خجل ولا حياء . أجلس ثابتة وقوراً متمالكة متماسكة ، وهو يهفو ويترنح « نشوان فى جنبات الصدر عربيد » .

قلت له وقد استقر بنا المقام على حافة الساقية .. ومن حولنا الخضرة المترامية كأنها بحر يحرك النسيم أمواجه :

— حدثنى عن آمالك فى المستقبل وأمانيك .

وصمت برهة وأطرق برأسه مفكراً .. ثم انطلقت منه ضحكة خافتة وأجاب :

— أمانىّ نوعان

ــ كيف ؟

ــ نوع قريب ، ونوع بعيد . . نوع مستطاع ، ونوع فوق الطاقة . نوع فى اليد ونوع على الشجرة ، أو على مدى الجوزاء . هل تعرفين قول الشاعر :

منى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى
وإلا فقد عشنا بهـا زمناً رغدا

إن أمنياتى تجمع النوعين ، نوع أتمناه وآمل أن يتحقق ، ونوع أتمنـاه لأعيش به زمناً رغدا ، ولأضيع به ملل « الطومار » وأسرح فيه خلال تأنيب « القومندان » ونصائحه .

ولم أتمالك الضحك وقلت له :

ــ هذه طريقـة مدهشة .

ــ أجل « السرحان » هو خير طريقة لكى لا تسمعين ما لا تودّين سماعه .

ــ دعنا نستعرض أمانيك . . حدثنى أولا عن الأمانى التى تعيش بها زمناً رغدا .

ــ لا . لا . إنها أمان مضحكة ، ستجعل منى سخرية ، إذا ماصرّحت لك بها .

ــ لابد أن تقولها لى .

ــ حسناً . . إنها ليست شيئاً كثيراً ، إنها تنتهى بى دائماً

إلى أن أصبح أحد شخصين : شكسبير ، أو نابليون ، أقصى النبوغ فى الاتجاهين اللذين أسلكهما فى الحياة ، أما عن طريق الوصول ، فإنى أتخذ طريقاً ليس به قفزة غير معقولة بل أجعل كل وثباته معقولة ، وأخلق لها الظروف والمناسبات . وأظل أرتفع بنفسى شيئاً فشيئاً حتى أجدنى فى النهـــاية قد صرت — بمنتهى البساطة — أحد الرجلين الخالدين ، تلك هى المنى التى لن تتحقق ، والتى عشنا ، وسنعيش بها زمناً رغدا .

— بقيت التى إن تـكن حقاً . . تـكن أحسن المنى .

ولم يتمالك الضحك وعاد يقول يكرر قولى :

— . . تـكن أحسن المنى . . لقد تعلمت ترديد الشعر . . وبعد قليل تتعلمين قرضه .

— من جاور الحداد كوى بناره . . هات أحسن المنى !

— هذه هى المنى المعقولة . . إنى طالب من الله — على حد قول شحات شهير — ولا يكثر على الله . . فتاة حلوة .

ونظرت إليه واستغرقت فى الضحك وقلت مرددة فى مثل لهجته :

— لا . . بسيطة . . خليها على الله . . ماذا تريد منها ؟

— أحبها . . .

— أيضاً بسيطة .

ـ وتحبنى . . .

ـ ويحب ناقتها بعيرك ؟

ـ لا . . لا . . لا ناقة لى فيها ولا جمل . . ألم أقل لك إن شيطان الشعر قد أغواك .

ـ أهذه كل أمانيك ؟ .

ـ لا . . ليست كلها . . أريد من الفتـــاة أن تشاركنى حياتى . . وتكون مثلا للزوجة . . تتوافق ميولنا ، وتتحد مشاربنا ، وأن تنجب لى ابناً وابنة . . وتكون لهما خير أم وأن يرزقنى الله عربة صغيرة حمولتها نحن الأربعة ، وفيلا بحديقة غناء يلعب فيها الأطفال .

ـ لا . . لا . . أنت طماع . . يكفيك شقة ، وليلعب الأطفال فى المدرسة .. أو فى المتنزهات العامة .

ـ حسناً . . قبلت . . موافق يارب . . تكفينى شقة ، وعربة نصف عمر .

واستغرقنا فى الضحك سوياً ، ولم يكن هناك أسهل علينا من أن نستغرق في الضحك .. كان أى شىء ـ مهما سخف ـ يستطيع إضحاكنا . . فقد كنا نستمد الضحك من نفسينا الراضيتين ومن باطننا القرير .

وقلت له :

ـ هذه أمانٍ متواضعة بسيطة ، سيحققها الزمن لك إن شاء الله.

ونطقت بقولى مخلصة . . فقد كنت أشعر أنه إنسان ذو نفس طيبة ، وقلب جميل . . لم أسمعه قط يذم أحداً . . أو يكره أحداً . . بل كنت أراه نموذجاً للصفاء . . صفاء الذهن والقلب والروح .

وقلت مردفة :

ـ بل يبدو لى أنك تستطيع أن تحققها الآن شيئاً فشيئاً . ماذا يبلغ مرتبك ؟

ـ إثنى عشر جنيهاً .

ـ حسناً . . دعنى أدبره لك . . يجب أن توفر نصفه على الأقل كل شهر حتى تستطيع أن تهيء مبلغاً من المال يعينك على تحقيق أمانيك .

ـ إنى فعلا أحاول ذلك ، إنى أقتصد كل ما أستطيع اقتصاده .

ـ متى تتوقع أن تترقى إلى الرتبة التالية ؟

ـ بعد ثلاث سنوات أكون ملازماً أول ، وبعد أربع يحتمل أن أصير يوزباشى . . فإن الجيش الآن فى زيادة ، لأن المعاهدة تنص على أنه لابد أن يكون لنا جيش قادر حتى يستطيع أن يقوم بمهمة الدفاع بدل جيوش الاحتلال . .

وقد بدأ التوسع فعلا . . فقد أضحى السوارى لا يقتصر على آلاى الخيالة ، بل وضعت نواة لآلايين جديدين ميكانيكيين: آلاى دبابات وآلاى سيارات .

ولكنى لم أقتنع بقوله .. وبدا لى مستقبله فى الجيش باهتاً مظلماً ليس به مجال لنبوغ ولا عبقرية .. ولم يكن لدىّ فكرة حسنة عن ضباط الجيش . . فقد كنت أراهم فارغى العقول مليئى البطون . . وتخيلته بعد بضع سنين ، وقد ترهّل جسده وانتفخ كرشه من قلة العمل ، وتبلّد ذهنه لعدم التفكير . . ووجدت تفكيرى المظلم قد دفعنى إلى أن أقول له بأسف :

ــ كم وددت لو اتجهت اتجاهاً آخر .. كان خيراً لك أن تدخل كلية الهندسة أو الفنون أو الآداب ، أى اتجاه آخر ، كنت تجد فيه مجالا لإظهار نبوغك ، غير هذا العمل المعطل للمواهب .

ورأيت وجهه ـ لأول مرة ـ يتجهم ويعلوه احمرار ، ومضت فترة بدا لى أنه يحاول أن تهدأ فيها ثائرته وأخيراً قال:

ــ لا أود قط أن تقولى كلاماً كهذا . . انزعى هذه الصورة الخاطئة من ذهنك . . إنى أحب الجيش . . أحب ضباطه وجنوده ، كما أحب أهلى . إنى أحس وأنا فى « الميس » أو « الثكنات » بأنى فى بيتى وبين أخوتى . . لا تكونى غبية

كـكل الأغبياء الذين يقولون: ما فائدة هذا الجيش العـاطل الذى لا يحارب؟ هل يظنون أنه مفروض على الجيش أن يخلق الحرب لـكى لا يبقى عاطلا؟! وأنه - إذا ما طال به السلم - يجب أن يحمل مهماته وأسلحته ويقول لهم « سلام عليكم. أنا رايح أحارب »!. لِمَ يعيبون الجيش والعيب فى الأمة؟ إن هذا النعل من ذاك الوطا؟. أو هذا الجيش من تلك الأمة. أمة محتلة .. ينخر فيها سوس الغاصب .. أمة يئن شعبها الهزيل تحت وطأة البلهارسيا والانـكلستوما وماء الترع و « البتاو الحاف ». إن هذا الجندى من ذاك الشعب الهزيل المسكين.

ولـكننا بدأنا فى الجيش عهداً جديداً، كان الإنجليز يسيطرون عليه ويتولون قيادته ليضغطوه ويطبقوا عليه حتى يظل منكمشاً. أما اليوم فستصبح لنا دبابات ومدافع .. سنتعلم أشياء جديدة .. وسيفتح لنا المجال للدراسة وللدخول فى كلية أركان الحرب .. لن نـكون قط عاطلين .. بل أؤكد لك أنه سيأتى اليوم الذى تعرف فيه الأمة مقدارنا عند ما تستنجد بنا فنقدم لها أرواحنا رخيصة فى أكفنا .. لتفعل بها ما تشاء .. أنا لا أتعصب للضباط، ولـكن تلك هى طبيعتى .. أحب البشر جميعاً .. ولـكنى أحب المصريين - مهما كانوا - أكثر من جميع البشر، وأحب المصريين، ولـكنى أحب الضباط أكثر

من جميع المصريين . . وأحب الضباط عامة ، ولكنى أحب ضباط الفرسان أكثر من جميع الضباط . . تلك هى شيمتى ، أحب أمتى وجيشى وسلاحى .

وفعل فىّ قوله فعل السحر . . فقد لمست فيه إخلاصاً عجيباً طمس تلك الصورة المشوّهة للضباط . . وبدا لى كل الضباط - مثله - ممشوقى القد ، رافعى الرأس ، بارزى الصدر ، ملؤهم النشاط والذكاء . وقلت له معتذرة وأنا أبتسم :

— أنا آسفة جداً .. لم أقصد بقولى أية إساءة ، ومادمت تحس للجيش مثل هذا الشعور ، وتكنّ لعملك مثل هذا الإخلاص ، فلا شك أنك ستكون إنساناً ناجحاً ، ولاشك أن الله سيحقق لك أمانيك . . ويعطيك الزوجة والبنين ، والفيلا والعربة . . بل من يدرى . . ربما حقق أمانيك . . التى تظنها لن تتحقق والتى تتخذها مجرد تسلية . . من يدرى ؟ ربما تصبح شكسبير . . أو نابليون !

— من فينا الطماع ؟ أنا أم أنت ؟ . لقد كنت تستكثرين علىّ الفيلا منذ برهة .

وعدنا إلى الضحك ، وتنبهت فجأة إلى الوقت ، وخشيت أن يكون قد غافلنا كعادته . وسألته عن الساعة فأجاب التاسعة .

ونهضنا عائدين . . نطرق شتى الموضوعات . ضاحكين تارة جادين أخرى . . وشرد بى الذهن خلال العودة ، فتخيلت نفسى إحدى أمانيه . . الفتاة الحلوة ، التى يريد أن يحبها وتحبه وأن تنجب له بنين وبنات ، ويقطن وإياها فيلا ويركبان عربة . وبدا لى أنى لو سألت القلب العربيد المنتشى لقال : إن هذه هى أمنية مشتركة بينى وبينه . وإننى وحدى ، الفتاة التى يطلبها من الله .

ووصلنا إلى البيت فى نفس الموعد الذى كان يحتمل أن نعود فيه من السينما لو بقينا فيها حتى النهاية .

ووقفنا فى الحديقة على باب الدار ، ومددت يدى إليه مودعة . . وأحسست بيده تضغط على يدى ضغطتها الرقيقة الخفيفة ذات المعانى . . ثم رفعها ببطء شديد والتقت عينانا ، وسمعته يهمس همساً رقيقاً :

ـــ أتسمحين ؟

واستمرت يدى فى طريقها إلى شفتيه . . ولم أكن أملك إلا أن أسمح له . . ومست شفتيه ظاهر يدى ، وأحسست لأول مرة بلهيب أنفاسه . . وخيل إلىّ أننى لا أقف على قدمى بل أسبح فى الهواء ، وسحبت يدى بسرعة من يده ، ودلفت إلى الداخل مسرعة كأننى هاربة من خطر يوشك أن يحدق بى .

آه من حرقة الأنفاس ولهيب الشفاه ! ! . . .



٥ عربيّد ينتقم

كانت الأيام التى تلت تلك الليلة . . أيام نضال بين مبادئى القديمة ومشاعرى الجديدة . كنت أحس أنى أنزلق بسرعة إلى الهاوية ، وأنى أفكر فيه رغم أنفى وأنى لا أستطيع منع تلك اللهفة والغبطة عند ما يدق الجرس ، وأسمع صوته من أسفل يسأل عن أخى أو عنى .

وبدأت مقاومتى تنهار شيئاً فشيئاً ، دون أن أدرى ، حتى حدث ذات يوم ما جعلنى أفيق لنفسى وأقرر تعزيز الدفاع وتقوية المقاومة .

لم يكن ما حدث أكثر من كلمات عابرة قالتها « جدتى » وبدا لى فيها أنها تقصد التلميح إلى أن « أحمد » أصبح يكثر من زيارتنا من أجلى ، ولم أدر ماذا تقصد بالضبط ، ولكننى صممت أن أتخذ خطة تظهر براءتى ، وأن أعود إلى سابق جمودى وأعمل على قتل مشاعرى .

وهكذا بدأت أغير من معاملتى له ، فلم أعد أنتحل الأسباب لألقاه إذا ما جلس برفقة أخى ، بل لم أحاول أن أهبط إليه عند ما كان يأتى ، فلا يجد أخى ، وكنت أتركه ينصرف دون أن ألقاه .

كنت أفعل هذا وأنا أشبه بفقراء الهنود يعذبون أنفسهم

دون مبرر . كنت أحس ، وهو يحدث الخادم ويسأله عن أخي فلا يجده وينصرف دون أن ألقاه ، كأني أرقد على فراش من المسامير ، وأضع أثقالا فوق جسدي ، لا لسبب إلا لأعذب نفسي وأعلمها المقاومة .

وحدث ذات يوم عند عودتي من المدرسة قبيل العصر وقد حملتني عربة المدرسة اللاى بزميلاتي من البنات ، أن وقفت العربة أمام باب البيت ، وعندما هممت بالنزول وجدته مقبلا عليّ من ناحية المزارع وقد امتطى جواده .

كانت أول مرة أراه على جواد ، وكان عاري الرأس مرتدياً قميصاً أبيض ، وقد استقام جسده وبرز صدره ، وبدا كأنه بجواده وبزته من نبلاء العصور الوسطى .

واقترب مني وهو يبتسم وأحسست أن أبصار الزميلات قد سلطت عليّ . . وتخيلت ما يمكن أن ألقاه من ألسنتهن من تشنيع « وتريقة » واتهامات . وصور لي الوهم - أو الرغبة الخفية - أننا لا شك سنبدو أمامهن كالعشاق ، وأنني سأ - وعشيق الفارس - موضع أحاديثهن .

ولم أشعر إلا وأنا أحول بصري عنه وأتجاهله ، اتخذت طريقي إلى الداخل دون أن ألقي إليه بكلمة أو تحية .

ودفعني حب الاستطلاع لأن أتلفت خلفي فوجدت جميع

الزميلات بلا استثناء يلوّحن له بالتحية ويبتسمن له ، ووجدته يرد عليهن بالتحية مبتسما . . واختفيت داخل الدار وأغلقت الباب ورائى .

دخلت الدار وأنا غاضبة حزينة . . فقد أحسست لأول مرة بالغيرة وكرهت نفسى لأنى كنت السبب فى كل ماحدث .

علامَ كل هذا التعذيب . . والسخف ؟ ! ولِمَ أنكرته وتجاهلته وتجهمت له ؟ ! ما ذنبه ؟ ! وماذا فعل ؟ ! وماذنبى أنا أفعل بنفسى كل هذا ؟

وقضيت ليلتى قلقة مسهدة . . شاردة الذهن . . مضناة معذبة من فرط ما أجهدتنى المقاومة .

وفى اليوم التالى علمت أن المشرفة التى كانت تصاحبنا فى عربة المدرسة قد شكت الزميلات إلى الناظرة . . وأن الزميلات جميعاً — بلا استثناء — قد اعتذرن عما أتينه من تحيات له وابتسامات بأنه . . . قريبهن !

وعندما عدت إلى البيت وجدته يجلس مع أخى . . وحييته ببساطة كأن لم يحدث منى شىء . . وقصصت عليه ضاحكة . . ماحدث للزميلات وقلت له إن بينهن فتيات جميلات تصلح أية واحدة منهن لتحقيق آماله .

ولقد أنبأنى بعد ذاك أن حديثى هذا عن زميلاتى قد

صدمه وخيب آماله . . فقد كان حائراً فى سبب تحولى عنه وانقلابى عليه . . وكان يتلهف على أن يعرف ما إذا كنت أحبه أو لا أحبه .

هذا الإقبال منى .. وترك يدى له فى السينما . . والسير معه فى الليل . . والجلوس على حافة « الساقية » . ألا يجزم كل هذا بأنى أحبه ؟

ولكن هذا التجاهل والإعراض وعدم اللهفة على لقائه ألا يجزم أيضاً بأنى لا أعيره اهتماماً وأنه عندى غير ذى موضوع ؟

وأخيراً . . هذه الطريقة الباردة التى تلقيت بها تحيته للفتيات . وقولى إن بهن فتيات جميلات يصلحن له . . كيف أقول ذلك . . إذا كنت أحب ؟ أهناك حب بلا غيرة ؟

وهكذا - كما قال لى بعد ذاك - حطمت آماله . . وضيعت أمانيه . . وعاد إلى حجرته بالميس يائساً ملتاعاً .

يا لحماقتى !! علامَ كنت أعذب نفسى وأعذبه ؟

ولم يكن هو - من ناحية عزة النفس - قد تغير عما كان وهو صبى . . وبدا لى أن كرامته وكبرياءه أعز عليه من حبه ، فقد بدأ يجزينى هجراً بهجر وإعراضاً بإعراض .. فكف عن زيارتنا تماماً . ومرت بى أيام ضيق كنت أخلو فيها إلى نفسى

فى الشرفة فأحس بعبء يجثم على صدرى . . ويعتصر قلبى . .
قلبى الحزين الملتاع . . المغرق فى بؤسه ويأسه . . الممعن فى وحدته ووحشته .

واستيقظت ذات صباح وأنا أشعر بتثاقل فى الرأس . . وهبوط فى الجسد . . ولم أجد فى نفسى القدرة على النهوض للذهاب إلى المدرسة . . فاستمررت راقدة فى الفراش .

وقبيل الظهر أحسست برجفة تسرى فى بدنى . . وخيّل إلىّ أن حرارة تشع من جسدى ووضعت مقياس الحرارة فى فمى فإذا بها مرتفعة ارتفاعاً يخشى منه .

وتملكتنى قشعريرة . . وأخذ بدنى يرتجف كأنى فى قر طوبة وسألتهم أن يدفئونى ويدثرونى بالأغطية .

وظنوا ما بى أنفلونزا . . وتناولت بضعة « أسبرينات » . كانت تفلح فى تهدئة الحرارة مؤقتاً . . ولكنها لا تلبث حتى ترتفع مرة ثانية .

وفى المساء حضر الطبيب وفحصنى ثم هز رأسه . . وقال إنه لا بد من تحليل الدم .

واستمرت الحمى تلهب الجسد طول الليل وأخذت الرعشة تنتابنى . . والإحساس بالزمهرير يشتد . . رغم أن البرد لم يكن قد بدأ بعد . . فقد كنا على ما أذكر فى منتصف نوفمبر .

وقبيل الفجر شعرت بالحرارة تهدأ . . والرجفة تزول . واستغرقت فى نوم هادىء استيقظت منه وأنا أحس بأنى قد أبللت مما بى .

وجلست فى فراشى هادئة الحرارة . . منتظمة الأنفاس ، بلا رعشة ولاقشعريرة . . وإن كنت أحس أن جسدى مازال متعباً مكدوداً .

وأتت « جدتى » فضمتنى إليها فى حنان . . ووضعت يدها على رأسى قائلة :

ــ الحمد لله . . أنت اليوم أحسن كثيراً . . إنها كما قلت « انفلونزا » . . ألم أقل لك لا تجلسى فى الشرفة . . فقد برد الجو ولم يعد صيفاً ؟

وضحكت ووعدتها ألا أعود إلى الجلوس فيها بعد ذاك . . وأقبل علىّ أبى وأخى ليطمئنا علىّ . . وقال أبى فى لهجته الصارمة :

ــ لاتتركى الفراش حتى نطمئن إلى نتيجة التحليل .

وأجابت جدتى :

ــ ليس بها شىء إن شاء الله . . لقد كانت انفلونزا خفيفة وزالت عنها .

ــ على أى حال ، يجب أن تستريح فى الفراش .

وتنـــاولت إفطاراً خفيفاً ، وجلست فى الفراش ألهو بالقراءة ، ولـكنى لم أقرأ ، بل كانت القراءة عنـدى مجرد تثبيت عيني على الصفحات ، أما الذهن فلم يكن يعى شيئاً ، لقد كان منطلقاً فى بيداء أوهامه .

لم تـكن حمى الليلة الماضية قد تركت لى سبيلا إلى التفـكير فيه إلا فى لحظات خاطفـة . ولـكنى لم أكد أحس بالهـدوء وأخلد إلى الراحة ، حتى وجدتنى لا أستطيع أن أفعل شيئاً إلا التفكير فيه .

قلت لنفسى : إنى يجب أن أحمـد الله على هذه القطيعة ، وأن أحاول أن أقتلع مشاعرى نهائياً ، وأن أستمر فى قسوتى مع هذا القلب العربيـــد حتى ينسى ، وحتى يتعود الوحدة والوحشة مرة أخرى .

كنت أقول : إن « أحمد » — ما دمت أنوى الاحتفاظ بحرية مشاعرى — هو أول إنسان يجب الابتعاد عنه ، لأنه صائدى وسجانى ، وهو لا أحد سواه الذى سيشد وثاقى ويلقى بى إلى هاوية الحب .

هذا ما كنت أقوله لنفسى ، وأحاول أن أقنعها به ، ولـكنى كنت أسمع الإجابة تأتى من باطنى ، كأن القلب يهتف فى حنق وغيظ : أى وثاق وأية هاوية ؟ أنت منافقة كاذبة . .

اعترفى بأن تلك الهاوية هى الحياة الحقة النضرة المزدهرة . . لعترفى بأن الوثاق قد شدّك من البيداء المقفرة حيث الفراغ والعدم وألقى بك إلى الرياض المورقة الظليلة . ماذا تخشين من الحب ؟ حب إنسان قويم الخلق جميل القلب . أهناك خير منه تختارينه زوجاً ؟ أعار عليك أن تحبى زوجك المقبل ؟

ويبدو لى أن إعراضه وهجره وطول الفرقة وشدة الحنين قد أضعفا مقاومتى ، فقد شعرت فى حديث القلب لذة ومتعة ووجدته منطقياً معقولا ، لم يصعب علىّ الاقتناع به

وتمنيت أن يأتى ، ويجلس بجوارى على الفـــراش ، ويحدثنى حديثه العذب الطلى فيقطع به وحشتى ويزيل سآمتى .

* * *

وظهرت نتيجة التحليل فكانت سلبية ، واستيقظت فى اليوم التالى وأنا أحس أنى صحيحة معافاة ، فصممت على الذهاب إلى المدرسة .

وذهبت إلى المدرسة وقضيت معظم اليوم دون أن أشعر بشىء ، حتى أوشك اليوم أن ينتهى فإذا بى أحس فجأة بالرجفة تعاودنى وبأن قدمىّ لا تقويان على حملى . وارتميت على أحد المقاعد كأنى جثة هامدة .

وحملت إلى البيت محمـــلا ، ورقدت فى فراشى ، وأنا

أرتجف مقرورة ، وجسدى يلتهب من الحرارة .

وتلقتنى جدتى ، فزعة ، مرتاعة ، وحضر الطبيب يفحصنى مرة أخرى . وقال بعد الفحص : إنه يشك كثيراً — رغم سلبية التحليل — أننى مصابة بالملاريا ، وأمر بإعادة التحليل وبالا أغادر الفراش إلا بأمره ، وأن أتناول الأتبرين .

وبدأت أعالج من مرضى على أنه ملاريا ، وأثبت التحليل للمرة الثانية . . أننى فعلا مصابة بالملاريا . . وأخذت الحمى المتقطعة تعصف بنفسى وتذبل جسدى ، وأحسست والمرض فى أشدّه أنى قد أضحيت حطاما .

ولم تكن الآلام التى أعانيها مجرد آلام جسدية ، فقد بدأت أحس والمرض يتثاقل علىّ آلاما نفسية خفية منشؤها شعورى أن أحمد لم يأبه لمرضى ، ولم يفكر مرة واحدة فى زيارتى وأنا طريحة الفراش .

قد يكون له العذر — فى مبدأ الأمر — أن يرد على سوء معاملتى بمثلها وأن يجزينى صداً بصد وهجراً بهجر .

ولكن أيجوز له . . وأنا مريضة ، أهذى تحت سطوة الداء .. أن يستمر فى إعراضه . . ولا يفكر فى الحضور للاطمئنان علىّ ، والسؤال عنى ؟

ما الذى فعلت به . . حتى يقسو علىّ إلى هذا الحد ؟

ومتى ينوى السؤال عنى؟ أبعد أن أموت ؟!

أهذا هو الحب ؟ أتراه كان فى حبه جاداً مخلصاً ؟ أم أن مافعله لم يكن سوى مجرد تسلية وتضييع وقت ؟

وأحسست بالألم يعتصر قلبى ، وأنا أجيب نفسى : أجل لاشك أنه كان يلهو

ولكن من أدرانى أنه يحبنى ؟إنه لم يقل قط أنه يحبنى .

وبدأت أستعرض تصرفاته معى ، محاولة أن أستخلص منه حقيقة مشاعره نحوى . أيحبنى أم لايحبنى ؟

وهكذا تطور الأمر ، فبدلا من حيرتى فى حبى له . وترجحى بين أن أحبه .. أو لا أحبه .. أصبحت حائرة فى حبا لى .. هل يحبى .. أم لا يحبنى ؟

إننى — بتطور ، أسباب حيرتى — قد أصبحت أسـ جدلا بأننى أحبه ، ولم يعد هذا الأمر — كما كان أولا — مبعث قلقى وحيرتى . . بل لم أعد أفكر قط فى أن أقاو حبه . . أو أتمسك بالجمود والبرود . . لقد دك المرض والوحدة والهجر مقاومتى دكاً عنيفاً ، وجعلها أثراً بعد عين وانتصر القلب فى معركته الأولى انتصاراً عنيفاً . . وبت ، وأنا طريحة الفراش ، أتلهف على حضوره . . وصممت ألا أحاول بعد ذاك تكرار إساءته ، بل أعتذر إليه وأؤنبه على

قسوة ردّه . . وتتعاتب وتتصافى ونبدأ معاً عهداً جديداً ، عهداً يقوم على الحب العميق ، والإخلاص الأبدى .

ظللت أنتظره يوماً بعد يوم ، حتى تجاوزت خطورة المرض ، وأوشكت أن أتماثل إلى الشفاء ، دون أن يحضر ، وكنت فى بعض الأحيان ، عند ما يشتد بى الحنين ويعصف بنفسى الضيق ، أوشك أن أسألهم عنه ، أسأل جدتى أو أخى وأصرخ فيهم : لِمَ لم يحضر ؟ أين هو ؟

ولكننى كنت أجبن عن ذلك . . بل إنى لم أك أجسر حتى على أن أكون بادئة بذكره ، خشية أن أثير الشكوك حولى وخشية أن أتهم بأنى أهتم به أو أحبه .

وفى ذات يوم ، وقد أبللت من المرض ، وأضحيت فى دور النقاهة ، جلس أخى يحدثنى عن بعض ما رأى وما سمع ويروى لى الأخبار لتسليتى ووجدته يقول فى معرض الحديث:

— لقد قابلت « أحمد » اليوم ، أمام سينما رويال ، وأنبأته بمرضك . ويبدو لى أنه لم يكن على علم من قبل ، فقد دهش وأبدى أسفه واعتذاره لأنه لم يحضر لزيارتنا للاطمئنان عليك وقال لى : إنه لو لم يكن قد دعا بعض جيرانه إلى السينما ، لعاد معى وقتذاك إلى البيت ، ولم يكد يتم حديثه حتى حضر مدعووه وعرفنى بهم : فتاة وأخوها ، كان زميلا لنا فى الثانوى ، يدعى « محمود عبد الرحيم » .

ـ والفتاة تدعى ابتسام ؟

ـ أجل . . أتعرفينها ؟

ـ رأيتها ذات مرة . . سوداء العينين ، فاحمة الشعر ، مائلة إلى السمنة .

ـ أجل . . هى كذلك .

ونهض أخى تاركا إياى ببساطة ، وكأنه لم يفعل شيئاً .

وأنَّى له أن يعرف أنه بقوله هذا الذى لم يتجاوز خبراً بسيطاً تافهاً ، قد أشعل فى قلبى الملهوف نيراناً آكلة ؟

أنى له أن يعرف أنه قد أزال طابة الأمان وألقى القنبلة فى وجهى وانصرف ؟

أنى له أن يعرف أنى كنت كوماً من وقود ينتظر الشرر ، وأنه ـ بحسن نية ـ قد أحدث الشرر فى الوقود ، وولى الفرار؟

أنى له أن يعرف حقيقة مشاعرى وأنا التى كثيراً ماأعلنت قلة اكتراثى بأحمد ، ولم أترك فرصة تمر ، حتى أظهر عدم اهتمامى به ، وإقلالى من شأنه ، حتى أنفى عن نفسى ماقد أكون بعثته فى نفوسهم نحوى ـ دون أن أدرى ـ من الشبهات . لقد كنت أخشى أن أكون كالمريب يكاد يقول خذونى . . فكنت دائماً أقول : لا تأخذونى ، لا تأخذونى بتهمة الحب .

أنى للمسكين أن يعرف أنه قد صرعنى بقوله . . ليترفق بى قليلا ؟

وتملكتني ثورة جارفة ، كأنى لم أكن بالأمس أتنصل من حبه ، وأعلن براءتى منه .

لقد تناسيت كل ما كان من مقاومتى وتجاهلى ومبادئى العقيمة عن الحب ولم أعد أشعر سوى أنى عاشقة مهيضة غيرى .

أمعقول ألا يكون قد عرف بمرضى حتى الآن ؟

وهبه لم يكن قد عرف . . ألم يكن من الواجب عليه أن يحضر إلىّ بمجرد أن وصل إليه الخبر ؟

أيصح أن يؤجل مجيئه إلىّ لكى يشاهد السينما ، ويعتذر عن زيارتى لمصاحبته لابتسام ؟

أجل . . ابتسام . . هى علة قلبى ، والسوس الذى ينخر فيه ، والجرح الذى يدميه .

لِمَ يضايق نفسه بزيارة مريضة ؟ أليست مرافقة ابتسام إلى سينما أمتع من زيارتى ؟

ومن يدرى ؟ ربما كان يجلس الآن بجوارها وقد وضع كفه على كفها ، وأخذ يناجيها بأصابعه كما فعل معى ؟

لشد ما كنت حمقاء مخدوعة مغرورة .

وفاض بنفسى الأسى ، وبت ليلتى محمومة القلب ، مقروحة الجفن ، مسهدة العينين ، وقضيت ليلة أسود من ليالى المرض .

واستيقظت فى الصباح محطمة مهدمة ، وجلست فى الفراش

شاردة الذهن، غاربة البال، تسألنى جدتى عما بى فأجيب لاشىء.

ودقت الساعة العاشرة عندما سمعت جرس الباب يدق، وصل إلىّ من أسفل صوت جعلنى أنتفض فى فراشى، وأخذ قلبى يدق بعنف، ويخفق بشدة.

لقد كان هو.

لقد أتى أخيراً.

ورغم كل ما انتابنى من سخط وغيظ، ورغم ما حاولت أن أعد من وسائل الغضب والتجاهل وعدم الاكتراث.. وجدت القلب قد نسى كل ما به من حزن وغضب، وإذا به قد خذلنى، وعفا عنه وغفر. ومسه من صوته ما يشبه السحر فصفق بين الضلوع، وهفا بين الحنايا.

وسمعته يسأل عنى جدتى ويعتذر إليها فى صوت آسف بأنه لم يعرف قط أنى مريضة، لأنه لم يتقابل مع «على» منذ مدة طويلة، إذ كان على سفر فى مأمورية.

ورحبت به جدتى، وصحبته إلى حجرتى، وأقبل علىّ وهو يبتسم، ومدّ يده لمصافحتى، فحييته بفتور.

وغادرتنا جدتى، وحمدت لها فى نفسى هذا التصرف، والواقع أن مرضى أظهر لى لهفتها علىّ وفرط حبها لى، فقد أرتنى من التدليل ما كانت تحجم عنه مخافة أبى، وبدا لى أن

صرامتها وحزمها كانا متصنعين متكلفين ، وأن ما أظهرته ليس من طبيعتها بل كانت تفعل ماأمرها به أبى حتى لاتفسدنى بتدليلها .

وخلوت معه فى الحجرة وجلس على حافة فراشى ينظر إلىّ صامتاً ، وكنت أنا أنظر إلى السقف وقد كسوت وجهى مسحة غضب ، ومضت فترة صمت طويلة ، قطعها بقوله فى لهجة حزينة وفى صوت خافت :

ــ أنا آسف جداً .

وأجبته بقلة اكتراث دون ان أنظر إليه :

ــ علامَ ؟

ــ على مرضك وعلى عدم زيارتى لك فى خلاله .

ــ ألم تكن على سفر ؟ ! . علامَ الأسف إذاً ؟

ــ لم أكن على سفر ، هذا مجرد عذر .. وكان يجب أن أحضر إليك حتى ولو لم تكونى مريضة .

وزادت لهجتى حدة وأنا أقول له محدقة فيه :

ــ وما الذى منعك من الحضور إذاً ؟

ــ أنت .

ــ كيف ؟

ــ عودتك إلى سابق تجاهلك ، وسخافاتك الصبيانية .

كنت أحضر فلا تلاقيني . فلم أشك فى أنك لا تودين حضورى أو على الأقل لا يهمك حضورى . فحكمت على نفسى بعدم الحضور ، فى الوقت الذى كنت أتحرّق شوقاً إلى رؤيتك ، ولكنى مع ذلك لو عرفت بمرضك لما استطعت إلا الحضور كما فعلت الآن ، فقد حضرت ، رغم علمى أنك لا تودّين حضورى ، أو أن زيارتى لك لن تسرك .

ــ كان خيراً لك ألا تحضر ، فوقتك أثمن من أن تضيعه فى زيارتى .. إن السينما أفضل .

ــ السينما ؟ !

وقلت بصوت ملؤه المرارة :

ــ أجل . . السينما .. وابتسام !

ــ ابتسام ؟ . . مالها ابتسام ؟

ــ ألم تكن معها فى السينما بالأمس ؟

ــ أجل . . لقد دعوتها هى وأخاها ردّاً على دعوة سابقة منهما .

ــ وما الذى جعلهما يدعوانك إلى السينما ؟

ــ وماذا فى ذلك . . ثم ماذا كان بوسعى أن أفعل . . أأرفض الدعوة ؟

ووجدت نفسى دون أن أشعر أصيح به بحدة وغضب :

ـ أجل .. ترفض الدعوة .

وبدت على وجهه دهشة استطعت أن ألمح بها ابتسامة خفية وقال :

ـ لو كنت أعلم أن ذهابى معهما إلى السينما سيغضبك لما ذهبت ، ولكن لم يخطر ببالى قط أننى أتمتع بمركز فى نفسك يؤهلنى للغيرة . ألا تذكرين يوم أن أشرت لصديقاتك بالتحية فأنبأتنى أنت نفسك أن منهن فتيات جميلات يصلحن لأن يكن ليلاى ؟

ـ كان ذلك فيما مضى !

ـ والآن ؟

ونظرت إليه ثم خفضت بصرى وتشاغلت بالعبث بأصابعى فى غطاء الفراش . وأحسست بأصابعه تتسلل فتتشابك بأصابعى . وضغطت يده على يدى برفق . . وعاد يهمس متسائلا :

ـ والآن ؟

ـ والآن أصبحت مخلوقة أخرى .. كنت أتلهف على مجيئك وأنا تحت سطوة الداء .

ـ أنا آسف جداً .. لِمَ لم تنبئينى من قبل ؟ لقد أضنيتنى ولوّعت قلبى . . وعذبتنى بالوساوس والشكوك .. لِمَ فعلت كل هذا ؟

ـ كنت حمقاء .. كان بى خوف وخشية .

ــ ممن ؟

ــ منك .. ومنهم.. ومن أفواهم وسخريتهم.. إنى أكره أن يعرفوا .

ــ لن يعرف أحد .

وهكذا اعترف كلانا للآخر ، بأن بيننا ما لا يجب أن يعرفه غيرنا ، أما ما هو هذا الشيء ، فذلك ما لم يجرؤ أحدنا على الإفصاح عنه .

وعاد يقول فى همس حنون :

ــ ألن تحيرينى بعد ذلك ، ولن تنكثى عهدك ؟ أأدع قلبى يهدأ ويطمئن ؟! أواثقة أنت من قلبك ، ومن مشاعرك ؟

ــ كل الثقة ، لن يكون فى حياتى ـ إلى الأبد ـ سواك .

* * *

كيف جسرت على أن أقول كل هذا .. أنا الجامدة الباردة ، الحيية الخجول . . الساخرة من الحب . . الملحدة به .

يا للظروف التى تبدّل النفوس وتغير الأحوال وتجبرنا على أن نركل مبادئنا ، ونسخر من أقوالنا . ويا للقلب الراقص النشوان ، الثمل العربيد ، لقد أخذ يهفو مترنحاً ويصفق طرباً .

كيف لا .. وقد انتصر علىّ .. وهزمنى ـ فى أول جولة ـ شر هزيمة .



في جحيم من القبل

٦

ذلك الصباح بداية حبنا . . فقد كنت أشعر أنى
لم يكن بدأت الحب - رغم عدم اعترافى به لنفسى -
قبل ذاك بزمن طويل . . منذ أن جلسنا فى الشرفة أول مرة
بعد تخرجه . . ولكنه كان بداية الحب الصريح المتبادل . .
وبداية عهد وميثاق جعل كلا منا ملك صاحبه ومالكه . .
وجعلنا شريكين فى الأمانى . . متفقين فى الآمال والآراء
والرغبات ، وفرض على كل منا للآخر الواجبات ، ومنحه
الحقوق .

وأتاح لنا دور النقاهة فرصة ذهبية للقاء . . فلم يغب عن
ذهن جدتى وتجربتها أن « أحمد » خير وسيلة تساعد على نقاهتى
وتدخل السرور إلى قلبى . . فكانت تلح فى دعوته للحضور
وتلح فى بقائه إذا ما حاول الانصراف ، وكان قلبى يفيض
بشكر لا أستطيع الإفصاح عنه . . فقد كانت فى استدعائه
واستبقائه كأنها تتحدث بقلبى لا بلسانى ، وتستجيب نداء
نفسى .. النداء الذى لم أكن أجسر على إعلانه .

ولم يكن أبى يلتق « أحمد » كثيراً ، فقد كان غالباً يحضر
فى فترة غيابه . . وفى المرات التى كان يلقاه . . لم يكن يبدو لى
أن وجوده يضايقه ، فقد اعتاد ألا يرى فيه أكثر من طفل

لا خوف عليّ منه . أو من يدرى . . ربما كان يتغاضى من أجل مرضى .

وسمح لى بالخروج . . ولم تمانع جدتى فى أن يصطحبنى « أحمد » فى نزهات قصيرة بين المزارع ، وكان يأتى إلينا عقب الغداء فيجدنى فى انتظاره . . وكان شهر ديسمبر قد حل . وبدأ الجو يميل إلى البرودة ، وأضحى السير فى الشمس مستحباً وممتعاً ، فكنا نبدأ سيرنا فى دائرة تبدأ من البيت إلى شارع الملك ، إلى الجامع ، إلى الطريق الموازى للسراى . . والذى سرنا فيه أول خطوات غرامنا . . حتى نبلغ الساقية القديمة ، أو مكان اللقاء المختار ، فنجلس على حافة السور المهدم ، كما جلسنا أول مرة ، متشابكى الأيدى ، قريرى الأعين ، ناعمى الأنفس ، نسبح من حبنا فى عالم نسجت ألوانه من قوس قزح . . ونرسم خطوط المستقبل ونشيد قصوره .

أية سعادة كانت تغمرنا وقتذاك ؟

لم يعيا الناس فى تفسير السعادة . . وكيف يتساءلون ما السعادة ؟ سلونى عنها . . فقد خبرتها زمناً . . خبرتها هى . . هى . . لا وهم ولا حلم . . سعادة نقية مصفاة تتدفق من معين لا ينضب ونبع لا يجف ، لم نتعب قط فى الحصول عليها ، ولم تكلفنا شيئاً ، فقد كانت تفيض من باطننا وتنبع من قلوبنا .

كنا نلوِّن الكون وننمِّقه ونزركشه ونكلله بزهور من أوهامنا . . لم نر قط فيه شيئاً باهتاً ، أو مظلماً . . كنا نورق الشجر وننضر الزهر . . كنا نبعث فى الجماد حياة وفى الحياة سحراً رائعاً .

أى سحر كان بالطريق الخالى والساقية المهجورة ؟

كم من خلىّ القلب مرّ بالطريق فلم يحرك فيه جارحة ولم يثر به حساً . . طريق ليس به ما يميزه عن غيره من الطرق ، يقوم على جانبه سور ، وعلى الجانب الآخر مزارع ، وتقوم الأشجار على حافتيه ، ليس به من سحر خارق أو معجزة كبرى .

اذهبوا إليه ، وأنبئونى ، إذا كان يلفت نظركم فيه شىء !

والساقية المحطمة والسور المهدم . . خبرونى من منكم سحرته ساقية خربة ، أو توقف ليمعن فيها بصره ؟

ومع ذلك فما زلت أذكر الطريق والساقية كأنها أشيا غير كائنة فى أرضنا هذه ، بل كأنها منشآت سماوية ومناظر علوية ، وكأنى بالطريق طريق الفردوس ، والساقية بابه .

وعلى هذا القياس كنا نبصر كل ما حولنا : نفس الروعة ونفس السحر .

أيعييكم بعد ذلك تفسير السعادة ؟ !

ابحثوا عنها فى طريق خال ، أو فى ساقية مهجورة ،

فى الماء ، أو فى السماء .. فوق الربى أو فى باطن الأرض ، فلن يعييكم إيجادها ، مادامت قلوبكم ولهى ونفوسكم صبة عاشقة .

ابحثوا أو لا تبحثوا فستبحث هى عنكم وتجثو صاغرة تحت أقدامكم .

* * *

وهكذا أخذنا نستمد سعادتنا من الهواء .. من مجرد الحديث والنظر ، وتشابك الأصابع ، وتلامس الأيدى . إذا تلاقينا فكلنا أعين .. وإذا افترقنا فكلنا تذكر .. حتى حدث أول حادث إيجابى ، وذقنا أول قبلة .

لم يكن يخطر ببالى قط أننى قد أقف ذلك الموقف الذى أقرأ عنه فى القصص وأراه على الشاشة البيضاء ، وما كنت أفكر قط أن الجرأة يمكن أن تصل بى إلى حد الإغراق فى نشوة قبل ، بل كنت قانعة بما أنا فيه كل القناعة ، لا يدور بخلدى أن هناك فى الحب شيئاً أمتع مما حصلنا عليه .

كانت مبادئى الأولى ما زالت تتحكم فى رأسى ، وكنت مازلت أبيّة خجولا ، لم تجر على لسانى كلمة حب ، ولم نحاول قط أن نتناجى أو نفعل كما يفعل العشاق ، بل كانت كل أحاديثنا جادة عن بيتنا المقبل ، وعن أولادنا ، وعن المطبخ ، وعن الحديقة .

وحدثت بيننـا أول خلوة فى الدار . . خلوة قصـيرة ، أتاحتها الظروف ولم أحاول أنا منعها .

كان ذلك يوم جمعة . . فى يوم من أيام الشتـاء . وكانت الساعة تقرب من العـاشرة ، وقد خرج أبى وأخى ، وذهبت « جدتى » لطبيب الأسنان ، وجلست فى الدار وحيـدة . . وانهمك الخدم والطباخ فى أعمالهم .

كنت أجلس متكاسـلة فى أشعة الشمس على مقعد مريح (فوتيل) وقد أخذت أقلب صفحات إحدى المجلات عند ما أحسست فجأة بيدين توضعان على عينى برفق وكأنى بصاحبهما يهتف مازحاً . . من أنا ؟

ولم يتكلم صاحبهما . . خشية أن أعرفه من صوته . ولـكنى لم أكن فى حاجة إلى أية مساعدة للتعرّف عليه .

لم أكن فى حاجة إلى سماع صوته . . أو حتى مس يده ، فقد كنت أعرفه بوحى قلبى .

وقلت له ضاحكة :

ــ ليتنى تمنيت شيئاً أحسن !

ــ أحسن منى ؟ أهناك شىء أحسن منى ؟

ــ طبعاً !

ــ مثل . . ؟

ـ قطعة لادن ، أو « برطمان مسترده » .

ـ الله يحفظك . . ظننت نفسي ذا قيمة !

ـ وهل هـذا يقلل من قيمتك ؟ ! أنت لا تدرك مركز برطمان المستردة فى نفسى !

ـ مركز ممتـاز ؟

ـ جداً . . أموت فيه !!

ـ بعد الشر عنك وعن برطمان المسترده . . إنى لا أكن له إلا كل حب . . رغم أنه من عواذلى .

ـ عواذلك من هذا النوع كثيرون ؟

ـ وأنت أيضاً لك عواذلك من نفس النوع «الحرّاق» .

ـ مثل . . ؟

ـ سلطة الطحينة ، « والكشرى أبو جبة بمية الدقة » .

ـ أتحبها كثيراً ؟

ـ جداً .

ـ إنى أحتج ، لقد جعلت لك عواذل من نوع محترم ، ولكنك هويت بى إلى أسفل سافلين . . إن المستردة أرقى كثيراً من « ميِّـة الدُّقة » .

ـ « ميِّـة الدَّقة » من فضلك « بفتح الدال » لا تكونى

جاهلة حمقاء كأولاد الذوات . . يجب أن تكونى « مدقدقه » إن « ميِّـة الدّقه » ستصبح فى المستقبل من صميم عملك .. هى « والكشرى أبو جبة » ، لا بد أن تتعلمى صنعهما من الآن ، وإلا اضطررت لأن آكل فى المطاعم .

— أتقدم المطاعم « كشرى بجبة » ؟

— طبعاً .

— مطاعم الشعب ؟

— لا .. مطاعم الملوك والأمراء .

— يجب أن تتعلم من الآن أن تحب ما أطهى لك .. لا أن أطهى لك ما تحب . . فاهم ؟

— أمرى إلى الله . . عين الرضا عن كل عيب كليلة .

* * *

وساد الصمت .. ووجدته ينظر إلىّ نظرة أحسست منها بشىء من الاضطراب والارتباك ، وإن كان اضطرابا لذيذاً وارتباكا ممتعاً .

وكنا نجلس على مقعدين متباعدين .

هل لكم أن تعذرونى فى محاولتى وضع تلك التفاصيل التافهة والمحاورات الصبيانية التى لا أظنها إلا حدثت بين كل

عاشقين ؟ هل لكم أن تحتملونى بعض الشىء وأنا أثقل عليكم بها ؟

احتملونى أرجوكم . . فما دفعنى إلى ذكرها إلا إحساسى بلذة من ذكرها ، ومتعة من اجترارها .. إنها ذخيرتى التى أحيا عليها . . إنها زادى فى طريق مقفر أجدب .

إنى أتخيل الحجرة أمامى ، وقد امتدت بها الأريكة الطويلة وتوسطتها المنضدة الزجاجية ، ووضعت عليها زهرية مملوءة بزهور القراولة البيضاء ، وفى ركن الغرفة منضدة أخرى مرتفعة وضعت عليها آنية نحاسية وضع فى داخلها أصيص من الفوجير وعلى الحائط فوق الأريكة علقت لوحة زيتية تمثل راعى غنم قد وقف أمام بئر .

وفى الجانب الآخر وضع مقعدان كبيران قريبان من النافذة جلس هو على أحدهما وجلست أنا على الآخر .

قلت إن نظرته سببت لى ما سميته ارتباكا لذيذاً . . فقد كانت نظرة معجبة فاحصة حارة لهفى ، ووجدتنى أنهض على أثرها لأغادر الحجرة مدعية أنى سأعطى بعض أوامر للخدم .

وأعطيت فعلا بعض أوامر للخدم ، ثم ذهبت إلى حجرتى ووقفت أمام المرآة . . لقد كان هذا هو ما نهضت من أجله ، وهو الرغبة فى الاطمئنان على مظهرى . . عقب تلك النظرة

الفاحصة . لقد كنت أريد أن أرى كيف أبدو له .

وكنت أرتدى بلوزة من التريكو كحلية اللون ، مقفلة الياقة ، قصيرة الأكمام ، وجيب كاروهات من الصوف الاسكتش .

وكنت بطبيعتى أميل إلى النحافة ، ولكن البلوزة أظهرت صدرى بحيث بدا بارزاً بشكل ملأنى بقليل من خجل وكثير من طمأنينة ، فقد كنت أدرك بشعور المرأة أن هاتين الكرتين هما أمضى أسلحة المرأة ، وأشدها فتكا ، وبدا لى خصرى ضيقاً وجسدى مستقيما متناسقاً ، وكان شعرى مفروقاً من النصف ، وقد أحاطت حلكاته بوجهى فأظهرته مضيئاً كما كان هو يقول لى ، فقد كانت هذه الطريقة فى تصفيف شعرى محببة إلى نفسه ، وعدت إليه وقد ملأت نفسى الثقة وأردت الجلوس ، ولكنى لاحظت أن المقعدين قد تلاصقا بعد أن كانا متباعدين ، ونظرت إليه نظرة متهمة متسائلة ، ولكنى وجدته متشاغلا فى قراءة المجلة التى كنت أقرأ فيها . . كأنه لم يفعل شيئاً ، وكأن المقعدين قد تقاربا من تلقائهما .

وابتسمت فى خبث ، ورأيته يرمقنى بنظرة متسائلة من طرف عينيه . . فلم يكن منى إلا أن أعدت مقعدى إلى مكانه

وجلست ، ولكن لم يستقر بي المقام حتى وجدته قد قذف المجلة وقفز من مكانه فاستقر بجانبي على مسند مقعدي ، وقال ضاحكا :

— حسناً . أنت لي أنا . مادام مقعدك يأبى إلا صداً .

وقلت له مشيرة بأصبعي كأني أزجر طفلا صغيراً :

— كن عاقلا ، وعد إلى مقعدك .

وهز رأسه بإصرار وعناد وأجاب :

— الوقت الذي أستطيع فيه أن أكون عاقلا ، وقت غير محدود ، لقد مضى على" إثنان وعشرون عاماً كنت خلالها في تمام العقل ، ومازال في العمر بقية ، أستطيع أن أتمتع فيها بعقلي كما أشاء . أما الآن فليس من العقل أبداً أن أكون عاقلا . إن العقل الآن شيء غير مستحب . يجب أن يتنحى عنا قليلا ، يجب أن يبطل عمله ، ويخلد إلى الراحة ، وإلا أضاع العمر سدى .. لا . لا . لست مجنوناً حتى أوافق على أن أكون عاقلا .

ولم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك . ورفعت بصري إليه فوجدت وجهه يطل على" وقد شاعت فيه ابتسامة مشرقة ونظرة حالمة متمنية ملأتني نشوة ومتعة ، وأحسست بيده تمس رأسي في رفق ، وأصابعه تعبث في شعري . فأصابتني من مسته ومن نظرته رجفة سرت في جسدي .

لم يقل لي : إني أحبك ، وخيراً فعل . فكلمة « أحبك »

كنت أستثقلها وأعتبرها ممجوجة مبتذلة ، وكنت أعتقد أن أبغض ما يفعله محب لكي يعبر عن حبه لمن يحب هو قوله : «أنا أحبك» .

لم يقل لى «إنى أحبك» ، ولكن عينيه وشفتيه وأصابعه وكل جارحة فيه ، كانت تنطق صارخة «إنى أحبك» .

هذه أشياء تحس قبل أن تسمع ، فالمشاعر تسرى من النفس إلى النفس كأنها شعاع مضىء . إنها ليست فى حاجة إلى أقوال تظهرها .

أطرقت برأسى وأنا أحس اضطراباً شديداً ، وعاد إلىّ خوفى القديم من الحب ، وعواقبه . . وصممت على ألا أترك نفسى تنزلق ، وأن أتمالك وأتماسك ، وأن أقاوم كل متعة ، وألا أدع زمام نفسى يفلت منى .

ورفعت بصرى مرة ثانية ، فوجدته ما زال يسلط علىّ من عينيه تلك النظرة الحارة التى تذيب نفسى وتتركنى على وشك الانصهار أو التحلل .

كيف المقاومة ؟ أأكسو وجهى مظهر الغضب والنفور وآمره بأن يعود إلى مقعده ؟ لا أظنها طريقة مثلى ، لأنه إما أن يغضبه نفورى ، وأنا لا أود إغضابه ، وإما أن يزيده التمنع رغبة ، ولا أظننى لو زادت رغبته قيد أنملة ، أستطيع المقاومة .

إذاً .. أدعي البرود ، وأريه أني جامدة لا أتأثر .. فيصيبه الفتور والخجل فتخمد عواطفه ، وأكون بذلك قد انتصرت؟

لا تضحكوا عليّ ولا تسخروا مني . . فما خدع الإنسان مثل نفسه . . لقـــد كنت أحاول أن أجد لنفسي فتوى أنال بها ما حرّمته عليها ، وما أبرع الإنسان في إيجاد الفتاوى والمبررات وفي اللف والدوران . . لقـــد كنت أتلهف على ما أجزع منه . . كنت أريد وأخشى . . فحاولت أن أفر من الخطر لأعود إليه من طريق آخر .

أجل لقد صممت على أن أبدي له الفتور وقلة الاكتراث ، وأريه أني متمالكة عواطفي ، وأنني لا أفقد زمامي بسهولة .

كنت لا شك حمقاء . ألست إنسانة ؟! وعاشقة ؟!

لننظر ماذا كانت النتيجة ؟

نظرت إليه وقلت له بهدوء :

— ثم ماذا ؟ ماذا بعد جلستك هذه ؟

ولم يجب ، بل انحنى برأسه وهو ينظر إليّ نظرته الحنون اللهفى ، وأحسست بلهيب أنفاسه يلفح وجهي ، وبشفتيه تقتربان من شفتي وتمسهما مساً خفيفاً .

وتمالكت نفسي ، وبقيت كما أنا ، لا أحرك ساكناً ، وكأني لم أحس به ولا بشفتيه ، وقلت له بمنتهى الهدوء :

ــ لا فائدة . . إنى مخلوقة جامدة الإحســاس . . باردة المشاعر . . خير لك أن تقبّـل تمثالا من التماثيل .. فلن تحرك فىّ من المشاعر أكثر مما تحرك فيه .

ولم تصبه كلمـاتى بفتور ، أو تراجع . . أو تطفىء منه الحرارة التى تشع من عينيه ، أو اللهب الذى كان يستعر فى أنفاسه .

ومن العجب . . أنى لم أحس بخيبـة أمل . . رغم أن هذا كان فشلا ذريعاً لخطتى التى انتهجتها للمقاومة ، ولـكننى ــ كما قلت لكم ــ كنت أخدع نفسى ، وعلم الله ماذا كان يمـكن أن أحس به من المرارة لو قد أصابه التراجع والفتور فعلا .

ظللت أقول له إنى لا أحس ولا أشـعر . . وأنى جامدة باردة ، وظل هو يمس بشفتيه شفتى . . حتى أحسست كأن الكلمات أخذت تذوب فى فمى ، وأن صوتى يتلاشى رويداً رويداً . . كأنمـا قد فقدت قدرتى على النطق . . أو كأنى قد حقنت بمخدر .

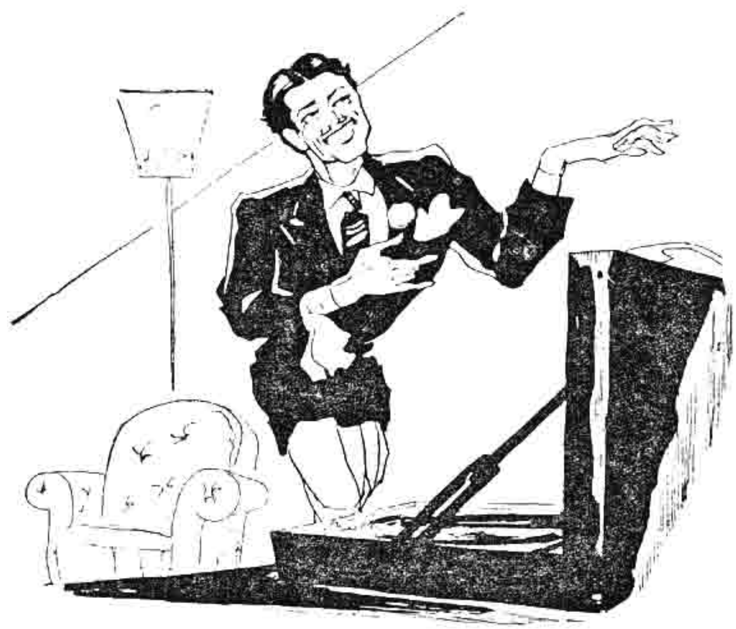
ولم أنبس بكلمة . . بل وتثاقل جفناى . . ولم أعد أشعر إلا بشفتيه حارتين على شفتى . . وأنفاسـه مختلطة بأنفاسى ، وبلا وعى ، ولا إرادة . . وجدت ذراعى . . ذراعى أنا ــ المخلوقة الباردة التى لا تحس ــ تحيطانه برفق ، ثم تضمانه

بكل ما ملكت قواى ، وأغمضت عينى . . ورحت فى نشوة ممتعة . . وحلم جميل .

وافترقت شفتانا برهة . . كى تتمالك أنفاسنا . . ثم عادت الشفتان إلى لقـــاء أحر وأعنف . . ومد يده وأخذ يتخلل بأصابعه شعرى . . ويتحسس وجهى فى حنان شديد .

وانتقلنا إلى الأريكة وجلسنا فى ناحية منهـا ، وجلست بجواره مسندة رأسى إلى صـدره . . وبين لحظة وأخرى تلتقى شفاهنا . . كأننا نهمان صاديان . . لا نشبع من جوع . . ولا نروى من ظمأ .





الطبقة السفلى

٧

ذلك الشتاء . . شتاء ١٩٣٨ . . أهنأ أيام حياتنا ، شهد فقد هيأ لى المرض من الحرية والتراخى والتدليل ، ما لم أمنحه من قبل . . وما كنت أحس أننى فى أشد الحاجة إليه . . بعد أن أصابتنى حميا الحب . . وأثملتنى نشوته .

ولقد حاولت جهدى — بعدما أعطيت من حرية نسبية — ألا أندفع فى استغلالها خشية أن أفضح نفسى . . وحاولت كذلك أن أتمسك بأهداف الرزانة والتعقل ، وألا أظهر قط أمام الأهل أنى أكن له إحساساً خاصاً . . أو أن أظهر أن ما بيننا يتعدى صلة القرابة العادية .

ونجحت فى ذلك إلى أبعد حدود النجاح . . فقد كنت أتمتع بقدرة عجيبة على السيطرة على مشاعرى ، وعلى كبح جماح نفسى . . وعلى تصنع الهدوء وقلة الاكتراث . . حتى أكون بمنأى عن الشكوك والأقوال . . وبقيت أحتفظ أمامهم بجمود مظهرى وبرود مشاعرى . . ولم ير أحد من أهلى فى « أحمد » أكثر مما كان دائماً — ابن خالتى وصديق أخى — اللهم إلا جدتى التى قد تكون أحست بميلى إليه . . ولكنها لم تر فى ذلك أمراً نكراً . . فقد كانت تحب « أحمد » وتلمس فيه نبل الخلق ، وطيبة القلب . . وكنت أحس أنها

تراه زوجاً ملائماً ، ولا تجد — من ناحيتها — مانعاً من أن نصبح زوجين سعيدين .

وهكذا ظللنا على النهل من حبنا بأناة وروية . . نرشف من منبعه رشفة رشفة . . ونحتسى من كأسه قطرة قطرة . . دون أن يشعر أحد بأن فى الدار قيساً وليلى . . وأن قلبيهما يستعران بنيران الهوى ولهيب الحب .

واستمرت الساقية المهجورة معبدنا المقدس . . نختلس اللحظات لكى نحج إليه فنجلس فيه متشابكى الأيدى . . بلساننا صمت ، وبحشانا حنين ومناجاة .

ومر الشتاء وأعقبه الربيع والصيف ، وانقضى على حبنا عام أحسسنا فى خلاله أنه لم يعد لأحدنا غنى عن صاحبه . . ولم أكن أتصور أننى أستطيع أن أتخذ سواه شريكا لحياتى إذ لم أكن أحس له مجرد حب ، بل كنت أشعر أن كلا منا جزء متمم للآخر وأنه منى . . وأننى منه . . وأننا نكون وحدة واحدة لا يمكن فصلها .

وحل موعد سفرنا إلى المصيف بالأسكندرية . . ولأول مرة أحسست بكره للأسكندرية ، فقد توقعت خلال الرحيل فرقة طويلة ، لأنه لن يستطيع الحصول على أجازة طويلة . .

ولن يكون الذهاب إلى الأسكندرية بالمتيسر له إلا فى فترات متقطعة خاطفة .

ورحلت إلى الأسكندرية ، وبنفسى ضيق ، مجرد ضيق لا أكثر ، فقد كانت شدة إيمانى بحبنا ، وثقتى فى مستقبلنا ، تجعلنى لا آبه كثيراً لفرقة مؤقتة ، ولا أحزن لغيبة إلى اللقاء مصيرها ومنتهاها .

ونزلنا هذا الصيف فى فيلا فخمة ، واستبدلنا بها كابينتنا فى شاطىء « جليم » أخرى فى « سيدى بشر » ، فقد كان المال يتدفق على أبى بلا حساب ، وثروته تتضخم وأعمال تتزايد .

وأحسست أننا بدأنا نندمج فى وسط جديد . . الوسط الاستقراطى الرفيع . . المتكبر المتعالى . . الملتوى االسان ، الناطق بغير الضاد .

ولا أكتمكم القول أنى كنت أحس لهذا الوسط الجديد ، من أهل السمو والرفعة والدولة والمعالى والشرف والوجاهة ، كثيراً من الرهبة . . فقد بدا لى ـ رغم ثراء أبى ـ أنى شىء أقل من هؤلاء ، وأن أصلى ونشأتى أخفض مستوى وأقل شأناً . . فمهما قيل عن ثرائنا الآن فإنى أحس أنى كنت من الطبقة الوسطى ، ولم أنس قط أن أبى كان مقاولا ذا دخل محدود ، وأنه لا يحمل من الشهادات غير الفنون والصنائع ،

ولا أنسى كذلك أن « جدتى » فلاحة أصيلة .. ذات وشم أخضر فى ظاهر يدها ، وأنها لا تعرف القراءة والكتابة ، ولا تستطيع نطق الكثير من الألفاظ الشائع استعمالها .

حقيقة أن أبى قد أضحى باشا ، ولكنه باشا « بالدّراع » لا بالأصل ولا بالنشأة ، فما كان لنا عراقة أصل ، وما عرف تاريخ عائلتنا من قبل هذه الرتبة الرفيعة .

وحقيقة أننى ربيت تربية حسنة ، وأنى لم أحس قط منذ مولدى أنى محرومة من شىء ، وأننا لا نعتبر محدثى نعمة ، أو أثرياء حرب ، ولكنى مع ذلك لم أستطع أن أمنع ذلك الوهم الذى داخل نفسى وجعلنى أشعر بالتضاؤل إلى جوارهم .

كيف لا ، وأنا أجد أن ثلاثة أرباع من حولى .. هم هؤلاء الذين تنشر الصحف صورهم ، وتروى أخبارهم .. وتقص سكناتهم وحركاتهم ، وتقول إن فلاناً اتى فلاناً .. وأن فلاناً لعب الطاولة مع فلان .. وأن هذا شوهد يسير بجوار هذا .. كأنهم كواكب يتوقف على حركاتهم مصير الكرة الأرضية .. وبقاء المعمورة .

لقد كان عملى فى بادىء الأمر هو أن أجلس بجوار ...ى فى ركن « الكابين » وأرقب الناس وأفحص الوجوه المحيطة ، محاولة التعرف عليها من صورها التى رأيتها ، ولم يكن يخلو

الامر من أن ألتقي صاحبة لى فى المدرسة أو أحد المقربين لى من الأصدقاء ، فأقطع الوقت بالحديث أو السير معهم .

وفى ذات يوم كان أبى يجلس معنا فى « الكابين » ورأيته ينهض من مكانه ويحيى رجلا تبدو عليه سيما المهابة والعظمة ، لم يكن وجهه غريباً علىّ ، وسمعته يناديه « بدولتك » . . ولم ألبث بعد قليل فحص وتذكر أن عرفت فيه أحد أصحاب الدولة السابقين .

وسأله أبى التفضل بالجلوس . . وتقدم الرجل إلى « الكابين » ، ونهضت لتحيته . وجلس يتسامر مع أبى ، ويطرقون الحديث عن بعض الأعمال .

وعندما نهض « صاحب الدولة » للانصراف ربت على كتفى وسألنى ضاحكا :

— لِمَ تجلسين وحدك هنا ؟! لِمَ لا تأتين لزيارة « توتو » و « سوسو » ؟

وقال أبى مبتسما :

— إن شاء الله تزورهم يا باشا .

ولم أجد فى قول أبى سوى مجرد رد ، ولم أحاول طبعاً تنفيذه لأنى لم أكن أشعر بكثير لهفة على معرفة « توتو » و « سوسو » ، فقد كان إحساسى بالتضاؤل إلى جوار هذه

الطبقة . . تجعلنى شديدة النفور منهم ، وكنت إلى جانب هذا متباعدة عن الناس . . أميل إلى الانطواء والوحدة بطبعى وبطبيعة نشأتى وتربيتى .

ولـكنى مع ذلك وجدت أن الظروف قد أرادت أن تعرفنى بهم ، وقررت أن تزج بهم فى محيط حياتى . . فقد أنبأنى أبى بعد بضعة أيام أنه قد دعا « دولة زكى باشا » وعائلته ، إلى تناول الغداء معنا .

وبدأنا الاستعداد لاستقبالهم . . وقام البيت على قدم وساق . . كأن حدثاً خطيراً يوشك أن يقع . . ولم أر أبى يهتم بأمر قدر اهتمامه بهذه الزيارة الجليلة .

كنت أعرف أبى جيداً ، ولم أتمالك أن أهز كتفى وأنا أتحرك فى الدار غادية رائحة كأم العروس « فاضية مشغولة » .

وأقول لنفسى : أغلب ظنى أن « صاحب الدولة » المتقاعد ، يوشك أن يصبح « صاحب دولة » عاملا . . إن أبى لا يضيع تعبه سدى ، أو من يدرى ؟ ربما كانت المسألة مجرد تشرف .

وقبيل الساعة الثانية وقفت أمام باب الفيلا عربة فخمة من أحدث طراز ، وخرج أبى لاستقبال الزائرين ، وسرت وراءه أتتبع خطاه .

وبدأت ألحصهم وهم يجتازون الحديقة واحداً واحداً .

« دولة الباشا » يتقدمهم . . بعصاه ومنظاره وطربوشه المائل على أحد حاجبيه وقامته الفارعة ومنظره المهيب ، وبجواره أبى يبتسم محيياً ، وعلى يمينه شاب متأنق أصفر الشعر ، أبيض البشرة ، متورد الوجنتين ، أحمر الشفتين ، أميل إلى السمنة .. وبجواره فتاة فى مثل سنى نحيفة الجسد ، طويلة القامة ، بها شبه كبير من أبيها لا يكاد يميزها عنه سوى بروز خفيف فى الصدر والردفين . . وأحمر الشفاه . . و « الفستان » طبعاً .

وقلت لنفسى :

— هذه لا شك إحدى الاثنتين . . توتو أو سوسو . . ترى لِمَ لم تحضر الفتاة الثانية؟

واقتربت منهم محيية .. ورد الأب تحيتى مرحباً ، وقام بمهمة التعريف بينى وبين ولده وابنته قائلا :

— أهلا وسهلا مدموازيل عايده .

ثم أشار إلى ابنه اللامع المتورد :

— ابنى . . توتو .

وإلى ابنته الطويلة النحيلة :

— بنتى . . سوسو .

إذاً فـ « توتو » هو ابنه . . ذكر لا أنثى !

لشد ما خدعنى الاسم . ولكن معهم الحق .. فهو فى تأنقه

« وحفلطته » أحق باسم «توتو» من غيره من أسماء الرجال .

وأجاب الشاب والفتاة على قول أبيهما بانحناءة خفيفة من رأسيهما . . ومسة من كفيهما لكفى الممدودة المفتوحة وقالا فى لهجة أرستقراطية :

— انشانتيه .

ثم قال « توتو » لأخته باللغة الفرنسية بلهجة رفيعة لدغة الراء :

— يجب ألا تنسى دعوة الآنسة عايدة إلى حفلة سان استفانو .

وأجابته أخته :

— طبعاً . . لا بد من دعوتها . . لقد أحضرت معى تذكرة خصيصاً لها .

ودخلنا إلى حجرة الصالون وجلسنا برهة نتحدث ريثما يستريح الضيوف ويشربون « شيئاً » .

ولم يكن أبى قد تعوّد الشرب ـ على الأقل فى البيت ـ ولكنه فى هذا اليوم خرج عن مألوف عادته . . وأعد بضع زجاجات من الويسكى احتفاء بالضيف العظيم .

ودخل أحد الخدم يحمل بضع كئوس .

وشرب الباشا « صاحب الدولة » . . والباشا « أبى » . .

ولم أر فى هذا عجباً ! ولكن العجب الذى أصابنى كان عند ما رأيت الشاب والفتاة يشربان بمنتهى البساطة . . أمام أبيهما وأبى ، وكأن المسألة ليس فيها مدعاة لتهيب أو خجل .

وسألنى توتو بك : لِمَ لا أشرب ؟

وأحسست أن أبى تملكه الحرج ، وأنه يتمنى لو كنت قابعة فى غرفتى دون أن أختلط بهذين الأرستقراطيين .

وأجاب هو نيابة عنى بأنى لم أتعوّد الشراب .

ولم تطل جلستنا فى حجرة الاستقبال ، ثم نهضنا إلى حجرة الطعام والتففنا حول المائدة .

وتحدثت مع الفتى والفتاة . . وأقول الحق أنى أصبت بصدمة من حديثهما . . وأدهشنى أن أجدهما على هذا القدر من السخف والتفاهة ، وبدأت أحس بالتضاؤل الذى كنت أحسه إلى جوار الطبقة الرفيعة يتبدد ويتطاير . . ويحل محله إحساس بالكبرياء والتعاظم .

كان أول ماسألنى « توتو بك » هو قوله بالفرنسية :

ــ هل سمعت آخر تانجو ؟

وأجبته بالعربية وبى شبه أسف :

ــ لا . . إنى لم أسمعه .

ــ خسارة .. تانجو عظيم جداً .

ـــ وما رأيك فى أسطوانة « جيف مى يور ليبس » ؟

وفهمت أنه يعنى بالعربية أغنية « إعطنى شفتيك » . .

وهززت رأسى وقلت بنفس اللهجة الآسفة :

ـــ لم أسمعها أيضاً .

ورفع الفتى حاجبيه دهشاً من جهلى المطبق وقال :

ـــ عجيبة ! لم يخطر ببالى أن أحداً لم يسمعها . . لقد بيع منها فى نيويورك وحدها نصف مليون اسطوانة . . وقال « موريس شيفاليه » نفسه إنها أبدع ما سمع .

وتملكنى الخجل ، وخشيت أن يوجه إلىّ سؤالا عن اسطوانة أخرى . . أو « رومبا » جديدة . . يزيد بها جهلى ، فأنا لم أسمع قط أسطوانة افرنجية .

ولكنى وجدته يسألنى سؤالا أقل إحراجاً . . سؤالا أستطيع على الأقل الإجابة عنه :

ـــ ما أحب الأدوار إليك ؟

وبلا إرادة ولا تفكير ، تذكرت أغنية « ردّت الروح » وتذكرت جلستنا على الساقية المهجورة . . و « أحمد » يدندن الأغنية بصوته الحنون ونبراته الهادئة ، وتملكتنى نشوة وأجبت قائلة :

ـــ ردّت الروح !

وكانت المناقشة بيننا تجرى بطريقة عجيبة ، فهو يتكلم بالفرنسية ، وأنا أجيب بالعربية ، وكنت أستطيع بالطبع أن أجيبه بالفرنسية ، ولكننى لم أكن أجد لها داعياً ، مادام هو يعرف العربية ، وأنا أعرف العربية كذلك .

ووجدته يردد قولى بلهجة أشبه بلهجة الإفرنج عند ما ينطقون العربية ، واستمر يرددها ويتساءل :

— ردّت الروح . . ردّت الروح !

ثم التفت إلى أخته يسألها :

— كس كى سا .

وهزت أخته كتفيها وهى تزدرد الطعام فقد كانت مثله لم تسمع عن شىء اسمه « ردّت الروح » .

وأصابنى نفس الخجل الذى أصابنى من جهلى بآخر تانجو ، بدا لى أن من العار أن أعرف « ردّت الروح » أو أذكرها على الطعام .

وقلت مفسرة حتى أدارى خجلى :

— « ردّت الروح على المضنى معك » . إنها قصيدة من روع ما نظم شوقى ولحن عبد الوهاب .

وانطلقت من صدر صاحبنا آهة تذكر ، وقال فى لهجة لا تخلو من الاستخفاف والاستهزاء :

ـ أغنية عربية !؟

وقلت وأنا أخفض بصري كأني قد ارتكبت ذنباً :

ـ أجل . أغنية عربية .

ـ لا .. لا .. إني أقصد أغنية من الأغاني المتمدينة .. إني لم أحاول قط أن أسمع أغنية عربية .

وأحسست بالغضب يغلي في عروقي وتمنيت أن أصفعه ولكن لم أرد أن أسبب لأبي كارثة ، وقلت له متسائلة بنفس لهجته المستخفة :

ـ ولِمَ ؟

ـ إن الموسيقى الشرقية تتوتر لها أعصابي .

ـ ألم تسمع لعبد الوهاب شيئاً ؟

وهزّ رأسه بالنفي .

فسألت مستفسرة :

ـ ولم تقرأ لشوقي؟

واستمر يهز رأسه متبرّماً من التهمة .

وعدت أسأل :

ـ ولا قرأت للمنفلوطي ؟

وانطلق يقهقه كأن النكتة قد أسعفته ، وأجاب في شيء من السخرية والاستهزاء :

ــ منفلوطى ؟! أنا لم أسمع إلا عن « الرمان » المنفلوطى .

وأجبته فى كثير من التهكم :

ــ الحمد لله . . إنك تعرف شيئاً مصرياً ، حتى ولو كان « الرمان » .

ــ أنا أكره كل شىء مصرى . . هذا الشعب ما زال شعباً بدائياً . . أمامه قرون حتى يصبح شعباً متمديناً .. شعب « الفول المدمس » والطعمية » .

ولو قال لى أحد غير هذا الأبله ، ذلك القول . . لكان محتملا . . ولتركته يذهب مع الريح . . ولما ترك فى نفسى أثراً يذكر . . أما أن يقوله ابن « صاحب دولة » . . وإنسان يحتمل جداً أن يصبح فى هذا الشعب المسكين ذا شأن وذا خطر ، وقد يدفعه القدر الغشوم إلى أن يتولى منصباً من مناصب الدولة ، ويصبح إنساناً مسئولا عن مصير هذه الأمة التعسة .

أما أن يقول هذا الكلام مثل هذا الإنسان .. وأن يكون رأيه فى المصريين مثل هذا الرأى . . وحديثه بمثل هذه اللغة .. فقد جعل دمى يغلى فى عروقى .

أهذه أفكارهم عن أمتهم ؟ . . أبمثل هؤلاء المخنثين من أبناء الكبراء ستبنى مصر مجدها وتقيم سؤددها ! . . هؤلاء

الذين تثير أعصابهم الموسيقى الشرقية . . والذين لايعرفون من الدنيا إلا آخر رقصة ، وآخر أغنية « لموريس شفاليه » ولا يهتمون إلا بأحدث « موضة » للأزياء .

هؤلاء الذين يتحدثون عن الشعب المصرى كأنهم ليسوا منه . . الذين يتبرأون من « الفول والطعمية » كأنها سبة أومعرة .

وتذكرت « أحمد » ، وتذكرت مصريته الحقة ، وتذكرت « الكشرى أبوجبة » و « ميِّة الدَّقة » ، وتذكرت حماسته للجيش . . وحماسته لمصر . . وتمنيت لو استطعت أن أجثو أمامه وأقبل قدميه .

هذا الرقيع الجالس بجوارى ، قد أعطانى نموذجاً للطبقة العليا . . أستغفر الله . . بل الطبقة السفلى الرقيعة المدللة

ونظرت إليه ولم أدر ماذا أقول له . . أألعن أباه . . أعنى « دولة أبيه » . . أم أتركه وأذهب إلى حجرتى ؟

ولكن ماذا يقول أبى ؟ ليس أمامى سوى أن أمتثل لإرادة الله . . وأظل أستمع إلى آرائه الرفيعة المتعالية ، حتى ينتهى من تناول الطعام .

ولم أستطع إلا أن أفرِّج عن غيظى المكبوت . . بتصور ماذا يمكن أن أفعله فى تلك الطبقة السفلى . . أولاد الذوات لوكان الأمر بيدى .

وتصوَّرت نفسى حاكمة بأمرها فى هذا البلد . . وأنى جمعت كل هؤلاء الرقعاء المرفهين المنعمين .. الملتوى الألسن الذين يربأون بأنفسهم أن ينزلقوا إلى هاوية الحديث باللغة العربية . . والذين لا تشنف آذانهم سوى الموسيقى الغربية ، ولا يحتمل مزاجهم الرقيق سوى « التانجو » و « الفالس » . . والذين يتفاخرون بمسبة الشعب المصرى ويتبرأون منه . . ويحطون من قدره ويسمونه : شعب « الفول والطعمية » .

تصوّرت نفسى وقد جمعت هؤلاء الرقعاء . . وشددت وثاقهم وألقيتهم عرايا فى أحد ميادين القاهرة . . وأمرت بجلدهم كل واحد مائة جلدة « على الماشى » . . حتى أجعلهم لا ينطقون بالضاد فحسب . . بل يتأوهون بالضاد . . وأعلمهم إذا ما جلسوا فيما بينهم أن يتكلموا العربية . . ثم أضع فى أرجاء الميدان « ميكروفونات » لتذيع غناء « محمد العربى » و « الشيخ محمود صبح » . . حتى أجعل مزاجهم يخشوشن . . وأنسيهم كل ما يعلمون عن « وش مى جودباى » . . و « جيف مى يورليبس » . . . وأجعلهم ينشدون بأعلى أصواتهم « يا حلوه يا ريه » و « ياعم دانا غريب » . . . و « يا نحيف القوام » .

ثم أتركهم بعد ذلك يعيشون خمسة أيام على « العيش

الحاف » . . حتى يشتهوا « الفول والطعمية » .

وهكذا استطعت بتلك الأفكار والتصورات أن أفرج عن كربتى وأن أسرح بعض الشىء فأتخلص من سمع هراء ضيفنا وأخته .

وعدت أنظر إليـه وهو يحدث أباه بالفرنسية فأحسست بالرثاء له . . وعدت أتساءل :

« ما ذنب هذا المسكين فيما أضحى عليه ؟ وما ذنبه فى ذوقه وأفكاره . . إن المسئول هو « صاحب الدولة » نفسه .

المسؤول الأول هم الآباء الذين يترفعون عن التربيـــة المصرية ويدفعون بأولادهم إلى المدارس الأجنبية .

المسؤول هو « صاحب الدولة » . . الذى لم يؤمن بتعليم دولته ، وتربيـــة دولته . . فلجأ إلى المدارس الفرنسية والإنجليزية يستجديها تعليم أولاده وتربيتهم .

ما ذنب الأبناء المساكين وقد نشأوا نشأة أجنبية بحتـة ؟ نشأوا فى بلادهم ، وهم غرباء عنها . . فمنـذ نعومة أظفارهم قد تولت أمرهم مربية أجنبيـة ــ وهذا لاشـك من دواعى فخرهم وفخر ذويهم ــ فلمـا شبوا ألحقوا بالمدارس الأجنبية فنضحت على عقولهم ، وصبغت نفوسهم . . وغيرت أذواقهم

ولوّثت أفكارهم ، فترفّعوا عن أمتهم ، وتعالوا على شعبهم .

ما ذنبهم إذا كانوا لم يتلقوا من الثقافة العربيـة كفايتهم ؟ ما ذنبهم إذا كانوا لايعرفون شيئاً عن الشيخ « محمد عبده » ولا يميزون بين « عبد العزيز البشرى » و « خان الخليلى » ؟

ما ذنبهم إذا كان أهلهم فخورين بأجنبيتهم !؟ ما ذنبهم إذا كانوا لا يجيدون الحديث بالعربية . . كما لا يجيدونه بالفرنسية أو الإنجليزية ؟

ما ذنبهم إذا كان أبوهم لم يحزنه أن يراهم كذلك ؟ » .

وعدت إلى نفسى مرة أخرى على صوت « توتو بك » يقول لى :

ــ هل تعلمت الرقصة الجديدة ؟

ــ ولا القديمة .

ــ أنت لاترقصين ؟

ــ أجل .

ــ كيف ؟ هذا أمر غير معقول !

ــ ولمَ لا !! إنى لا أحب الرقص .

ــ لا تحبينه ؟! هذه مسألة من ضروريات الحيـــاة . . كالأكل والشرب . . كيف تعيشين بلا رقص . لا . لا . لابد أن أعلمك الرقص ، سأعتبر نفسى مسئولا عنك منذ الآن .

ولم أدر بماذا أجيبه .. ولكنى فضلت ألا أدخل معه فى مناقشة فقلت له :

— إن شاء الله .. سأحاول تعلمه .

* * *

وانتهت تلك الزيارة على خير ، وتنفست الصعداء وأنا أودع العائلة الأرستقراطية وأعدهم — وأبى — برد الزيارة .

وبدا لى بعد ذلك أنه لم يعد هناك مفر من توطيد العلاقة بيننا ، وبدا لى أيضاً أن أبى فى علاقته الجديدة ، حائر قلق ، فهو راغب فيها ، كاره لها .. راغب فيها لأنه يهدف من علاقته بصاحب الدولة إلى غرض معين من ناحية العمل .. ولأنه — كما كنت أتوهم من قبل — يرى هذه العلاقة مدعاة للفخر . وكان كارهاً لها لخوفه علىّ منها ، فقد أدرك مدى خطورتها علىّ ، وأفزعه من أولاد « صاحب الدولة » مسألة الرقص والشرب .. وهو الذى .. طالما ضيق علىّ الخناق .. وقسا فى تربيتى .

وكنت واثقة أن أبى لن يسمح قط بما يفسد عليه تربيتى وبما يضيع طول مجهوده معى ، ولو كنت أستطيع أن أحدثه بصراحة لطمأنت قلبه ، وأظهرت له مدى احتقارى لتلك الطبقة الرفيعة ، ومدى نفورى منها ومن أسلوبها فى الحياة

ولقلت له . . إن لدىّ درعاً يقيني غوائلها . . ويجعلنى أصد كل شرور الحياة ومفاسدها .. وهو حبى « لأحمد » .. وعزمى على الاقتران به .

ولكن .. هل أجسر أن أقول هذا ؟

ولم يجد أبى هناك وسيلة يمسك بها العصا من الوسط . . فيبقى على علاقته مع الأب .. ويجنبنى شرور الأبناء .. إلا أن يقصر علاقته على الرجل نفسه . . فيلبى دعوته وحده ويعتذر عن عدم حضورى بالمرض .. ويلمح إلىّ . . أنه لا يرغب فى أن أتعرّف بهؤلاء الأولاد « المفاسيد » .

ولم أكن فى حاجة إلى نصحه بالطبع . . فقد كنت أنا الراغبة فيه . . وقلت لنفسى : « بركه يا جامع » . . وصممت على أن تكون زيارتهم لنا .. هى أول وآخر علاقتى بهم ، وأن أتهرّب منهما قدر ما أستطيع .

واستطعت فعلا . . أن أتهرب منهما . . فقد جاءنى « توتو بك » (استطعت بعد ذلك . . أن أعرف . . أن اسمه « تهانى » لأن أمه كانت تود لو كان بنتاً . . فأطلقت عليه هذا الإسم .. رحمها الله .. فقد استجاب الله دعاءها) .

أقول إن « توتو بك » جاءنى بضع مرات يدعونى .

الذهاب معه إلى « سان استفانو »، أو إلى زيارتهم .. ولكنى كنت أعتذر دائماً بالمرض .

وذهبت ذات يوم إلى « الكابين » .. وجلست على إحدى الأرائك .. أراقب الناس طوراً .. وأتشاغل بالقراءة طوراً آخر . . وفجأة وصل إلى أذنى . . صوت ممدود ملحن . . يصيح بى :

— بونجور عايده .

وتلفت . . فإذا به « توتو » . . وقد سار مع صاحب له على شاكلته . . وفتاتين . . ترتدى كل منهما « مايوه » من الساتان . . قد شدّ على الجسد وانحسر عن الساقين .. حتى بدت الفتاتان أشبه بالعاريتين .

وأجبت على تحيته بهدوء :

— بونجور يافندم . . إزاى سوسو ؟

وانطلق « يرطن » بالفرنسية .. رافعاً كل كلفة . . كأننا أصدقاء العمر :

— لقد عثرت عليك أخيراً أيتها الهاربة .

— إنى آسفة لأنى كنت مريضة فلم أستطع أن ألبى دعوتكم .

— لا . . لا . . أنت تلميذة مكسالة . . لقد أقسمت أن أعلمك الرقص . وها قد أمسكت بك فلن تفلتى من يدى .

والتفت إلى أصدقائه مستدركا :

ـــ نسيت أن أعرفكم ببعض . عابده هانم . ابنة مصطفى باشا عبد الرحمن .. وصديق « برى » . . وأخته « ميمى » . وصديقتها « كاميليا » .

وأحنيت رأسي قائلة :

ـــ تشرفنا يا فندم.

وتمتم الباقى بعض كلمات بلغات مختلفة . . لم تكن بينها العربية طبعاً .

وعاد « توتو » يندفع فى هذره :

ـــ ما رأيك فى أن نبدأ الدرس من الآن ؟

وقلت فى دهش متسائلة :

ـــ درس ؟ ! أى درس ؟ !

ـــ لا . . أنت تلميذة بليدة لن تفلح معك إلا الشدة .

ثم التفت إلى أصدقائه . . دافعاً إياهم داخل الكابين صائحاً بهم :

ـــ ادخلوا انتظرونى برهة . خمس دقائق فقط . سأعود إليكم حالا .

ودخل أصدقاؤه إلى « الكابين » . . ولم يسعنى أمام الأمر

الواقع إلا دعوتهم إلى الجلوس . . وبعد خمس دقائق عاد صاحبنا فعلا ، وقد حمل فى يده حقيبة « جراموفون » ، وفى اليد الأخرى كيس اسطوانات .

وبلا كلمة واحدة وضع الميكروفون على المنضدة ، وبدأ فى إدارته ، واقترب منى قائلا ببساطة :

ــ هيا . . سأعلمك الآن رقصة بسيطة « فوكس تروت » لن تأخذ منا سوى خمس دقائق .. فهى لا تزيد على أربع خطوات : واحد .. اتنين .. تلاته .. أربعه .. بسيطة جداً .. كأنك تسيرين .

وكنت أسمع إليه ، وأنا جالسة فى مقعدى . . أنظر إليه نظرتى إلى إنسان مخبول .

وهمّ بأن يمسك بيدى ، ولكنى نزعتها من يده . . وقلت له :

ــ أرجوك يا « توتو بك » إنى متعبة جداً لا أستطيع النهوض . لقد قلت لك إنى لا أحب الرقص ، ولا أريد أن أتعلمه . فأرجوك ألا تضايقنى بالإلحاح .

وهكذا لم أجد ما يردعه عنى سوى « قلة الذوق » فقد وجدته كما يقول : « يسوق الهباله على الشيطنه » .

وكنت أنتظر أن يخجل أو يغضب ولكنه لم يفعل ، بل

أجابني ضاحكا :

— لن أيأس منك أيتها التلميذة البليدة .

ثم نظر إلى رفاقه وقال :

— دعونا نرقص هذه الرقصة .

وعاد يوجه إلىّ القول :

— يجب أن تستفيدى بالمراقبة . . اتبعى خطواتنا . . فهذا سيفيدك فى التعليم .

وهكذا . . ما بين غمضة عين وانتباهتها انقلب « الكابين » إلى « باللو » ووجدتنى أجلس عن غير قصد منى - بل رغم أنفى - فى حلبة رقص .

وتملكنى خجل شديد ، وغاظنى أنى لا أستطيع أن أفعل شيئاً لإيقافهم ، وأنى لا أجسر على طردهم .

ووجدت أن خير طريقة هو أن أغادر أنا « الكابين » وأسير على الشاطىء برهة ريثما ينتهون من مجونهم ، وهممت بالنهوض فعلا لمغادرة « الكابين » عندما وقع بصرى بغتة على الشخص الذى لم أكن أتمنى شيئاً كرؤيته .

رأيت « أحمد » مقبلا على « الكابين » ، وتملكنى من رؤيته فرحة فجائية . . كادت تدفعنى لأن أجرى فارتمى بين

أحضانه .. لولا مسكة من عقل . . ولولا نظرة غريبة رأيتها فى عينيه . . نظرة جعلتنى أذكر لك المنظر المحيط بى ، المنظر الماجن والموسيقى الصاخبة والضحكات العربيدة . . التى ألقاها علىّ القدر الساخر . . بلا أى سبب ، وفى اللحظة المحكمة . . حتى أبدو أمام « أحمد » — ظلماً وعدواناً — بما أنا أبعد النـــاس عنه ، وحتى يبدو له أنى أشارك هؤلاء المخبولين رقصهم ومجونهم .

ولعنت الظروف التى ألقت بذلك الحيوان الأرستقراطى المهووس وأصحابه الحمقى إلى « الكابين » فى تلك اللحظة غير المناسبة ، ولم يسعنى إلا أن أتقدم إلى « أحمد » محيية ، معللة نفسى بأنى سأوضح له جلية الأمر ، وأمحو من نفسه سوء الظن الذى قد يعلق بذهنه .

ولم يلقنى « أحمد » باللهفة والحماسة المنتظرين .. فقد صدمه — كما توقعت — ذلك المنظر الذى لم يكن يتوقعه قط ، وفعلت به الوساوس والظنون فعلها فى لمح البصر ، فأبصرت بوجهه محتقناً بغيظ مكبوت ودهش واستياء ، وخيل إلىّ أنه يقاوم ثورة غضب تعصف بصدره .

وسألنى فى برود :

ــ كيف حالك يا عايدة ؟! وكيف حال عمى . . ونينه ؟ يبدو لى أنك مسرورة !؟

وتحملت بروده وسخريته . . واثقة أنه بعد دقائق سينصرف الفتية السخفاء . . وأخلو به وأوضح له الأمر . . وحتى لو لم ينصرفوا . . فإنى أستطيع أن أسير به برهة أوضح خلالها ما التبس عليه فهمه .

ولكن يبدو لى أن الظروف قد أبت إلا أن تعقد الأمر وتمعن فى مضايقتى . . إذ ما كدت أجيب « أحمد » على تحيته وأدعوه إلى الدخول إلى « الكابين » حتى لمحت أبى قادماً .

ولم أشك فى أن المنظر الصاخب الراقص قد أساء أبى . . ولكنه استطاع أن يكظم غيظه . . وسلم على « أحمد » وعلى الفتية الراقصين الذين توقفوا عن الرقص لانتهاء الأسطوانة .

وقال « توتو » محدثاً أبى بمنتهى البساطة :

ــ بونجور عمى . . سأشكو لك عايدة . . إنها كسولة جداً . . إنها أبلد تلميذة رأيتها إلى الآن .

وأجاب أبى متضاحكا :

ــ لا . . لا . . « سأقرص لك أذنها » حتى تكف عن كسلها .

ونظر إلىّ .. ووجد أن خير طريقة ينهى بها ذلك الصخب ، ويصرف الفتية إلى حال سبيلهم ، هو أن ننصرف نحن .. فقال لى فى عجلة :

ـ هيا يا عايدة .. فإنى متعجل .. إنى أريد أن أتناول الغداء سريعاً لأنى على موعد .

وأجبته مطيعة أوامره :

ـ حالا .

وبدأت أجمع الوسائد من فوق الأرائك الخشبية المثبتة فى « الكابين » .. وأدخلت المقاعد .. ولم ير « توتو » بداً من أن يغلق الجراموفون ويحمله متهيئاً للانصراف .. وسأله أبى لمجرد الحديث :

ـ كيف حال « دولة الباشا » ؟

ـ متوعك قليلا .

ـ كيف ذلك ؟ ! لا بأس عليه .. سأزوره اليــوم لأطمئن عليه .

وأغلقت باب « الكابين » وانصرف الفتية مودعين .. وسرت وأبى وأحمد متجهين إلى العربة .. وكان أحمد طول الوقت صامتاً لا يتكلم ، وتمنيت لو استطعت أن أعجل بالشرح له ، فقد كرهت أن أسبب له حزناً لا أساس له ، ولكنى

قلت لنفسى .. إن علىّ أن أنتظر حتى نصل إلى البيت .. فلاشك أنه ستتاح لنا خلوة طويلة .. فأخى قد رحل إلى مصر، وجدتى راقدة.. وأبى إما أن يخرج أو ينام.

ودخل أبى العربة، ودخلت وراءه وأفسحت مكاناً لأحمد حتى يجلس بجوارى.. متوقعة أنه لا بد أن يحضر للغداء معنا، ولكنى وجدته يرفع يده بالتحية مودعاً.

وأحسست بقلبى يغوص بين جنبى، ولم يعد لى من أمل سوى أن يتحدث أبى فيجبره على المجىء معنا، وفعلا تكلم أبى قائلا:

— إلى أين يا أحمد؟! ألا تأتى لتناول الغداء معنا؟

وتمنيت أن يعقل وأن يتروى ولا يمعن فى غضبه.. وأن يتيح لى فرصة الدفاع، ولكنى رأيت وجهه تكسوه ابتسامة مصطنعة وقال لأبى:

— أنا متأسف يا عمى.. إنى على موعد مع صديق قد دعانى لتناول الغداء.

وتمنيت لو استطعت أن أصيح به متوسلة.. اركب يا أحمد.. أرجوك.. سأشرح لك كل شىء.. إنى مظلومة. ولكنى لم أجرؤ.. واكتفيت بنظرات متوسلة صامتة

أصوّبها إليه ، ولكنه لم يحاول أن ينظر إلىّ . . .

وتملكني اليأس . . لا سيما وأني لم أتوقع من أبي أن يلح في دعوته . . فقد كان قوله مجرد تأدية واجب . . أو كانت دعوته « عزومة مراكبيه » .

ولكنه مع ذلك كذب ظني وعاد يقول لأحمد :

ـــ ألا تستطيع أن تعتذر له بالتليفون ؟

وبدا لي القول كأنه آخر خيط أتعلق به قبل أن أهوى . . وتطلعت إلى أحمد متوسلة .

ولكنه أجاب ببساطة قتلتني :

ـــ متأسف جداً يا عمى . . ليس لديه تليفون .

وكنت واثقة أن أحداً لم يدعه إلى الغداء . . وأنه قد حضر خصيصاً لرؤيتي ، وكنت واثقة كذلك أنه لا يقل عني لهفة على اللقاء ، وأنه قد لقى الأمرين في سبيل الحصول على أجازة للحضور إلىّ .

وكرهت أن يخذل كلانا . . بلا أى سبب ، وأن يعود يائساً محزوناً . . ويتركني شقية ملتاعة . . وأن تفلت من أيدينا فرصة ذهبية كنا نوشك أن نتمتع بها سوياً بين البحر والرمال .

وجاء قول أبي كأنه حكم علىّ بالإعدام .

ـ السلام عليكم . . دعنا نراك يا أحمد .

وتحركت العربة . . وحاولت جهدى أن أقاوم نوبة من البكاء كادت تعصف بى . . واختنق شبح أحمد . . ورأيت الكبائن والناس والبحر . . وسور الكورنيش ، تتواتر أمام عينى فى سرعة زائدة ، وقد ظللتها طبقة من دمع ترقرق فى عينى .

لقد كنت فى هذه الآونة أشبه بمحموم اعترته رجفة ورعدة . . وكنت أستطيع أن أخمن ماذا ظن أحمد بى . . إذ أبصرت على سيماه كبريائه القديمة وصلفه وتحديه .

ليته يكف عن كبريائه قليلا !

ليته تروى واقتصد فى غضبه ! ! ليته ترك لى فرصة التفاهم ! !

إنه معذور . . فما من شك فى أن ذلك المنظر الذى رآه فى « الكابين » يثير أهدأ الناس أعصاباً .

ولكن ما ذنبى ؟ ! وما ذنبه أيضاً ؟ !

لقد تملكنى وقتذاك حزن مزدوج ولوعة مضاعفة . . لوعة من أجل نفسى لحرمانى منه .. ولوعة أشد من أجله هو . فإن حزنه لا شك حزن شديد . . حزن يساوى حزنى عندما أخبرنى أخى أنه شاهده فى السينما مع « ابتسام » .

وكرهت ان أجد نفسي عاجزة حيرى . . وألا أستطيع أن أعيده إليّ وأبدد أحزانه وأفهمه خطأ ظنه . . ولكنى لم أكن أملك إلا الصمت والسكون . . وإلا أن أتركه يذهب بلوعته ويغرقنى فى أشجانى .

إن شر مافى الحب أن المحب يخلق لنفسه أحزاناً لأشياء لا وجود لها .





عبير

٨

وصلنا إلى البيت . . وجلسنا حول المائدة وأنا شاردة الذهن . . أتناول الطعام بطريقة آلية دون أن أتذوق له طعما .

وبدا لى أن أبى لم يكن أقل منى شروداً . . ولم أشك أن هناك ما يشغل ذهنه . . وانتهينا من الطعام . . ونهض كلانا فى صمت . . وذهب إلى غرفته . . وذهبت إلى غرفتى . . وارتميت على الفراش فى ضيق ويأس . . وأخذت أستعرض فى ذهنى كل ما حدث ، وأحسست بكره شديد لذلك الرقيع المخنث . . الذى سبب لى كل هذا الحزن . . ورأيت أن خير ما أفعله هو أن أكتب لأحمد خطاباً أوضح فيه الأمر .

ونهضت من الفراش ، وخرجت من حجرتى أبحث عن ورقة وقلم . . ونزعت ورقة من كراسة لأبى تعوّد أن يكتب فيها بعض الحسابات ، وعثرت على قلم ملقى فى أحد الأدراج وعدت بهما إلى حجرتى كأنى عثرت على صيد ثمين .

وجلست لأكتب . . وكانت تلك هى المرة الأولى التى أحاول أن أكتب فيها لأحمد . . أو لغير أحمد . . فما كتبت من قبل سوى بضعة خطابات كانت تطلب منى جدتى أن أكتبها لها لترسلها إلى بعض الأهلين بالبلد .

وأخذت أفكر . . ماذا أكتب له ؟! وكيف أبدأ رسالتي ؟! وشعرت أن المهمة ليست بالهينة . . وأنى لن أستطيع بكتابتي أن أقنعه بنفس السهولة التي أقنعه بها فيما لو كنت أحدثه وجهاً لوجه .

ولم أدر ماذا أقول له : « عزيزى أحمد » . . لا تعبر عن حقيقة موقعه من نفسي . . « حبيبي أحمد » . . ثقيلة على النفس وركيكة في الكتابة .

وأخذت أكتب وأشطب . . فكلما كتبت شيئاً وجدت به ركاكة وضعفاً . . وخيل إلىّ أنه قد يزيد من غضبه .

آه . . لو انتظر .

آه لو أتاح لى الفرصة . . لكى أحدثه وأشرح له .

بل ما أظنني كنت في حاجة إلى الشرح والحديث . . فقد كان يكفى أن تتشابك أصابعنا ، وتلتقى أكفنا ، وينظر كل منا فى وجه الآخر . . حتى ننسى كل ما أحزننا ، ويغفر كل منا للآخر كل ما أثار وساوسه . . فقد كانت أعيننا أنطق بالحب وأشرح للاخلاص من أفصح لسان .

ومللت أخيراً من الكتابة والشطب ، ومزقت الورقة ، وعدت إلى فراشي متعبة مكدودة . . يجب علىّ أن أنتظر شهراً آخر حتى نعود إلى القاهرة . . فنلتقى وأشرح له .

أجل . . إن كبرياءه لن تسمح له بالحضور مرة أخرى إلى الإسكندرية . . بل لشدما أخشى أن تمنعه أيضاً من الحضور إلى دارنا بالقاهرة .

ولكن لا . . إنى لن أخشى ذلك . . لأنى أستطيع أن أحدثه بالتليفون . . فلقد سبق أن أعطانى الرقم وسألنى أن أحدثه فيه إذا احتجت إليه .

وأخذت أتقلب فى قلق . . ولكنى أحسست أن باب الغرفة يفتح . . ورأيت أبى ينادينى :

— عايده .

ونهضت من الفراش . . وتوقعت أنه سيسألنى عن شىء خاص به : علبة دواء . . أو زجاجة اسبيرين . . أو أى شىء مما تعوّد أن يسألنى عنه .

وأجبته :

— نعم .

— تعالى .

وخرجت إلى الصالة . . ووجدته قد ارتدى ملابسه وبدا عليه أنه يهم بالخروج ، وقال :

— سأضطر أن أعود إلى القاهرة غداً .. فإن لدىّ بعض الأعمال التى تستدعى وجودى فى القاهرة .

ولم يكن هناك أسهل عليّ من أخمن ما يجول بخاطره فقد كنت أدرى الناس به . . وكنت دائماً أعرف ما ورا حديثه .

وأدركت ببساطة . . مدى التأثير الذى أحدثه فى نفسه « توتوبك » ورقصه ومجونه . . وعلمت أن ما كان يشغل ذهنه أثناء تناول الطعام هى هذه المسألة دون غيرها . . وأنه بات يحس من الفتى الرقيع بخطر يحيق بى ... من العسير صده أو الخلاص منه . . وأن التفكير قد انتهى به إلى أن خير طريقة للخلاص هى العودة إلى القاهرة .

وعاد أبى يقول :

— لست أدرى ما إذا كنت تودين البقاء . . أم تفضلين العودة معى ؟ ! أنت . . وما تشائين .

وكنت أعلم أيضاً ما وراء قوله . . فما كان لى قط أن أختار ما أريد . . أو أفعل ما أشاء . . . بل كان عليّ أن أفهم قوله جيداً . . ثم أختار بعد ذلك ما يريد هو وما يشاء .

هل يعقل أن يتركنى وحيدة فى الأسكندرية . . لو أننى قد شئت ؟ . ولكنى مع ذلك لن أشاء . . فما أظن رغباتنا توافقت فى أية لحظة كما توافقت الآن .

إنه يريد أن أعود إلى القاهرة ، وأنا أشد منه لهفة على

العودة . لقد كنت أشعر أن معجزة قد حدثت وأن عودتى إلى القاهرة نجدة من السماء .

لقد اتفقنا فى الرغبة ، واختلفنا فى المقصد . هو يريد منى العودة فراراً من « ابن صاحب الدولة » ، وأنا أريدها فراراً من الفرقة والبعد والأحزان .

وتبددت من نفسى اللوعة وتطاير الشجن ، وأحسست بالسعادة تفعم نفسى ، وأنا أفكر فى القاهرة وأستعرض فى ذهنى جلستنا فى الشرفة ، ومسيرنا فى الطريق ، ونجوانا على حافة الساقية ، ووجدتنى أقول له :

— أفضل السفر معك طبعاً .

ولم يكن ردى أى نفاق .

وقضيت ليلتى هانئة ، فرحة مستبشرة ، وفى اليوم التالى حزمنا حقائبنا وعدنا جميعاً إلى القاهرة مبكرين شهراً عما كان ينتظر أن نمكث فى الاسكندرية ، فقد كنا فى منتصف أغسطس ، وكنا قد تعوّدنا مغادرة الاسكندرية فى منتصف سبتمبر .

وصلنا إلى القاهرة ، ولم يكن هناك فرصة للحديث يوم الوصول إذ لم يكن قد استقر بنا المقام بعد ، وكان البيت مازال فى حالة اضطراب .

وفى اليوم التـالى استيقظت وبى إحساس المقدم على أمر خطير . . كنت أندفع إليه دون وعى . . فلقد صممت على أن أحدثه فى التليفون ، وكان بى شعور المغامرة ، فما تجرأت من قبل على أن أطلبه .

وانتظرت حتى انصرف أبى وأخى ، وانهمك الخـدم فى أعمالهم ، وكانت الساعة قد بلغت العـــاشرة . فحملت جهاز التليفون إلى الطابق السفلى بعيداً عن مسمع جدتى . ثم بدأت أدير أرقام القرص .

ووضعت السماعة على أذنى وأصغيت ، فحملت إلىّ أزيز شغل الخط . . فأعدتها إلى مكانها .

وبدا لى أن التليفون قد ركب رأسه وأصرّ على أن يمعن فى مضايقتى وإثارتى . . فلقـد طلبت الرقم على ما يقرب من عشر مرات وأنا أجده مشغولا .

وكنت أخشى أن تضيع الفرصة السانحة ، فرصـة خلو البيت ، وكنت أحس بارتباك شديد وغيظ أشد .

وأخيراً .. وأخيراً جداً ، سمعت الجرس يدق فى السماعة وسمعت صوتاً يجيبنى :

ــ ألو .

ــ السوارى ؟

ــ أفندم .

ــ أستطيع أن أكلم أحمد افندى عبد السلام .

ــ أيهما ؟

ولم يكن لدىّ أية فكرة أن هناك « أحمد عبد السلام » سواه .. وأصابنى الارتباك ولكنى استدركت قائلة :

ــ أريد الملازم ثانى أحمد افندى عبد السلام .

ــ انتظرى على السماعة حتى نبحث عنه .

وانتظرت طويلا ؟! .. ربع ساعة دون أن يجيبنى أحد .. ووضعت السماعة . . وتذرعت بالصبر . . وعدت أطلب الرقم مرة أخرى . . وحمدت الله . . أنى لم أجد « السكة مشغولة » .

وتكررت نفس المحادثة الأولى ، ولم أجد بدآ من الرجاء قائلة :

ــ أرجوك لا تتركنى أنتظر على السماعة . إنى أريده فى أمر هام .

ــ سنرسل فى طلبه من الإسطبل حالا .

وبعد برهة أجابنى نفس الصوت .

ــ غير موجود يافندم .

ـ أرجوك بمجرد حضوره .. أن تخبره أن «بيت خالته» يريده فى مسألة ضرورية .

ووضعت السماعة فى يأس وضيق ، ولم تمض دقيقة واحدة بل ما كدت أدير ظهرى حتى دق التليفون ، ورفعت السماعة ، فإذا بى أسمع صوته .. صوته هو الذى لا أميز من الأصوات سواه .

وقال فى لهجة لاتخلو من الجفاف والحدة :

ـ ألو . . أنا أحمد .

ولم أشك فى أنه قد ميز صوتى ، ولكننى مع ذلك قلت له بصوت أشبه بالهمس :

ـ أنا عايده يا أحمد .

واستمر فى حديثه قائلا باقتضاب :

ـ نعم ؟

ولم أغضب لجفافه فى الرد . . لأنى لم أكن أتوقع سوى ذلك . . ولأنى كذلك كنت واثقة أن جفافه مصطنع . . وأنه لاشك كلفه جهداً كبيراً . . وأن وراء بروده الكثير من الدهش والكثير من الغبطة لحضورى المفاجىء ، ولحديثى معه أو هذا على الأقل ما حاولت أن أقنع به نفسى ، لكى أتقبل لهجته الجافة .

وأجبت فى لهجة رجاء :

ــ أريد أن أحدثك .

ــ فيمَ ؟

ــ فيما حدث فى « الكابين » .

ــ هذا الأمر لا يعنينى .

ــ لا تكن عنيداً .. دعنى أشرح لك أولا .. ثم اغضب كما تشاء .

ــ من قال لك .. إننى غاضب ؟

ــ لأنك لم تذهب معنا إلى البيت .

ــ لقد قلت إنى على موعد للغداء .

ــ إذاً لماذا حضرت ؟! أحضرت لكى تمكث بضع دقائق ؟

ــ لقد كنت ماراً بالمصادفة .

ــ أحمد .. أرجوك .. لا تمعن فى السخافة .. كفى مافعلت فى الأسكندرية .

ــ ما فعلت أنا ؟ .. أنا الذى فعلت ؟

ــ أجل . . أنت الذى فعلت . . لم يكن هنـــاك قط ما يستدعى غضبك .

ــ أنا لست غاضباً .

— إن فى صوتك ماينم عن غضبك .

وهنا سمعت صوت « جدتى » تنـادى من الطابق الأعلى فأجبتها بأنى قادمة . ثم قلت لأحمد :

— أرجوك أن تحضر .. ليس لدىّ وقت للشرح فى التليفون .. إنى سأنتظرك .

ولم يجب علىّ .. فعدت أسأل :

— هل ستحضر ؟

— سأحاول .

ووضعت السماعة مكانها ، وصعدت إلى جدتى .

ولست أذكر فيما كانت تريدنى جدتى . . أو لعلها طلبت منى قضاء حاجة من حاجاتها التافهة التى لاتفرغ .

وكان رده سأحاول .. رداً غير قاطع . . فقد يحضر وقد لايحضر .. بل أغلب الظن أنه ربما ركب رأسه واتبع كبرياءه واستمر فى الهجر .

وانتابنى خليط من القلق والضيق ، والأمل واللهفـة . . وخطر لى أن أطلبـه مرة أخرى . . وهبطت فعـلا إلى الدور الأسفل .. وأنا أشاور نفسى : أخاطبه أم لا أخاطبه !

لو خاطبته فقد يزداد عناداً وإصراراً .. ولو لم أخاطبه فقد يمعن فى غضبه .

ثم ماذا أفعل سوى ذلك ! ! وهل من سبيل لإحضاره غير مخاطبتي إياه ، ودعوته للحضور ؟

ودق جرس الباب ، وذهبت بنفسي لأرى من الطارق فوجدته أمامي .

أجل . وجدته هو . . الذى ادعى البرود وتصنع الغضب . . لقد حضر إلىّ بعد بضع دقائق . . كأنما قد هبط من السماء بالبراشوت .

وكان يبدو أغبر مشعثاً ، يرتدى الحذاء الطويل ، وعليه بنطلون وقميص ، ولمحت عربة صغيرة تقف بباب الحديقة . . أغلب ظنى أنه قد استعارها من أحد زملائه للحضور بها .

ونظرت إلى وجهه ، فوجدت عليه مسحة غضب مصطنع ، ورغم أنى قد فتحت له الباب ، إلا أنه استمر يقف خارجه ، وقال لى بلهجة حادة :

ـ ماذا تريدين ؟

ـ ادخل .

ـ ليس لدىّ وقت .

ـ لا تكن طفلا . . كف عن هذا العناد . . ادخل وإلا أغلقت الباب .

ودخل يضرب الأرض بحديد كعب حذائه الضخم . .

ثم وقف فى الصالة واضعاً يديه فى خصره وقال متحدياً :

— نعم

وابتسمت . . ثم شددته من يده واتجهنا إلى الشرفة وجلست قبالته .

والتقت عينانا ونحن صامتان فترة ليست بالقصيرة . . وأحسست بالهموم كلها تذوب بين عينينا . . وأخذت سحابة الغضب تنقشع عن وجهه رويداً رويداً . . ثم سمعت صوته يهمس فى حنان :

— لِمَ فعلت هذا ؟! لِمَ سمحت لنفسك بالبقاء وسط هؤلاء الرقعاء ، ووسط الموسيقى الماجنة ، والرقص الخليع ؟! إنى أربأ بعينيك أن تنظر إليهم .

— كنت مكرهة . . فلقد هجم هو ورفاقه على « الكابين » واحتلوها احتلالا خاطفاً . . فلم أستطع أن أطرده ، فهو ابن « زكى باشا » صديق أبى ، ورئيس الوزراء السابق . . ولم يكن فى وسعى سوى أن أغادر الكابين . . وهممت فعلا بأن أغادره فى اللحظة التى حضرت فيها أنت . . لقد حدثت المسألة كلها فى بضع دقائق . . كنت خلالها أشبه بالمذهولة .

— وما مدى علاقتك بابن زكى باشا هذا ؟

— تقصد « تو تو » ؟

ـ اسمه « توتو » أليس له اسم غير هذا ؟

ـ له اسم شر من هذا . . « تهاني » .

ـ ماشاءالله ، وما الذى جعله يحدثك هكذا بلا كلفة ؟

ـ اسمع يا أحمد . لا تضيع وقتنا عبثاً . إنى أسمح لك بالغيرة ، فكل محب لا بد له أن يغار ، ولكننى لن أسمح لك قط أن تغار من مثل هذا الإنســـان التافه . إنى أربأ بك أن تقارن به نفسك ، وأربأ بنفسى . . أن تغار علىّ منه . . إنى لا أكن لأمثاله غير شعور واحـــد . . هو الاحتقار . . هل فهمت ؟

ولم يتكلم . . بل رفع يدى إلى فمه ومسها بشفتيه فى رفق واستمر ملصقها بهما ، وساد الصمت حتى بت أسمع صوت أنفاسه تتلاحق وأحس بدفئها .

وضغطت على يده ، ووجدتنى بلا تفكير أجذب يده إلى فمى . . يده هو إلى فمى أنا . . ووضعت يدى فى راحته وأخذت أحركها ببطء . . مقبلة كفه قبـــلات صامتة . وسمعته يهمس :

ـ إنى آسف ! .

ـ أنا الآسفة ! .

ــ على أية حال، لقد أخذت ما أستحق من عقاب . . لقد مضى علىّ يومان منذ أن لقيتك فى الإسكندرية وأنا أشبه بمحموم صرعته حمى الغضب واليأس .

ــ يجب ألا يغضب أحدنا من الآخر . . يجب أن نثق بأنفسنا إلى أبعد حدود الثقة ، فحرام أن نضيع العمر القصير فى أحزان مختلفة .

ــ ما ظننت قط أنك تؤثرين فى نفسى بهذا القدر . . وما ظننت أن لك فى قلبى مثل هذا المقام . . لقد عدت بعد أن تركتك إلى المحطة . . وأخذت أول قطار عاد بى إلى القاهرة . لم أكن مدعواً على الغداء ــ كما زعمت ــ ولكن الغضب أطاش صوابى . . وصممت على أن أهجرك بعد أن أبصرتك فى هذا الوسط الخليع وبين هؤلاء الرقعاء . . وتركت العربة تذهب بك . . وأنا أتجلد على فراقك وأتصبر . . وكتمت السم فى كبدى . . فأوجعه وأدماه . . وملئت نفسى بالمرارة ، وكرهت الدنيا ومن عليها . . كيف تفعلين بى كل هذا ؟ إذا رضيت عنك رضيت عنى الدنيا . . وإذا غضبت عليك رضيت عليها .

لقد جلست فى القطار وأنا لا أحس بشىء مما حولى . وحاولت جهدى أن أبعد عنى الوسواس ، وأن ألتمس لك

الأعذار . . ولكن شيطان الشك كان يثقل عليّ ويكيل لك التهم ويمحو الأعذار .. ويصوّرك لى وقد انهمكت فى الرقص معهم ، ونسيتنى وتطايرت من رأسك ذكراى ، ونقضت العهود والمواثيق .

لقد كرهت أن أضحى لديك مجرد ذكرى باهتة ، وأن تمحو الفرقة القصيرة أثرى من نفسك وتنسيك نجوانا فى المعبد المقدس .. كنت أشعر أنى أعذب نفسى . . وأحطم قلبى .. ويزداد عذابى عند ما أعود فأقنع نفسى بطهارتك . . وبفرط إيمانك بى وبحبى . . أحس بأنى قد ظلمتك . . وأنى قد تركتك تتعذبين كما أتعذب ، وأنك قد تكونين راقدة فى فراشك تبكين .

كنت أتمنى لو عاد بى القطار لكى أعود إليك وأجثو تحت قدميك وأعتذر عن سوء ظنى ، ولكنى أعود مرة أخرى فأذكر الموسيقى الراقصة وأذكر قول الفتى الماجن : إنك تلميذة مكسالة ، وقول أبيك : إنه سيقرص أذنك .. وعدت إلى القاهرة وأنا أحمل هموم الدنيا وشكوكها .

وذهبت إلى الدار ، وإلى العمل ، وكأنى قد شيعت إلى القبر عزيزاً لدىّ ، وكنت أسير كأنى أحمل على ظهرى مائة عام من العذاب واليأس . . حتى أنبأنى عامل التليفون أن

« بيت خالتي قد طلبني » .. وظننته أخاك في مبدأ الأمر .. إذ لم يخطر ببالي قط أنك قد عدت .. ولكن العامل أنبأني بأن سيدة هي التي تكلمت .

وأدرت القرص بيد مرتجفة . . فإذا بصوتك يجيبني . . وإذا بنشوة تسري في رأسي فتثملني . . كنت أجيبك بغضب وقلبي يتراقص ثملا . . وقلت لك عندما سألتني الحضور أني سأحاوله .. ثم قفزت إلى أقرب عربة ، كما أنا ، تاركا عملي دون أن أستأذن في الخروج .. غير عابىء بشيء ولا مقدر لمسؤولية لقد كنت أتحرّق شوقاً وأذوب وجداً . . كنت أريد أن أراك وأخسر نصف عمري .. أليس ذلك أهون من ألا أراك ويذهب العمر كله سدى ؟



فى انتظار المنى

٩

جلست أنصت إلى أحمد . . وأنا أحس من حديثه بمتعة عجيبة . عوّضنى عن سابق لوعتى خير عوض ، وجعلتنى أستعذب الألم الذى أعقبه ذلك العتاب اللذيذ . فقد كان حديثه يفيض رقة ويسيل عذوبة ، وكنت أحس منه بحرارة الإخلاص ، وفرط الحنين .

وددت لو طالت جلستنا إلى مالا نهاية ، ولكن اللحظات مرت بنا حثيثات عجلى . لقد كانت لحظات عجيبة ركز فيها من المتعة ما لو فرقناه على العمر جميعه لكان العمر كله ممتعاً . تمنيت وقتذاك لو وقف الزمن . . أو لو خرجنا عن نطاقه ففقد سلطانه علينا ، وأصبحنا من الأشياء الخالدة مع الزمن كالجبال والأنهار والكواكب والنجوم ، حتى لاتحين لنا فرقة ولا تحل بنا نهاية .

ولكن الزمن لم يرحمنا . . بل دقت الساعة الواحدة . . لتذكرنا بأننا ما زلنا بشراً ، وأننا لم نصبح بعد كواكب ولا نجوماً ، وأن علىّ أن أتوقع عودة أبى ، وأن عليه أن يعود إلى عمله ، ليعتذر عن غيبته المفاجئة .

لقد هبطت بنا دقة الساعة من سماء الأوهام إلى أرض

الواقع ، ونهضنا وقد صفت قلوبنا وسعدت نفوسنا ، وسألني قبل أن ينصرف :

ــ أليس من الواجب أن أصعد للسلام على « نينه » ؟

وترددت برهة فلقدكنت أفضل أن ينصرف دون أن تعلم جدتي ، ولكنني سمعتها تناديني ، ولم أجد بداً من أن أصعد ويصعد معي .

ولقيته جدتي لقاء حاراً .. جعلني لا أندم على صعوده لتحيتها ، وسألته :

ــ لمَ لم تحضر لزيارتنا في الإسكندرية ؟

ــ لم أستطع الحصول على أجازة طويلة .

ــ الحمد لله . إننا لم نمكث هناك طويلا . . فأنا أكره الإسكندرية .

وخشيت أن يطول الحديث فأومأت لأحمد إيماءة خفيفة برأسي حتى يستأذن في الخروج .

وودعته جدتي قائلة :

ــ لمَ لا تمكث لتتناول الغداء ؟

ــ عندي اليوم « نوبتجية » ولابد أن أعود إلى الثكنات ، لقد مررت بالدار مصادفة فوجدت النوافذ مفتوحة ، وأدركت أنكم لابد قد عدتم فحضرت لأقول لكم « حمدالله على السلامة » .

وبدا لى أن الجدة العزيزة لم تبتلع الكذبة بسهولة ، وإن كانت قد وافقت عليها ، وخيل إلىّ أنها تعلم كل ما بيننا ، وأنها تعرف أنى دعوته بالتليفون . على أية حال إنى لم أعد أخشاها منذ مرضى . . فقد أقلعت عن نصائح أبى تماماً ، وضربت بها عرض الحائط ، وتركت نفسهـا على سجيتها تغمرنى بالحنان والتدليل ، وأضحت بطريقة غير مباشرة عوناً لى على حب « أحمد » ، ولم أشك فى أنها تقر ميلى إليه ، لأنها هى نفسها — كما سبق لى القول — كانت تميل إليه .

وانصرف « أحمد » ، وودعته حتى الباب ، واتفقت معه على موعد اللقاء القادم .

وعدت إلى « جدتى » فجلست معها انتظاراً لأوبة أبى . وكان « أحمد » موضوع حديثنا . قالت جدتى :

— أحمد . ولد طيب ، وهادىء . وابن حلال . ما رأيك فيه ياعايدة؟

ونظرت إليها نظرة فاحصة ، ولم أحاول أن أجيب قبل أن أفهم ما وراء حديثها . ترى هل تستدرجنى الجدة الماكرة؟ وأجبتها بقلة اكتراث متسائلة :

— من حيث ؟

— كل شىء .. ألا يعجبك ؟

ـ لا بأس به .

ـ أنا شخصياً أجده خير من يصلح لك .

ـ لى أنا ؟

ـ أجل !

ـ من أى ناحية ؟

ـ ناحية الزواج .

وأطرقت برأسى . . وتصنعت الاستخفاف . . وإن كان حديثها قد صادف هوى فى نفسى . . وأحسست منه بمتعة كبرى .

وعادت جدتى تسأل :

ـ ألا ترينه زوجاً صالحاً ؟

ـ قد يكون .. ولكن الزواج لا يخطر لى ببال الآن .. إن وقته ما زال بعيداً .

ـ لقد نضجت وأصبحت « ست بيت » . إنى تزوجت وأنا أصغر منك بخمسة أعوام على الأقل .

ـ فى زمنك كان هذا معقولا . أما الآن . . . .

ودق جرس الباب ، وسمعت صوت أبى ، فكففنا عن الحديث ، وهبطت إلى الطابق الأسفل .

* * *

مضت بعد ذلك بضعة أيام قبل أن يحضر « احمد » مرة أخرى . . كان يداعب رأسى خلالها الأمل العذب والفكرة المعسولة . . وكنت أستعيد فى نفسى بين آونة وأخرى قول جدتى : « لقد نضجت وأصبحت . . ست بيت » .

لقد أخذ الحلم البعيد فى التجسد شيئاً فشيئاً ، وخيل إلىّ أن الأمانى التى كانت حلماً من أحلام الدجى . . توشك أن تصبح حقيقة .

أجل . . إننا نستطيع الآن التفكير جدياً فى الزواج . . فكثيراً ما قلت لأحمد عندما كنا نخوض سوياً فى هذا الموضوع إن أمامنا زمناً طويلا . . وكان ردى الدائم هو : « لسه بدرى » .

كنت أظن دائماً أنه ما زال علينا أن ننتظر فهو لم يزل فى رتبة صغيرة ، لا أظن راتبها ـ وهو اثنا عشر جنيهاً ـ يهيء لنا عيشاً طيباً دون أن نلجأ إلى معاونة أحد .

كنت أريد أن نكون فى حياتنا مستقلين ، نكفى أنفسنا دون ما حاجة إلى معونة أبى ، وكان هو مفعما بالأمل واثقاً من سرعة ترقيه ، مطمئناً إلى المستقبل ، يعتقد أن توسع الجيش ، سيضمن له قفزات سريعة إلى الرتب العليا ، وكان يرى أنه لن يلبث طويلا حتى يرقى إلى رتبة « الملازم أول »

و « يوزباشى » وحينئذ يستطيع أن يتقدم لخطبتى .. بعد أن يكون قد ضمن لنفسه مرتباً يجعلنا نعيش فى رغد .

وقلت لنفسى إنه يستطيع التقدم لخطبتى من الآن .. على ألا نتزوج إلا حينما يحين الوقت المناسب .. حتى تتاح لنا فرصة أكبر للقاء .. وحتى أحرر نفسى من سياج الخوف الذى أحيطها به .. وأطلق مشاعرى بلا رهبة ولا خشية .. كنت أريد أن يصبح لكل منا بالآخر صلة واضحة .. تمكننا من التمتع بحبنا .. ولا تجعلنا نتستر عليه أو نكتمه كأنه منكر أو جريمة .

وصممت على أن أعرض عليه الأمر ، وأذكر له حديث جدتى فى أول لقاء .

وفى ذات غروب .. هبطت إلى الحديقة .. أستريض فيها وأتسلى بقطف بعض الزهور لتنسيقها فى الزهريات .. وكانت الأحواض كلها خالية استعداداً لموسم الشتاء .. إلا حوضاً كبيراً فى ركن الحديقة .. قد حشد بالداليه العالية الجزوع الكبيرة الأزهار .. وخضت فى الحوض .. لكى أنتق بعض أنواع ياقوتية اللون رائعة المنظر .. ويبدو أن الحوض كان حديث العهد بالسقيا فقد وجدت قدمى تغوص فى الطين فجأة .. وعند ما حاولت إخراجها خرجت عارية مجردة

وبقي الحذاء مدفوناً في الطين . . ووقفت على ساق واحدة ـ الساق التي ما زالت مغروسة بحذائها في الطين ـ رافعة الساق العارية . كأني « أبو قردان » . . ثم انحنيت بحذر لكي أنزع « فردة الحذاء » المغروسة . . وكدت ألمسها عند ما أحسست بتوازني يختل فلم أجد بداً من أن أستند بيدي على الأرض حتى أحفظ توازني وغاصت يداي في الطين واضطررت أن أهبط بقدمي العارية إلى الأرض حتى أستطيع تخليص يدي . وفجأة أحسست بفراشة تهبط على وجهي فأسرعت بإزاحتها بإحدى يديّ الملوثة فتناثر الطين على وجهي .

فلم أر بداً من ترك الحذاء ، والعودة إلى البيت لغسل قدمي ويدي ووجهي . . واستدرت لأعود ، فوجدت « أحمد » قد وقف يرقبني ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مريضة . وقال ضاحكا :

ـ ما شاء الله . . منتهى النظافة والأناقة . أجمل بأمهات المستقبل ! !

وتقدمت منه رافعة يدي في وجهه وقلت مهددة :

ـ تنح . . وإلا اضطررت إلى احتضانك وتقبيلك !

ـ يا ريت !

ـ ألا تخشى الطين ؟

ـ أبداً . . « بطينه ولا غسيل البرك » .

وأمعنت فى الاقتراب منه وأنا مادة يدى قائلة :

ـ ها . ابتعد خير لك . . وإلا لوّثت بدلتك !

ـ أتجسرين ؟ . . ألا تعلمين أن من يقطع زرار جندياً يحبس ستة أشهر . . فما بالك بضابط . . وأى ضابط . . ضابط قديم محترم . . برتبة « ملازم أول » .

وظننته يمزح . . ولم أكن قد حاولت النظر إلى كتفيه ، ولكنى رفعت بصرى إليهما . . فإذا بى أرى نجمة جديدة .

وصحت فى فرح شديد :

ـ ما هذه ؟

ـ « نجوم الضهر » !

ـ لِمَ لم تخبرنى من قبل ؟

ـ لأفاجئك بها . . لقد ظللت أؤجل زيارتى من يوم لآخر حتى لا ترينى بغير الرتبة الجديدة .

وقلت مهنئة من أعماق قلبى :

ـ مبروك . . يا أحمد .

ـ مبروك علىّ . . والا عليك ؟

ـ علينا سوياً !

وتذكرت ما صممت عليه من قبل ، وهو أن أطلب منه

التقدم إلى أبى لخطبتى ، ورأيت الظروف مواتية ، والفرصة سانحة .

ومد « أحمد » يده فأمسك بيدى الملوثة بالطين ، وسحبنى بجواره . . وحاولت التخلص من يده قائلة :

ـ دعنى حتى أزيل هذا الوحل . وأعود إليك حالا !

ـ لا . . لا . . لا داعى لإضاعة الوقت . إن لدىّ أخباراً سارة تستحق منك احتمال الطين حتى تسمعيها .

ورفعت حاجبى وتساءلت :

ـ شيئاً غير الترقية ؟

ـ أجل . . شيئاً أفضل

ومرت بخاطرى فكرة الخطبة . . ولم أشك أنه ينوى أن يفاتحنى فيها .

وجلست بجواره على مقعد الحديقة . . حافية القدمين . . ملوثة اليدين والوجه .. ورفعت وجهى متسائلة :

ـ ماذا عندك ؟

ـ سأنال شيئاً أفضل من الترقية .

وازداد دهشى وعدت أكرر قوله :

ـ شيئاً أفضل من الترقية ؟ . . ما هو ؟

ـ سأنقل إلى الحرس .

ـ حقاً ؟ . . .

ـ أجل . . لقد استدعانى القائد فى مكتبه ، وأنبأنى أنه أبلغ أنى قد انتدبت للخدمة فى الحرس « الملكى » وهنأنى ، وطلب منى أن أقدم نفسى لقائد الحرس غداً .

وشرد ذهنى . . وعادت فكرة الخطبة تلح علىّ . . وأحسست أنى أوشك أن أجن من الفرح .

وعاد هو يقول :

ـ هل تعرفين معنى أن أنقل إلى الحرس ؟

ولكننى هززت رأسى متسألة :

ـ كلا !

وأجاب هو على سؤاله :

ـ معناه أنى أستطيع أن أحقق أحب أمنية إلى نفسى . . أستطيع أن أتقدم لخطبتك بقلب قوى غير هياب ولا وجل ، لقد أصبحت ضابطاً فى الحرس « الملكى » . وسيتضاعف مرتبى ونستطيع به أن ننشىء بيتاً ونحيا حياة هانئة . . ألا تعتقدين أن خمسة وعشرين جنيهاً كفيلة بسد حاجتنا؟

وكانت نفسى تفيض بالحمد والشكر . . كيف لا وقد أكرمنا القدر إلى أبعد حدود الكرم ! لقد حقق آمالى بأسرع مما كنت أتصور .

كنت فى الظهيرة أسمع حديث جدتى عن الزواج فأحس أنه أمنية صعبة المنال وحلم بعيد التحقيق . كنت أحس أنه - كما تعوّدت أن أقول - « لسه بدرى » . . وكنت أمنى نفسى بخطبة عاجلة ، وزواج مؤجل ، وأن ننتظر حتى يرقى إلى رتبة اليوزباشى .

أما الآن وفى غمضة عين ، فقد أضحت مآربنا ملء يدينا ولم يعد الزواج أمراً بعيداً . . أو أمنية صعبة ، ولم يعدْ بنا من حاجة إلى التعلل بالخطبة .

ونظرت إلى يدى وقلت له :

— دقيقة واحدة أغسل فيها يدى وقدمى ، فإنى لا أطيق الجلوس بمثل هذه القذارة !

— دعينى أتولى غسلها عنك . امنحينى هذه المتعة . دعينا نحتفى بترقيتى بغسل يديك على هذا الحوض . سيرى بنا .

وجذبنى من يدى إلى حوض قريب وأجلسنى على حافته وفتح الصنبور ، وبدأ يغسل يدى ، وبلل منديله بالماء وأخذ فى تنظيف وجهى ، ثم مددت ساقى أسفل الصنبور ، واستمر هو يغسل قدمى بأصابعه مزيلا عنها ما علق بها من الطين ، فلما انتهى من غسلها بدأ فى عملية « زغزغة » ، وأنا لا يضحكنى شىء « كزغزغة » باطن قدمى . وانطلقت أضحك وأرفس

بقدمى وأحاول نزعها من يده وأنا جالسة على حافة الحوض .

وفجأة سمعت صوت أبى ، وقد وقف فى نهاية الممر الذى به الحوض ، وقد تجهم وجهه وتساءل فى دهشة :

— ما هذا العبث ؟

ولم أكن أتوقع قط أنى أراه وقتئذ ، فقد كان لا يعود إلى البيت فى مثل هذا الصباح المبكر ، وأحسست من مرآه كأن « دشاً بارداً » قد صب فوق رأسى فى يوم قرّ ، وتملكنى خجل شديد . وارتج علىّ ، فلم أنبس ببنت شفة .

ولم يكن ارتباك « أحمد » ومفاجأته بأقل منى ، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه واستعاد رباطته . ونهض واقفاً وتقدم إلى أبى مصافحاً إياه .

ورد أبى على تحيته فى اقتضاب ، ثم وجه القول إلىّ :

— زكى باشا سيزورنا الآن هو وابنته . . استعدى للقائهما .

ولم يقل أكثر من ذلك ، ثم أدار ظهره ودلف إلى الدار .

ولم يكن المنظر الذى وجدنا فيه أبى بالمنظر الذى يستدعى كل هذا الخجل والارتباك . . فقد كان لا يزيد على أن يكون لهواً بريئاً . ولكنى كنت أعلم أن أبى لا يستسيغ بسهولة مثل هذا اللهو . . وإنى لا شك سألقى من لومه وتقريعه

الشيء الكثير . . وقد تكون نتيجته تضيق الخناق عليّ . . وخاصة من ناحية أحمد .

وأحسست بسحابة غم . . تعتم نفسي . . ولكنها سرعان ما انقشعت عندما تذكرت ترقية أحمد ونقله إلى الحرس . . وإقدامه العاجل على خطبتي .

لو ضبطني أبي قبل اليوم لرأيت في ذلك فاجعة كبرى . . أما اليوم فإن آمالي في المستقبل أضحت كفيلة بأن تجرف في تيارها كل عقبة هم . وكان فرحي طاغياً . . يتضاءل بجواره كل حزن وغم .

ووقفت أمام أحمد بعد أن انصرف أبي إلى داخل الدار وقد أفعمت نفسي بخليط من مشاعر مختلفة . . وأبصرت في وجهه سحابة هم . . لم أشك في أن مبعثها . . هو زيارة زكي باشا التي أنبأني بها أبي .

ومددت يدي أشد بها على يده وأقول له في ثقة وإيمان :

ــ أحمد . . لا تدع هذه الحشائش الطفيلية تفسد علينا زهور حياتنا .. ما دمنا واثقين من أنفسنا . . فدع الرياح تمر من فوق رؤوسنا . . دون أن تقتلع جذور هنائنا .

وسرنا سوياً حتى باب الحديقة وقلت في شبه مجاملة :

ألا تبقى قليلا ؟

ـ لا . . إنى أفضل الانصراف الآن .

ـ ومتى ستعود ؟

ـ سأعود غداً لمقابلته .. أى الأوقات أنسب للحضور

ـ تعال فى الخامسة . . بعد أن يستيقظ من نومه . . وقبل أن يخرج . . أظن هذا هو أنسب وقت .

واتجه أحمد إلى الخارج ودلفت إلى الداخل . . وصعدت إلى حجرتى لأبدل ملابسى ولأستعد للقاء الضيوف .

وساءلت نفسى فى دهش : ماذا حدا بهم إلى هذه الزيارة ؟ بل ما ذا دفعهم إلى الحضور إلى مصر . . مع أنى كنت أتوقع أنهم ما زالوا فى الأسكندرية ؟

وأتممت ارتداء ملابسى . . ورأسى صاخب بشتى الأفكار . . وفى نفسى فرحة ظاهرة . . وخوف خفى . . وأمل واضح . . ويأس مبهم .

وسمعت صوت عربة تقف بالباب . . ودق الجرس ، فهبطت لأستقبل الضيوف .

وفتحت الباب وأضأت الأنوار ، ووقفت وأبى متأهبين للترحيب . . وأقبل « صاحب الدولة » من نسختين . . النسخة الرجالى . . والنسخة البناتى ــ أعنى هو وابنته ــ وحمدت الله على أن « توتو بك » لم يكن معهما .

وجلسنا فى حجرة الاستقبال . . وجرى الحديث بيننا

تافهاً مملا . . وتحدث أبى مع « صاحب الدولة » عن أسعار البورصة ، والقطن ، والحرب القادمة ، وعن موقف تشمبرلين مع هتلر ، وعن نجاحه فى إقرار السلم المؤقت .

وانطلقت « سوسو » تخوض فى سير الناس ، فلم تترك امرأة إلا نهشتها بلسانها . . فأنبأتنى أن ابنة فلان باشا ذهبت إلى النمسا ووقعت فى غرام أحد الموسيقيين ، وأن زوجة الوجيه فلانٌ بك تخونه مع صديقه فلان باشا .

ثم انتقلت من النهش فى أعراض الناس إلى أخبار السباق والجوكية والأزياء . . إلى الفرقة الفرنسية التى ستعمل فى الأوبرا فى العام القادم . . وتساءلت : لِمَ لا تحضر عشرات الفرق الأجنبية حتى ترقى الذوق المصرى وتهذبه ؟

وأحسست من حديثها باشمئزاز شديد ، وقلت لها بهدوء :

ــ إن الذوق المصرى له طابعه .

ــ طابع مشوّه فاسد .

ــ أنت مصرية ؟

فأجابت وكأنها تنفى عن نفسها تهمة :

ــ أنا لست مصرية . . إن جدى لأبى ينحدر من سلالة تركية عريقة الأصل .

ــ ألأجل هذا تكرهين المصريين ؟

ـ أنا لا أكرههم . . ولكنى أرثى لهم .

وتواترت على ذهنى إجابات مختلفة هممت بأن أقذفها بها ولكنى تذكرت أبى وتذكرت أنهم ضيوف عندنا .

وقلت محاولة تغيير مجرى الحديث :

ـ الحرارة شديدة فى هذا الصيف .

ـ وكل صيف .. إن مصر لا تطاق .

وشعرت أنى لا أستطيع تحويلها عن التعريض بمصر ، فقلت متسائلة فى سخرية :

ـ وما الذى يبقيك فى مصر ؟

ـ لولا تلبد الجو السياسى لكنا فى الخارج ككل عام ، ولولا بضعة الأشهر التى نقضيها فى الخارج كل عام . . لما أحسسنا أننا نحيا . . نحن هنا فى بلد الأموات ، بلد المقابر والموميات . . أليست هذه من أكبر مفاخرنا ؟

ولم يمكنى نهوض أبيها واستعداده للخروج من الرد عليها . . وانهمكنا فى التحيات . . وفى الترحيبات ، وخرجنا لوداعهما . . حتى استقلا العربة . . وتحركت بهما . . وهما يشيران لنا بأيديهما .

وحمدت الله على انتهاء الزيارة .. فقد كنت فى أشد الحاجة إلى الهدوء والراحة ، وإلى أن أخلو بنفسى . . فأفكر فى

الأشياء التي حفل بها يومي ، والأحداث الخطيرة التي توشك أن تقع في الغد .

ترى ماذا يكون رد أبي ؟ هل يمكن أن يخيب أملنا ؟ هل يمكن أن يرفض ؟

ولكن .. أي عيب يمكن أن يجده في أحمد ؟! هذا المخلوق النموذجي . هذا الإنسان الكامل ، الجميل الخلق والخلق ، الطيب الظاهر والباطن ، الحلو الحديث ، اللطيف المعشر ، القويم المبادىء ، المستقيم السلوك ، المجد في عمله ، المخلص في كل تصرفاته . إنسان ذو المركز المشرف والمرتب المحترم ، وهو بعد كل هـــذا أقرب الناس إليّ . . فهو ابن خالتي ، وصديق أخي .

لا .. لا .. لا أظن أبي إلا مرحباً به ، مجيباً لطلبه .

إن أبي رجل صارم قاس . . فهو يقسو عليّ حتى يضمن لي حسن المصير وطيب المآل . وأي مصير يمكن أن يكون لي أحسن من زواجي بأحمد ؟! إن صرامته وقسوته في معاملتي وتربيتي . . كان يقصد بهما أن يقيني الفساد ، ولا أظن الزواج منّ الفساد في شيء .

وهكذا استطعت أن أطمئن نفسي وأهدىء قلبي .

وذهبت إلى الفراش ، وأغمضت عيني ، ونمت قريرة .

واستيقظت فى الصباح وقد خطر لى خاطر .

لِمَ لا نحاول أن نستعين بجدتى . . ولِمَ لا أخبر أحمد بما قالته حتى يوسطها لدى أبى .

ومضى النهار وأنا حائرة قلقة ، ولا أكذبكم القول أنى صليت لله لكى يستجيب طلبى . وكنت أنظر إلى الساعة بين آونة وأخرى أستحثها على السير حتى تبلغ الخامسة . وازدردت غدائى دون أن أتذوق له طعما .

وفى الخامسة إلا ربعاً . . دق الجرس ، وهبطت لأفتح بنفسى ، فقد كنت واثقة من أن الطارق هو أحمد .

ولقيته وأنا فى حالة شديدة من الاضطراب والقلق . وقلت له هامسة : اعرض الأمر على جدتى ، ولكنه أجاب :

ــ دعينى أسلك أقصر السبل . لا داعى للف ، ولا للوساطة . سأخاطبه كرجل لرجل . أنا لم أعد بعد صغيراً . ما دمت ترينني أستحقك وأستحق حبك . فإن ذلك يملؤنى ثقة بنفسى واعتداداً بقدرى .

ــ أمرك ياأحمد . ربنا يوفقك . إنى أحس بقلق شديد . لقد صليت لله ألا يخذلنا ، وقرأت الفاتحة مائة مرة .

وضحك أحمد وشدّ على يدى . وهمس :

ــ اطمئنى ياعايده . أين هو ؟

— إنه يرتدى ملابسه وسيهبط حالا . . سأصعد أنا إلى غرفتى حتى أبدو كأنى لا أعرف شيئاً عما أتيت من أجله . . انتظره هنا حتى يهبط .

انتظر أحمد فى الصالة ، وصعدت إلى الطابق الأعلى ، وقلبى يدق بعنف حتى ليكاد يقفز من بين أضلعى .

وسألتنى جدتى :

— من ؟

— أحمد .

— ولمَ تركتيه وحده ؟

— إنه يريد أبى .

— يريد أباك ؟! لماذا ؟

ورفعت كتفى قليلا وأجبت متجاهلة :

— لا أدرى .. لم يقل لى شيئاً .

ولم تنطل تلك الأكذوبة على جدتى . فقد كانت هى نفسها تدرى ، لأنها هزت رأسها وتمتمت فى صوت خافت :

— ربنا يوفقه . . ويجعل لكل منكما نصيباً فى الآخر .

وادعيت أنى لم أسمع ، واتجهت إلى حجرتى ، وخرجت إلى الشرفة ثم عدت إليها ، وارتميت على الفراش ، ثم نهضت بعد لحظة وعدت ثانية إلى الشرفة . . لقـــد كنت على حال

من القلق لا أستطيع معها أن أستقر فى مكان .

وسمعت بعد ذلك وقع أقدام أبى تهبط الدرج إلى الطابق الأسفل ، وزادت دقات قلبى عنفاً . . ثم سمعت صوت أبى يحييه قائلا:

— أهلا .. أحمد .. انت هنا .. كيف الحال ؟

— الحمد لله ياعمى .

— أرى على كتفك نجمتين .. مبروك .. لقد ترقيت بسرعة . منذ متى ترقيت ؟

— الله يبارك فيك .. ترقيت بالأمس فقط .

— عال .. عال .

وسادت فترة صمت قصيرة كنت أحس فيها مدى ارتباك أحمد . . وأدعو الله أن يعينه . وأخيراً سمعته يقول :

— إنى أود أن أحدثك ياعمى فى موضوع خاص .. أتسمح لى ؟

— بالطبع .. إنى على موعد الآن .. ولكنى أستطيع أن أستمع إليك برهة . . تعال .

وسمعت وقع أقدامهما يبتعد ، وبدا لى أنهما قد اتجها إلى حجرة الصالون .

ولم أعد أسمع شيئاً ، وأحسست كأنى أتقلب على جمر

الغضا من فرط القلق والاضطراب وتوتر الأعصاب .

وأخيراً سمعت وقع أقدامهما مرة أخرى يسيران فى الصالة . . ثم يتجهان إلى الباب الخارجى ويهبطان الدرج ، وأسرعت إلى الشرفة فوقفت ببابها ولمحت ظهريهما وهما يتجهان إلى العربة ، ثم ركب أبى بعد أن تصافحا ، ورأيت أحمد يسير فى طريقه والعربة تتحرك فى طريقها .

ترى ماذا حدث ؟ . كيف كانت النتيجة ؟

وظللت أتبع أحمد ببصرى وهو يبتعد .. أحاول أن أقرأ من مشيته ومن هيكله ما أستشف منه دخيلة نفسه . . وأعرف منه مقدار فرحه أو يأسه .

أفى مشيته تثاقل ؟ . وفى خطوته تباطؤ ؟ . . أفى كتفيه تهدل ، وفى ظهره انحناء ؟ أفى رأسه طأطأة . . وفى هامته خفض ؟

ماذا قد حوى هيكله المبتعد : أهناء وأمل ، أم شقاء ويأس ؟

إن مشيته هى هى . . مرفوع الهامة ثابت الخطى .

وهيكله هو هو .. بارز الصدر ، ممشوق القوام .

أيمكن أن تكون هذه المشية المتزنة ، والهيكل الأشم ، لإنسان خائب الأمل ، مهيض الجناح ؟

لا . . لا . إن أبى لاشك قد أجابه إلى مطلبه .. وإن أمنية العمر لابد أن تكون قد تحققت .

ولكن لم لم يصعد إلى لينبئنى ويحتضننى ويزف إلى البشرى ؟

لعله قد خجل من أبى . . أو قد فضل أن يجعل تصرفه رسمياً ، وأن ينتظر حتى ينبئنى أبى .

يالى من حمقاء . . لقد جرى العرف فى هذه الأمور بأن يوافق الأب مبدئياً . . على أن يؤجل البت حتى يأخذ رأى الإبنة .

أجل . . إن أبى لابد سيعرض على الموضوع ويأخذ رأيى فيه .

حقيقة إنى أعرف أنى لا رأى لى عنده ، ولكنى أظن أنه سيأخذ رأيى من باب الشكليات ، وإن كان سيقرر أولا مصيرى فيما بينه وبين نفسه . . ثم يتركنى أختار كعادته دائماً على أن أختار . . ما يريد هو ، وإلا أرغمنى عليه . . هذا هو ما تعود أن يفعله فى كل شىء ، فمن الأولى أن يفعله فى مسألة خطيرة كهذه .

إنه سيعود ليلا كعادته ، ثم يتناول العشاء ويقول لى إنه يود أن يحدثنى فى أمر هام ثم يبدأ بالمقدمات الطبيعية وهى

انی قد نموت ونضجت ، وأنه يود أن يفرح بی ويطمئن علیّ وأن سعادة الفتاة تتوقف على أن تجد الزوج الملائم .

تلك هي المقدمة التي لابد أنه قائلها .

وأخذت أصوّر لنفسي بعد ذلك . . كل ما سيقوله كلمة كلمة . . وحرفاً حرفاً . . وكل ما سيسألني عنه . . وأجيبه به .

ثم يعرج بعد ذاك إلى الموضوع مباشرة فيخبرني أن « أحمد » قد طلب منه يدى ، وهو يرى فى أحمد خير إنسان يصلح لى ، ويحدثنى عن رأيه فى خلقه ، وينبئنى أنه قد عين ضابطاً بالحرس ، وينتهى إلى النتيجة بأنه شخصياً موافق على قبوله ، ولكن يترك لى حق الاختيار .

وأطأطىء أنا الرأس خجلا ، وأرتبك وأتلعثم . . ثم أقول له كما تعودت أن أقول دائماً :

— أمرك يا أبى .

وسيجيبنى كعادته :

— على خيرة الله .

ثم ينهض ويقبّل جبينى .

واعجباً ! أية فنانة ماهرة كنت إذ ذاك وأنا أجلس على فراشى ، وأصوّر لنفسى كل تلك التفاصيل والدقائق وأرسمها

حسبما أشتهى فأنال بها أمنيتى وأنتهى منها إلى أنى قد أصبحت فعلا خطيبة أحمد .

وأفقت من أوهامى راضية . . مغتبطة . . تماماً كأن ما صوّرته قد حدث .

ولكنى عدت أسائل نفسى :

— لِمَ لم يحاول أحمد العودة لإخبارى ؟ يا له من أنانى ، يأبى إلا أن يخص نفسه بالغبطة .

ألم يكن من الواجب عليه . . على الأقل . . أن يحدثنى بالتليفون ليطمئن قلبى ؟

من يدرى ربما سيتحدث بين آونة وأخرى .

ولبثت أرقب التليفون ، وأعدو إليه كلما دق ، ويبدو أنى لم أستطع أن أخفى قلقى واضطرابى . . فقد سمعت جدتى تنادينى ، ثم تأمرنى بالجلوس إلى جوارها وتضمنى إليها ، وتتحسس رأسى بحنان ثم تقول لى :

— يا بنيتى .. لا تأمنى إلى القدر . . كونى قوية وشجاعة ، عوّدى نفسك الرضا بالواقع واقبلى ماتعطين ، لا تكثرى من الآمال ، فوظيفة القدر هى أن يخيب آمالنا .. حاولى ألا تعطيه الفرصة للشماتة .. لا تطلبى شيئاً ، بل انتظرى حتى يعطيك هو وابتسمى شاكرة حتى تخيبى أمله بدل أن يخيب هو أملك .



قید ثقیل

۱۰

لم أفهم الكثير من حديث جدتى المتشائم وتحذيرها من القدر الشامت والآمال الخائبة ، فما كان لدى أقل استعداد لقبولها . . أو التفكير فيها .

كيف تنصحنى الآن . . وآمالى توشك أن تتحقق ؟!

ساعة ، أو جزءاً من ساعة ، ويأتى أبى فيقطع الشك باليقين ، ويجعل من الأحلام حقائق واقعة ، ومن الآمال وقائع ملموسة محسوسة .

بل ما أظن بى من حاجة إلى الانتظار ، فقد سمعت فى تلك اللحظة صوت بوق عربتنا يدوى من بعيد ، وكانت نفسى متحفزة لالتقاطه ، وكنت مرهفة السمع متوثبة الأعصاب .

وأغلق باب العربة ، ثم دق جرس الباب ، وجلست فى مكانى لحظة . . خافقة القلب ، واجفة الفؤاد ، ثم سمعت وقع أقدام أبى يصعد فى الدرج ، وأقبل علينا على غير عادته ، وبه خفة غير خافية ، وقد علت وجهه بشاشة لم نتعهدها فيه .

وكان يحمل فى يده صندوقاً من « الشيكولاتة » وضعه على المنضدة ، وأخذ يسأل جدتى عن « أسنانها » وعن صحتها ، وانتظرت أن يطلب تجهيز العشاء ولكنه لم يذكره ، بل استمر يخوض فى أحاديث عابرة تافهة جعلتنى أوجس خيفة وقلت له:

— أ آمر بتجهيز العشاء ؟

لقد كنت أبغي أن يســير الأمر حسب ما تخيلت . . وأن يتم عشاءه ، ثم يحدثني في الأمر الهام

ولكنه هز رأسه وأجاب :

— ليس الآن .

وتمنيت لو استطعت أن أخترق حجاب رأسه أو لو كانت لدىّ الجرأة الكامنة لأسأله صراحة . . ماذا قلت لأحمد ؟

ومضت فترة خلتها دهراً . . وهو يتحدث عن مسائل غاية في التفاهة ، أو هكذا بدت لي بالنسبة لمــا كان يشغل رأسي ، حتى بلغ بي اليأس منتهاه ، واعتقدت والأسى يملأ نفسي بأنه لابد قد رد أحمد خائباً ، وأنه لاينوى أن يذكر شيئاً عن الموضوع .

وهممت بمغادرة الحجرة . . عنـدما رأيته يرفع إلي رأسه ويقول :

— عايده . . لي عندك بعض الحديث .

وأصابتني رجفة هزتني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي . . وتوقفت في مكاني والتفت إليـه وأنا لا أكاد أتمالك وقلت :

— نعم . . .

— اجلسي . . .

وجلست على مقعد أمامه ، وقد اضطجعت جدتى على أريكة طويلة ، وجلس هو على حافة مقعد وقد استند بمرفقه على ركبته ، وبذقنه على راحة كفه .

وبدأ قوله فى صوت هادىء ولهجة مرتبة :

— لقد أصبحت الآن فتاة كاملة ، وقد أثمرت فيك تربيتى . . حتى بت أشعر بالاعتزاز بك .

وأخيراً . . تحدث .

أخيراً . . بدأ مقدمته ، تماماً كما توقعت ، نفس الكلام الذى صغته لنفسى .

وكما تصوّرت أيضاً . . أطرقت برأسى فى خجل شديد وأحسست بلسانى يعقد . . فلم أنبس ببنت شفة .

ولم أع من مقدمته شيئاً كثيراً . . فقد كنت أتعجل النهاية ، وأستبق بفكرى ألفاظه ، وتمنيت لو يوفر على نفسه مشقة المقدمة ، ما دمت أنا نفسى أحفظها عن ظهر قلب .

النهاية . . لقد اجتزناها بسلام . . وسمعته يقول أخيراً :

— ولقد كنت دائماً أتوقع لك وأنت خير الفتيات . . زوجاً ملائماً يضمن لك أحسن العيش ويجعلك سيدة الناس .

وصمت برهة اضطجع خلالها بظهره على ظهر المقعد وغير من جلسته فوضع ساقاً على ساق . . وأتم حديثه قائلا :

ـــ ولقد وفقنى الله إلى إنسان لا أعتقد أننا يمكن أن نطمع فى خير منه .

وقلت لنفسى :

ـــ أجل . . ليس هناك فى الدنيا خيراً منه .

واستمر هو يقول :

ـــ وأنا نفسى موافق عليه . ولكنى رأيت قبل أن أعطى كلمة حازمة أن أستشيرك فى الأمر ، وأعرضه عليك حتى أضمن أنك قريرة راضية .

وكدت أقول له إنى راضية كل الرضا ، بل إنه لا يرضينى فى الحياة سواه .

ولكن الحياء ورهبة الموقف عقدا لسانى ، فاستمررت مطرقة الرأس ، مطبقة الشفتين ، منتظرة حتى يكمل حديثه أو يشرح لى ماحدث بينهما .

وبدأ شرحه قائلا :

ـــ لقد حدثنى اليوم زكى باشا فى التليفون وأنبأنى أنه سيحضر لزيارتى فى المكتب بعد الظهر ، لأمر خاص ، ولم يغب عن ذهنى ما يعنيه بذلك الأمر الخاص ، فقد لمح لى به مرة من قبل .

ورفعت عينى أحدق فيه فى ذهول شديد .

زكى باشا !! ما دخله فى الأمر .. وما الذى أقحمه فى الموضوع ؟

واستمر أبى فى حديثه وهو يهز ساقه بهدوء :

— وفى الساعة السادسة .. حضر إلى مكتبى ، وأنبأنى بعد مقدمة قصيرة أنه طالما أعجب بى وبعصاميتى ، وأنه يشرفه أن يناسبنى .. وأنه من المرات القلائل اللاتى أبصرك فيها .. استطاع أن يجزم أنك فتاة كاملة .. هادئة الطبع ، جميلة الخلق ، طيبة النفس .. فضلا عن جمالك الذى لا يضارع وأنه من بين كل من رأى من بنات معارفه وأصدقائه وأقاربه لم ير خيراً منك ولا أصلح ، وأنه يسره جداً أن يطلب يدك لابنه ، واستمر الباشا فى مديحه حتى أخجلنى .. ولم أجد ما أقول له سوى أننا لسنا قد المقام ، وأنه يشرفنا بطلبه وبنسبه .

وألقى علىّ أبى نظرة فاحصة يستشف بها دخيلة نفسى .

ولا أظننى فى حاجة إلى أن أشرح دخيلة نفسى وقتذاك .. ماذا أقول ؟ .. وقد كنت أشبه بإنسان رفعوه إلى هام السحب ، ثم تركوه يهوى إلى قرارة الأرض فتناثر حطاماً .

لقد كنت فى حالة لا تساعدنى حتى على الألم .. كنت

مشدوهة مذهولة أحس كأنى واقعة تحت تأثير كابوس مخيف ، وأن ما حولى ليس من الواقع فى شىء .

وأدهش أبى ما أصابنى من وجوم وإطراق ، واستمر يتم حديثه قائلا :

ــ إننا لم نكن نحلم قط بمثل هذا النسب ، ولا أظننا نطمع فى أفضل منه ، بل ما أظن أن هناك أفضل منه ، طيبة أصل ، وعراقة محتد ، ومال وجاه وسلطان ، وشباب نضر ومستقبل مزدهر . . إن « تهانى بك » أمامه مستقبل حافل ، أمامه الالتحاق بالسلك السياسى ، وأمامه الحياة النيابية ، والمناصب الوزارية . . غداً يسلك طريق أبيه ، فالمناصب العليا شبه وراثية ، و « زكى باشا » يحتمل أن يعود إلى الحكم فى أول انقلاب يحدث ، فإن الصحف تجمع على أنه رجل الساعة . . .

* * *

أى سخف يهذى به هذا الأب الأبله ؟ ماذا يهمنى أنا من عودة « زكى باشا » إلى الحكم ؟ ! وأى مستقبل حافل ينتظر ابنه التافه الذى لا يصلح لشىء ؟ ! أى سلك سياسى هذا الذى يزجون فيه بهؤلاء الرقعاء ، الذين ليس لديهم ذرة من الإيمان

ببلدهم ؟! وأى مناصب نيابية ، وأى مراكز رفيعة يضعون فيها هذه الأصنام الممسوخة ؟

مالى أنا وما له ؟! ليكن من يكون ، وليعد أبوه إلى رئاسة الوزارة ، أو ليذهب إلى الجحيم .

إنى أريد أحمد .. ماذا فعل معه ، وماذا قال له ؟

ووصل إلى صوت الأب كأنه صوت ناع يأتى من جوف قبر :

ــ لقد وفقنا الله إلى خير نسب . . إنى شخصياً جد موافق . ما رأيك أنت ؟

ووجدت صوتى ينبعث متحشرجاً فى صدرى ، بالرد التقليدى الذى لا أملك غيره ، وكأن إنساناً غيرى هو الذى يتحدث :

ــ أمرك يا أبى .

ووصل إلىّ ردّه الأخير . . تماماً كما توقعت :

ــ على خيرة الله .

ثم نهض فطبع على جبينى قبلة شكلية ، وغادر الغرفة .

يا للسخرية !! لقد بدا لى أن القدر يفغر فاه على آخره ويقهقه ساخراً ، وتذكرت قول جدتى : « لا تكثرى من الآمال فوظيفة القدر هى أن يخيب آمالنا . فحاولى ألا تعطيه الفرصة

للشماتة بك . . لا تطلبي شيئا . . انتظري حتى يعطيك هو وابتسمي شاكرة حتى تخيبي أمله ، بدل أن يخيب هو أملك ، .

كيف أستطيع ؟

كيف يمكن أن آخذ ما أعطى ، وأبتسم شاكرة ؟ ! كيف يمكنني أن أرضى بذلك الزبد الذاهب جفاء ! ! كيف يمكنني أن أستبدل بجمال الجوهر زيف القشور ، وبالليث فأراً ، وبالغدير الصافي مستنقعاً قذراً ! !

كيف يمكنني أن أعيش مع هذا التافه ، الفارغ الرأس ، الخاوي النفس ؟ ! كيف يمكنني أن أعيش بلا أحمد ؟ !

وسمعت صوت جدتي تتمتم قائلة :

ــ أيها الأحمق . . ستودي بها إلى مصير أمها . . إن ذنبها في عنقك .

ونظرت إليها فوجدت وجهها شاحباً متجهماً ، وبدا لي صدرها أقرب ملجأ ألوذ به ، فارتميت بين أحضانها واندفعت في نوبة من البكاء .

وبعد برهة سمعت صوت أبي يناديني للعشاء ، وكان عسيراً عليّ أن أتمالك ، وأن أخفي مشاعري ، فهمست لجدتي والبكاء يخنقني :

ــ قولي له إنها ذهبت لتنام ، لأنها تحس صداعاً .

وربتت جدتي على ظهرى وأجابت بحنان :

– اذهبي إلى فراشك . . كفكفي دمعك ، وتجلدى .

ذلك هو كل ما قلته لجدتي وقالته لى . . لم نتحدث بأكثر من ذلك ، ولكنى لم أشك فى أنها تدرك كل مشاعرى وتفهم كل ما بى .

ولكن ماذا فى وسعها أن تفعل ؟

أنا أعرف أبى . . كما تعرفه هى ، ويعرف كلانا أنه لا فائدة هناك من مناقشته .

ثم أنى لا أجسر أن أقول إنى لا أريد فلاناً لأنى أحب فلاناً . . إنى لا أجرؤ قط أن أقول إنى أحب . . حتى جدتى نفسها لم أصرح لها بشىء . بل فهمت كل شىء من تلقاء نفسها ، ولم تحاول مرة واحدة أن تجرحنى بالسؤال أو النقاش أو الخوض فى مشاعرى نحو أحمد .

لقد كنت أستطيع أن أتحمل كل شىء إلا أن أقول لأبى إنى أحب .

وفكرت فى أخى . . وقلت إن علياً صديق لأحمد . . ويستطيع أن يفهم إحساساتنا بسهولة .

ولكن ما الفائدة ؟ ما دام لن يستطيع التأثير على أبى ؟!

لقد كنت أحس أن بين الاثنين هوة عميقة . . وأنهما على

اختلاف بين فى كل شىء . . ليس بين أحدهما والآخر أى تشابه فى المشارب أو تقارب فى الأهواء . . كان أخى إنساناً عاطفياً رقيقاً ، مرهف الحس ، وكان أبى لا يعترف إلا بالمذهب المادى ، ولا يقدر إلا الشىء الذى يستطيع أن يمسكه بيده . . ولا يفهم إلا أن الحياة المال ، والمال الحياة ، وأن النقود هى كل شىء . . هى التى ترفع إلى السموات السبع . . أما سواها فأوهام باطلة .

إن أخى سيفهمنى كما فهمتنى جدتى ، وكما يمكن أن يفهمنى أى إنسان له قلب لم يقد من صخر . . إنسان يدرك أن فى الحياة أشياء غير المادة الملموسة ، وأن الجسد البشرى يغذيه شىء غير الماء والطعام والهواء . . شىء يسمى الحب .

ولكن لن تقنعه هذه الخرافات ، ولن يسمح لأحد بأن يضيع فيها وقته .

ليس هناك فائدة . . لقد وقعت الواقعة ، ولم يعد أمامى سوى الاستسلام . . أو الانتحار .

ولكنى كنت أجبن من أن أفكر فى الانتحار ، أو على الأصح ، أشجع من ذلك . . إن الانتحار لا يعنى سوى قتل الجسد ، ولكنى صممت أن أقتل الروح والقلب والمشاعر

ولا أبقى منى سوى جسد بلا حس ، ليفعلوا به ما شاءوا « ما لجرح بميت إيلام » .

لقد كان الخطأ خطئى من بادىء الأمر . أنا الذى تركت نفسى تتردى فى هاوية الحب . . وتركت إرادتى تتهاوى ومقاومتى تنهار . . لو لم أنزلق إلى هاويته لكنت الآن سيدة نفسى . . ومالكة مشاعرى . . أسخر من كل شىء ، وأتلقى ضربات القدر وكأنى درع من النحاس . . لا يجيب إلا بالرنين . . تلطمه فيرن ، وتداعبه فيرن .

لو لم أطلق لمشاعرى العنان لاستطعت أن أنفذ نصيحة جدتى ، فانتظرت حتى يمنحنى القدر أنفس ما عنده وتقبلته شاكرة ساخرة . . وخيبت أمله قبل أن يخيب أملى .

ولكن لمَ هذا الخلط من الظروف الماجنة ؟ ! ألم يجد بين فتيات مصر جميعاً . . من يضعها فى طريق « ابن صاحب الدولة » الهمام . . سواى ؟

إنى أجزم أن الملايين منهن يتمنين لو كن مكانى ، وإنهن سيعتبرونه « لقطة » كبيرة . . فلمَ لم يختر واحدة منهن . . ويعتقنى أنا لوجه الله !

إنه أرادنى لأنى لا أريده ، ولو أردته لأبته علىّ الظروف . وهكذا الظروف تأبى إلا أن تهب لنا ما لا نريده .

ولم أذهب بعيداً . . وأنا ما حاولت قط أن أنتظر الأوتوبيس (رقم ١٤) فى محطة مصر لكى أعود إلى بيتنا فى حدائق القبة إلا ورأيت الأوتوبيس (رقم ١٠) الذاهب إلى مصر الجديدة . . تتواتر علىّ العربة تلو العربة . . دون أن يبدو (لرقم ١٤) أى أثر ، وفى المرة الوحيدة التى أردت أن أذهب فيها إلى مصر الجديدة اختفى (رقم ١٠) وأقبل (رقم ١٤) يتوالى الواحد بعد الآخر .

إذا كانت الظروف تعاكسنا فى الأوتوبيسات ، أفلا يحق لها أن تعاكسنا فى الأزواج ، فتمنحنا غير ما نشتهى ! .

ما علينا . .

لقد قضيت ليلة سوداء . . نبا بى فيها المضجع ، وجفانى المرقد ، فلم أذق فيها للنوم طعماً ، وعندما أجهدنى السهر قبيل الفجر ، استسلمت للنعاس ، فرأيت فى المنام أنى وأحمد كلانا يركب زورقاً يخوض به عباب اليم ، وأنه كلما حاول أحدنا الاقتراب بزورقه من الآخر ، قذفته الأمواج بعيداً ، وأخيراً وبعد أن أصابنا الإعياء ، استطاع أن يقترب منى بزورقه ، وسألنى أن أقفز إليه ، ومدّ لى يده فأمسك يدى ، ووقفت على حافة الزورق ، وهممت بالقفز إليه عندما علت موجة عاتية أبعدت الزورقين ووجدت نفسى أهوى فى اليم وقد

جذبته معى، وأخذنا نغالب الموج سوياً ، وقد تشابكت أيدينا، حتى غلبنا على أمرنا وهوينا إلى القاع .

واستيقظت فزعة مرتاعة ، وأنا أحس أنى منهكة محطمة . وأخذت أتململ كأن رأسى قد ألهبه حمى خبيثة .

وأقبلت علىّ جدتى فجلست بجوارى ، وضمتنى إليهـــا ، وقالت فى صوت حنون :

ــ لا تيأسى يا بنيتى .. لا تفقدى الأمل . . سأحاول معه ما استطعت .

ــ لا فائدة . . لا تقولى له شيئاً .

وبقيت فى الفراش ذلك اليوم حتى العاشرة ، ثم تركته أخيراً وكأنى قائمة من مرض أقعدنى أشهراً طوالا .

وعند الغداء تحاملت على نفسى وهبطت إلى الطابق الأسفل وانتهى الغداء دون أن ينبس أحدنا ببنت شفة .. وقبل أن نترك المائدة قال أبى :

ــ زكى باشا دعانا إلى الغداء فى عزبته باكر ، وسنذهب من الساعة العاشرة لنقضى هناك اليوم بأكمله .

ثم وجه القول إلى أخى :

ــ أتحضر معنا؟

وهزّ أخى رأسه بالرفض وأجاب باقتضاب :

ـ إنى مشغول غداً .

وقال أبى فى لهجة زاجرة :

ـ إنه يوم خطبة أختك !

ورفع « على » حاجبيه ، ونقل بصره بين كلينا فى دهش ولم يرد على قوله :

ـ حقاً ؟ .. مبروك ياعايده !

وتمتمت ببضع كلمات مدغمة خافتة ، قصدت بها « الله يبارك فيك » .

وتركنا المائدة ، وصعدت إلى غرفتى وقبعت فيها كأنى كومة عظام .. أهكذا قضى الأمر ؟! ووقعت الكارثة !

ورفعت عينى المبللتين بالدمع إلى السماء وسألتها الرحمة ! وخطر لى خاطر أحسست منه بشىء من التشجيع والعزاء ، ونهضت إلى « الحمام » فتوضأت ، ثم أغلقت حجرتى وبدأت الصلاة .

وأخذت أركع وأسجد ، وذهنى شارد ، ونفسى واهنة ودعوت الله أن يهب لى معجزة تنقذنى مما أنا فيه .

وانتهيت من الصلاة . . دون أن تحدث المعجزة ، ولكن تملكنى شعور بالهدوء والاستسلام ، والسكينة الناتجة عن اليأس وعن الإحساس بالعجز ، وبأن هناك قوة أعلى تتحكم

فى مصايرنا . . وأنا لا نملك إلا الخضوع لهـــا ، والرضا بحكمها . . .

ودق جرس التليفون فغـادرت حجرتى للرد عليـه . . وأمسكت بالسماعة فى الوقت الذى رأيت فيه أبى يغادر الحجرة وقد أتم ارتداء ملابسه استعداداً للخروج .

وسمعت فى التليفون صوتاً .. أحدث فى جسدى رجفة .

لقد تحدث أحمد أخيراً .. ولـكن فى وقت غير مناسب .

ورفعت عينى خلسة فأبصرت أبى ينظر إلىّ مترقباً .

وقلت متجاهلة صوت أحمد :

ــ آلو . . مين يا فندم ؟

ــ أنا أحمد يا عايده . . أريد أن أتحدث معك قليلا .

وأصابنى ارتباك شديد . . ولم أدر بماذا أجيبه .

ورغم أنى كنت أتلهف على سماع صوته . . وعلى محادثته فإنى لم أستطع أن أقول أكثر من :

ــ لا . . ليس الآن .

ورأيت أبى يهز رأسه مستفسراً ويتساءل :

ــ من ؟

وخفضت السماعة قليلاً . ثم قلت له :

ــ أحمد يسأل عن « على » .

ثم قلت فى السماعة :

ـــ إنه غير موجود الآن . . لقد خرج .

وانتظرت برهة لم يجب خلالها أحمد بكلمة واحدة . . وسمعت الخط يغلق . . فوضعت السماعة بسكون وعدت إلى حجرتى .

وأحسست بهموم الدنيا كلها قد أثقلت كاهلى وأنقضت ظهرى ، وبدا لى أن الظروف قد ناصبتنى العداء . . حتى كلمات مسلية فى التليفون قد أبتها علىّ .

وكنت أعرف أحمد تمـــاماً . . وأعرف كبريائه وقوة إرادته ، وقدرته على كبح جماح نفسه وعلى تحمل أحزانه ، وكنت واثقة من أنه لن يخطو إلى دارنا بعد أن خذله أبى ، وأنه سيترفع عن الحضور إلينا مهما كلفه ذلك من مشقة وحزن .

كنت أعرفه صبوراً ، شديد الجلد . . وكنت واثقة من شـــدة حبه لى . . ولكنى كنت أعرف كذلك أنه لا ينحنى ولا يطأطىء رأسه ، وإنه لا يذل نفسه ، بل يكتم لوعته ويكبت حزنه ، وكنت أعرف أن أقصى ما سيفعله هو أن يحدثنى بالتليفون لينبئنى بما حدث وليعرف رأيى فى الأمر .

وكنت أتلهف على مكالمتـه . . لا لأن لدىّ ما أقول ، ولا لأن لى رأياً فى الأمر أود أن أعلنه به . فقد كنت أشعر

أنى بلا رأى ولا حول ولا قول . . وأنى أشبه بالشاة . . لا تملك إلا أن تسير إلى مصيرها المحتوم ، وأن تمتثل صاغرة إلى مدية القصاب .

لم أكن أتلهف على مكالمته . . لأنى أود أن أدبر أمراً أو أرسم خطة ، بل كان كل ما أوده . . أن أسمع صوته . . وأن أستعين منه بكلمات تعيننى على السير فى القفار الموحشة التى أوشك أن أخوض غمارها . . وتكون زادى فى الفرقة وسلوتى على البعد والوحدة والوحشة .

وأدركت أنه لن يحاول — بعد ردّى عليه فى التليفون — أن يعيد الكرة . . وأنه سينأى بنفسه عنا نأياً تاماً .

وأحسست بالتمرد والثورة . . وتملكنى حنق شديد .

أو قد حرمت . . حتى كلمات وداع . . هى زادى إلى الأبد ؟

وسمعت صوت أقدام أبى تهبط الدرج إلى الحديقة ، ثم سمعت صوت العربة تتحرك . . فانطلقت إلى التليفون مسرعة .

إن الفرصة سانحة لكى أحدثه . . ولكن أين أستطيع أن أجده ؟ .

من أين كان يتحدث ؟

إنى أعرف له رقمين : رقم الثكنات ، ورقم المبس . .

والساعة تكاد تبلغ السادسة وهو ينتهى من طابور بعد الظهر. كما قال لى — فى الخامسة والنصف — .. إذاً فلا شك أنه قد تحدث من إحدى الرقمين .

ولكن من يدرينى .. قد يكون تكلم من تليفون فى الخارج . . أو لعله قد خرج بعد أن تكلم .

على أية حال سأحاول . . فتلك هى بقية أملى .

وأدرت رقم الميس . . وأخذت أنصت إلى رنين الجرس فترة طويلة . . وأخيراً أجابنى صوت :

— مين يا فندم ؟

— أيمكن أن أتحدث إلى الملازم أول « أحمد عبد السلام » ؟

— وإذا لم يكن موجوداً .

وارتبكت برهة إذ لم أتوقع هذا السؤال ، وقلت مترددة :

— إذا لم يكن موجوداً سأحاول أن أطلبه مرة أخرى .

— ألا تقول له شيئاً ؟

— لا .

— لا بد من أحمد عبد السلام بالذات . . ألا يصلح أحد غيره ؟

وبدا لى أن المتحدث أحد زملاء أحمد .. وأنه يظننى إحدى الفتيات العابثات . . اللاتى أنبأنى أحمد أنهن كثيراً

مايشاكس الضباط فى الميس إلى حد أن إحداهن كانت تعرف أدوار نوبتجيتهم ، واحداً واحداً ؛ ولم أشك فى أن الضابط الذى أجابنى يبغى بحديثه مداعبة وغزلا .

رأحسست بالدمع يكاد يطفر من عينى ، وأجبته بصوت مختنق :

ـ أرجوك إذا كان موجوداً دعنى أتحدث إليه . . إنى أريده فى مسألة هامة .

وزجرته لهجتى الحادة من عبثه ، وقال فى لهجة رقيقة مهذبة معتذراً :

ـ أنا متأسف يافندم .. لكن أحمد قدّم نفسه أمس إلى الحرس السوارى لأنه نقل إلى هناك وأظنه نوبتجى اليوم .

ـ أأستطيع أن أعرف رقم تليفونه ؟

ـ أجل .

ثم أملانى الرقم . . وشكرته ، ووضعت السماعة .

رعدت أطلب الرقم الجديد .. وردّ علىّ صوت سألته عن أحمد فأجابنى بعد فترة :

ـ حضرة الضابط معاكى يافندم .

ثم سمعت صوت أحمد :

ـ آلو . . مين ؟

— أنا عايده

ولم أشك فى وقع الإسم والصوت على مسمعه ، فقد مضت فترة قبل أن يجيب بصوت خافت حاول جهده أن يكسوه ما استطاع من الهدوء :

— أجل يا عايده ؟

— أنا آسفة .. لم أستطع أن أحدثك لأن أبى كان يقف أمامى .

— لقد استطعت أن أدرك هذا .

وانتظرت أن يقول شيئاً يطرق به الموضوع ، ولكنه صمت . . فلم أجد بداً من أن أبدأ أنا الحديث فقلت :

— إنك لم تنبئنى بما حدث بينك وبين أبى .

— ألم تعرفى بعد ؟

— عرفت بطريقة غير مباشرة !

— ليس عندى أكثر مما عرفت .

— أود أن أعرف تفاصيل الحديث .

— تفاصيل لا تسر .

— كيف ؟! ماذا قلت له ، وماذا قال لك ؟

— قلت له ما يقوله كل رجل عاقل يتقدم لخطبة فتاة .

— وماذا قال هو ؟

– لا داعى لأن ننكأ الجرح .

– أرجوك . . قل لى ! .

– قال إنى ما زلت صغيراً ، وأن مرتبى محدود ، فلما قلت له إنى سأتقاضى خمسة وعشرون جنيهاً ، ضحك فى سخرية وأجابنى إننى لا أستطيع بهذا المبلغ أن أنشىء بيتاً محترماً دون أن أكون عالة على أحد ، ونصحنى أن لا أفكر فى الزواج الآن . . وأنه خير لى ألا أرهق نفسى بعبء لا قبل لى على احتماله . . ثم قال إنه لا يفكر فى زواجك الآن لأنك مازلت صغيرة . . فلما قلت له أنه يمكننا أن نتم الخطبة الآن على أن يؤجل الزواج كما يشاء . . أجاب بأن هذا ليس من مبدئه . . فإنه يكره أن تطول الخطبة . . ويرى أنها ستشغلك عن الدراسة . . وقلت له إنى أستطيع أن أنتظر ، فأجابنى فى حدة وهو يتحفز للقيام كأن صبره قد عيل . . إنه لا يستطيع أن يعد بشىء . . ونصحنى ألا أتعلق بالآمال . . وأن خير ما أفعله هو أن أصرف نظرى عن هذه المسألة ، وأنى إذا كنت مصراً على الزواج فهناك الكثيرات من الفتيات ممن يصلحن لى . . هذا هو كل ما قلت ، وكل ما قال . . تلك هى التفاصيل المرّة التى لم يكن ينقصها . . سوى أن يطردنى من البيت . . ولقد طردنى فعلا . . فقد قال لى إنه مضطر إلى الخروج

لأن لديه موعداً هاماً . . ثم شدّ على يدى قائلا « دعنا نراك » وهو يكاد يعنى بها « لا تدعنا نراك » .

وكنت أسمع حديثه وأنا أحس به يحز فى نفسى ويلهب رأسى ، وعند ما انتهى منه قلت أتمتم معتذرة :

— إنى آسفة جداً . . كان يجب ألا أعرضك إلى مثل هذا الموقف . . ولكنى قلت لك إننا يجب أن نترك جدتى « تجس النبض » فأبيت إلا أن تتقدم بنفسك .

— النتيجة واحدة . . كان لا بد لنا من تحمل الصدمة ، ما دامت تلك هى آراؤه ومبادئه . . ماذا ستفعلين أنت ؟

ماذا سأفعل أنا . . ليتنى أستطيع أن أفعل شيئاً لو أن لى حرية التصرف . ما كانت بى من حاجة إلى أن أحدثه فى التليفون ، بل لفررت من الدار وذهبت لأرتمى بين أحضانه إلى الأبد .

وأدركت من حديثه أنه لم يعلم شيئاً عن الخطبة التى توشك أن تحدث ، والكارثة التى توشك أن تحل . . ولم أجد لدىّ الشجاعة الكافية لأن أنبئه بها . . فقد كرهت أن أطعنه بيدى بالسهم المسموم . . وكنت مازلت آمل فى معجزة من السماء توقف المصاب . . إن دعواتى إلى الله وصلواتى الحارة لا بد أن تستجاب . . إنها ملجئى الوحيد ، إنها كل ما أستطيع أن أفعل

ولم يستغرق مني التفكير سوى ثوان معدودة ، وأجبته على سؤاله :

ــ وما أستطيع أن أفعل . . سوى أن أترك الأمر لله وللظروف ؟ .

ــ أعلينا أن نخضع ونستسلم ؟

ــ هل لدينا سوى ذلك ؟

ــ إذا كان هذا هو رأيك . . فكما ترين .

وصمت . . وصمت . . وكانت تجيش في نفسي عواطف شتى . . وكنت أود لو ناجيته بأعذب الألفاظ . . ولو ركعت أمام قدميه وأغرقت يديه بالقبل . . ولكن الألفاظ لم تسعفني ولم أجد ما أفصح به عن مشاعري .

وطال الصمت حتى لم أجد ما أنطقه به سوى تلك الكلمة البغيضة :

ــ دعنا نراك ؟

ــ إن شاء الله

ــ مع السلامة .

ــ مع السلامة . . يا عايده .

ووضعت السماعة ، وأنا حانقة على نفسي . . كان لدى الكثير مما أود أن أقوله ، ولكني لم أقل شيئاً . . كنت أعلم

أنه يرزح تحت أعباء الحزن والفشل .. وإن كان يتصنع التجلد وقلة الاكتراث . كنت أود أن أغسل همومه وأزيل أحزانه ، وأن أقول له إنى سأحبه دائماً ، وإنهم يستطيعون أن يتحكموا فى جسدى ، ولكن قلبى سيظل ملكاً له .. لا يخفق إلا بحبه .. ولكننى لم أجسر حتى أن أقول له حقيقة ما يوشك أن يحدث .. كنت جبانة مترددة .

وهكذا حرمت نفسى العزاء الأخير .. سلوتى التى كنت أتوق إليها وأتلهف عليها .. حرمت نفسى مناجاته العذبة ، وحديثه الحلو .. أعز متاع لى فى هذه الحياة .. وختمت حديثى معه تماماً كما ختمه معه أبى « دعنا نراك » .. أو على حد قوله « لا تدعنا نراك » .. وأدركت أنى لن أراه إلا بفعل المصادفات .. وتدبير الظروف .. فما أظن كبرياءه إلا فارضة علينا فراقاً أبدياً .. ألم يقل لى هو نفسه ذات مرة إنه خاصم أعز صديق لديه لمدة عشرة أعوام لشعوره أنه أهان كبرياءه .. وأنه استمر يتجنب رؤيته ولقاءه — رغم حبه له — حتى يومنا هذا ؟! ألم يقل لى إنه ليس هناك فى هذه الحياة ما يستطيع إذلاله .. حتى أنا .. وأنه على فرط حبه لى يستطيع أن يرغم نفسه على نسيانى .. مهما كلفه ذلك من عناء ومشقة ؟

وأحسست أن ذهني يوشك أن ينفجر . . وذهبت إلى حجرتي ، وارتميت على الفراش كأني في شبه غيبوبة .

وفي الساعة التاسعة عاد أبي إلى البيت ، ولم أجد بداً من التحامل والنزول للعشاء ، وكنت أشعر أني أتحرك كالأشباح .

وسألني أبي خلال الطعام :

– ما بك ؟

– لا شيء !

– لِمَ لا تأكلين ؟

– أحس بوعكة بسيطة .

ثم تركت المائدة . . وصعدت إلى حجرتي . . وأويت إلى الفراش ، وبعد برهة سمعت صوت أبي يصعد الدرج . ثم سمعت صوت جدتي تناديه . وذهب إليها ، وكانت حجرة جدتي لاصقة لحجرتي وكان يفصل بينهما باباً مغلق .

ووجدتني أرهف السمع وأنا أسمع جدتي تقول له :

– اجلس .. أريد أن أحدثك .

– أتحسين بشيء ؟ . كيف صحتك ؟

– ليس بخصوصي أنا .

– ليس بخصوصك ؟ ! !

– أجل .. أريد أن أحدثك بخصوص عايده .

ـ مالها عايده ؟

ـ ألم تلاحظ عليها شيئاً ؟

ـ لم تأكل فى العشاء ، وقالت لى إن بها وعكة بسيطة !

ـ إنها لم تأكل منذ يومين

ـ ولمه ؟

ـ ولم تنم طول الليل !

ـ ما هذا الكلام ؟ . ماذا تقصدين به ؟ لمَ لم تأكل ولم تنم ؟ . ماذا يمنعها ؟! أمريضة هى ؟

ـ ليست مريضة . .

ـ أفصحى إذاً عما تريدين قوله ؟

ـ ألم يحضر إليك أحمد لخطبتها ؟

ـ أحمد !! أجل لقد كلمنى بالأمس .

ـ وماذا قلت له ؟

ـ ماذا قلت ؟ أتريدين أن أقدّم لك حساباً عما قلت ؟

ـ أريد فقط أن أعرف !

ـ رفضت بالطبع !

ـ ولمه ؟

ـ لأنه ليس هناك وجه للمقارنة بينه وبين ابن زكى باشا فلا مستقبل له إلا ذلك الترقى المحدود .. ولا دخل له إلا ذلك

المرتب الثابت . . ولا شيء يرجى منه قط . . هل تريدين أن تقضي عمرها زوجة صاغ أو بكباشي ، وتظل تعدو وراءه من العريش ، لمرسى مطروح ، لمنقباد إني أدري بمعيشة الضباط . أي أحمق بفضله على ابن رئيس وزراء ؟

ـ هذا من وجهة نظرك أنت . . فرئيس الوزراء قد ينفعك أنت . . ولكن الذي سينفعها هو زوجها .

ـ بل رئيس الوزراء سينفعها أيضاً . . فهو يستطيع أن يجعل من ابنه شيئاً مذكوراً . . يجب أن نتطلع إلى أعلى . . أكنت تريدينني أن أرفض ابن زكي باشا . . لأجل أحمد ؟ . إني لم أجن بعد !

ـ ولكن لست أنت الذي تنتقي . . كان يجب عليك أن تخيّرها بين الاثنين .

ـ لقد استشرتها في خطبة « تهاني بك » . . رغم أني كنت أستطيع أن أبت وحدي في الأمر . . لأني لست بالغبي الفاقد التمييز ، ولا بالذي لا يقدر مصلحة ابنته .

ـ أين هذه الاستشارة التي تتحدث عنها ؟ لقد كان حديثك فرضاً عليها .

ـ لقد سألتها عن رأيها فأجابت بالقبول !

— ولِمَ لم تأخذ رأيها فى أحمد ؟ لِمَ لم تجعلها تفاضل بين الاثنين ؟

— ليس هناك محل للمفاضلة . . ثم إنى أدرى منها بهذه الأمور .

— إنها هى أدرى بنفسها .. إنها تفضل أحمد لأنها تحبه.

وصاح أبى فى حنق شديد :

— تحبه ! ؟ من قال لك هذا ؟ ! أهى التى قد قالت . . ؟ أمن أجل هذا لا تنام ولا تأكل ؟

— هدىء من روعك .. واخفض من صوتك .. وكف عن هذا الصراخ . . إنها لم تقل شيئاً . . ولكنى أستطيع أن أفهم مشاعرها دون حاجة منها إلى التصريح .

— كفى عن هذا الهراء . . لا أريد أن أسمع أكثر من هذا . . هذه هى التربية التى أجهدت نفسك فيها ؟ ! أتسمحين لنفسك بأن تقولى إنك تدركين أنها تحب ؟ ! وإنك تفهمين مشاعرها ! . لقد أفسدتها بتدليلك . . لقد جنيت عليها .

— أهى جناية أن تتركها تتزوج من تشاء ؟

— جناية أن أسمح لها بهذه المسخرة !

— بل الجناية هى التى ستفعلها أنت . . إنك مخلوق

أنانى منذ الصغر .. إن أنانيتك قد أفسدت حياتك وحرمتك المعيشة الهادئة وستفسد بها حياة ابنتك .. أنت لا يهمك سوى نفسك ... تنظر إلى كل شيء بمنظار مصلحتك .. ولا تفهم الأمور إلا من وجهة نظرك أنت .. أنت تريد أن تفاخر بنسب رئيس وزراء .. وتنتظر من وراء النسب أبهة وسلطاناً ونفوذاً .. أنت تريد أن ترضى غرورك وأنانيتك ، ولكنك لم تحاول قط أن تفكر بعقليتها أو تعتبر مشاعرها .. حتى لكأنى بك أنت الذى ستتزوج لا هى .. خير لك أن تدعها هى تبت فى مصيرها .

— لقد بت فى مصيرها وانتهى الأمر .. لا أريد أن يناقشنى إنسان فى هذا الموضوع ، وخير لك أن تكفى نفسك مشقة التدخل فيه ... أنبئها أن تستعد للسفر فى الساعة العاشرة صباحاً .

ثم ضحك ضحكة ساخرة وأردف قائلا :

— لا تخشى عليها من الأرق أو الجوع .. فستنام بعد ذلك ملء جفنيها .. وتأكل ملء بطنها .. دعيها لى أنا .. لا تحملى همها .

٭ ٭ ٭

وساد السكون بعد ذاك . . وانتهت المناقشة التى عرضت خلالها قضيتى على بساط البحث . . وانتهى الأمر فيها بتأييد حكم الإعدام .

لم يخذلنى قول أبى كثيراً . . فما كنت أتوقع سواه ، وما كنت أنتظر منه إلا مثل هذه الثورة والسخرية .. وتمنيت لو لم تفاتحه جدتى . . فقد كنت أود أن أساق إلى مصيرى المحتوم بلا ضجة ولا فضيحة . . وألا أعرض نفسى لمثل هذه السخرية المريرة .

مافائدة المناقشة والجدال ؟ ! متى كان للشاة أن تناقش قصابها ؟ وللمحكوم عليه بالإعدام أن يجادل جلاده ؟

يجب أن أتجلد وأن أتماسك .. يجب أن أكتم مشاعرى ، وأسحق قلبي . . بل بيد عمرو لا بيدى

وأغمضت عينى . . . واستمر ذهنى يتخبط فى أفكاره واستعصى النوم علىّ . . واشتد بى الإنهاك . . ونهضت إلى الشرفة أخيراً أناجى النجم ، وأستلهم السماء الرحمة وأسألها السلوان ، وملأت صدرى بنسيم الليل الرطب علّه يلطف حرارتى ويهدىء من ثائرتى ، ثم عدت إلى الصلاة أستعين بها على إطفاء حرقتى ، وتخفيف لوعتى ، وأقطع بها الليل الطويل . . .

وأخيراً منحنى الله نعمة النوم ، فقضيت بضع ساعات ، خارجة عن سلطان الهموم . ، مستريحة من الأشجان والأحزان . . ليت الله يتم نعمته فيمنحنى الراحة الكبرى ، والهدوء الأبدى .

استيقظت صباحاً فإذا بالشمس قد ملأت الحجرة . . ونهضت متثاقلة وبى إحساس المسوق إلى مشنقة .

لا . . لا . . يجب أن أتجلد . . يجب أن أكون شجاعة . . لن أدع القدر يشمت بى . . إن الشهداء يساقون إلى ساحة الإعدام وهم يبتسمون . . فيجب ألا أقل عنهم شجاعة .

يجب أن أتعلم النفاق والرياء . . وأن أبتسم وقلبى نائح باك ، وأن أضحك ونفسى موجعة دامية .

يجب أن أجعل فؤادى يجمد وقلبى يتحجر .

وبمثل هذه الأفكار بدأت أستعد للسفر .

وقبيل العاشرة . . تحركت بنا العربة . . قاصدة إلى عزبه « صاحب الدولة » قرب المنصورة .

وفى الطريق أخذت أرقب الأشجار والمناظر تتوالى علىّ . . وقد أسندت رأسى على مسند العربة ورحت فى شبه غيبوبة .

وأخيراً توقفت العربة ، وسمعت أبى ينادينى ويأمرنى بالنزول .. وأبصرت « صاحب الدولة » فى استقبالنا وبجواره « سوسو هانم » و « توتو بك » خطيبى المبجل .

إن ذاكرتى لا تكاد تعى من ذلك اليوم الأسود شيئاً ، إن ما وعاه ذهنى من العربة والبيت ومن كل ما أبصرته يومذاك لا يزيد على صور باهتة شاحبة ثقيلة معتمة .

أما الشىء المحسوس الذى عدت به ، فهو خاتم .. دس فى أصبعى .

خاتم ؟ !! أستغفر الله ، لقد كان قيداً أطبق على يدى أو حبلا لف على عنق .. حقاً ما ظننت قط أن الإنسان يمكن أن يختنق من إصبعه .

لقد عدت إلى القاهرة ، وأنا لا أحمل من الرحلة التعسة سوى هذا الخاتم المنحوس ، والقيد الثقيل .. ماذا كنت أريد شراً من ذلك ؟



الطريفلت

١١

إلى القاهرة . . وأنا أتخيل أن الأمر كله ليس سوى كابوس مخيف ، أو حلم مزعج . . وأتوهم كل ما حولى أشباحاً وأطيافاً . لكن شيئاً واحداً هو الذى كان يعيدنى إلى وعيى ويشعرنى بالواقع المرير ، هو القيد الثقيل الذى كبلت به والذى كان يحز فى أصبعى وفى قلبى .

أجهدتنى مشقة السفر وضجيج الحوادث التى حفل بها اليوم ، فأويت إلى فراشى مكدودة متعبة ولم يستعص النوم على جسدى المحطم فسرعان ما أغمض الكرى عينى ورحت فى سبات عميق .

حيا الله النوم . . لقد كنت أقضى فيه أسعد أوقاتى ، كان ينقذنى من شقاء ملح وعناء مقيم . . كنت أختصر به يقظتى التعسة ، وكنت أخرج به عن نطاق التفكير فيما أنا محاطة به من وقائع مروعة ، وقد يكرمنى أحياناً . . فيهب لى فى الأحلام لقاء مع أحمد ، ويعيد إلىّ ذكريات خوالى .

واستيقظت فى الصباح وأنا أشعر ببعض الراحة والهدوء والقدرة على الصبر والتجلد ، ونهضت أباشر أعمالى فى البيت وأعطى أوامرى للخدم كما تعودت أن أفعل من قبل عازمة على أن أكف عن ذلك الإنهيار ، وألا أعطى أبى فرصة

للسخرية أو التأنيب أو التحكم . . وأن أبدو طبيعية مهما كلفني الأمر .

وتناولنا الإفطار ، وتقبلت تهنئة أخي وأنا أرسم على وجهي ابتسامة متكلفة مصطنعة ، وجلس أبي يتناول الشاي ويتشاغل بقراءة صحف الصباح ، ثم رأيته يدفع إليّ بإحداها وقد وضع أصبعه على مكان معين .

وقرأت نبأ خطبتي في أخبار المجتمع ، ولم يكن في النبأ – بالطبع – شيء جديد ، ومع ذلك فقد أحسست منه وخزاً في قلبي .

ألا يحدث لكم أن تكونوا على علم بوفاة إنسان . . ولكنكم مع ذلك تتأثرون بقراءة نعيه أو تلاوة رثائه ؟ . لقد كان للخبر في نفسي وقع النعي ، ووجيعة الرثاء .

وتذكرت أن أحمد سيقرأ النبأ ، كما قرأته ، وتصوّرت وقعه عليه ، فأحسست بجرحي يدمى وقرحي ينكأ ، وكأن الكارثة قد وقعت مرة ثانية .

كنت ما زلت أرجو أن يحدث شيء . . كنت ما زلت أتوقع معجزة السماء . . ووددت لو خفي الأمر على أحمد ، حتى تحدث المعجزة . . فأقص عليه المسألة كلها . . وكأنها قصة مسلية .

أما كان يجب عليّ أن أخبره ، حتى لا يظنني مشتركة فى الجرم ، ويتوهم أنى خدعته ؟

وشرد ذهنى ، فأخذت أتخيله وهو يقرأ النبأ ، وكيف سيحاول التجلد والتماسك ، وهو مروّع محزون.

وطويت الصحيفة فى صمت ، ووضعتها على المنضدة . . وصعدت إلى حجرتى وكأنى قد شيعت ميتاً .

* * *

بدأت بعد ذلك فترة من المشـــاغل ، فقد أصرّ أبى على مبدئه فى أن يقصر فترة الخطبة ما أمكن . ورأيت نفسى أنهمك فى أشياء مختلفة متباينة تضيع كل وقتى ، ولا تترك لى فرصة التفكير فى أحزانى .

كنت منهمكة فى أحب ما يمكن أن تنهمك فيه أية فتاة مقدمة على الزواج ، وهو التجهيز لعرسى ، شراء الأقمشة ، والتفصيل ، وقياس البروفات ، وانتقاء الأثاثات والفضيات والأطقم المختلفة ، وكان لى مطلق الخيار فى أن أطلب ما أريد بلا قيد ولا شرط ، ولكننى لم أطلب شيئاً قط ، بل كنت أوافق على كل ما يقدم لى .

لقد كانت العملية فى حد ذاتها عملية مسلية ، شغلت كل وقتى ، وكان تأثيرها مساوياً لتأثير النوم ، وهو إنقاذى من

عناء التفكير فى الواقع ، ولكنى مع ذلك كنت أحس أنها ستنتهى يوماً ما .. وستكون نهايتها بداية الكارثة الحقة .

كنت أتمنى أن يطول التجهيز للزفاف إلى الأبد . . فقد كنت ما زلت آمل فى الخلاص .. وكان إيمانى فى رحمة السماء لم يتبدد بعد .. وكنت أجد فى فترة التجهيز فسحة للأمل .. وكانت رغبتى فى أن تطول تلك الفترة أشبه برغبة إنسان يشيع عزيزاً لديه فهو لا يود قط أن تنتهى الجنازة حتى لا يصل إلى القبر بل يود أن يطول به السير إلى ما لا نهاية .

وكنت أفكر أحياناً . . كيف كان يمكن أن تكون تلك الفترة .. فترة الاستعداد للزفاف . . لو أن الأمور سارت فى طريقها الطبيعى .. ولو أنه لم يحدث هذا الخلط من القدر ؟

كيف كنت أقضى فترة التجهيز .. لو أن أمنيــــة النفس تحققت .. وتمت خطبتى لأحمد؟ أى نعيم كنت أمرح فيه لو أن هذا الهرج والضجيج كان استعداداً للزفاف إلى أحمد؟

ولكن لا . . لا أظننى كنت مهتمة كثيراً بهذه التوافه . فقد كانت سعادتى بأحمد نفسه تطغى على كل هذه الصبيانيات والماديات .

لقد كان هو وحده الأمل المنشود ! . . كان يكفينى ن أعيش معه فى صحراء جرداء مقفرة موحشــــة ،

فى الحصول على الرزق سوياً . ونجاهد فى سبيل العيش معاً .

إن كل هذه المتع الزائفة تتضاءل بجواره . إنها لا تستطيع أن تجلبه ، ولكنه يستطيع أن يجلب خيراً منها .. وهو الشديد الإيمان ، القوى الأمل ، الأبىّ النفس ، الكريم الخلق .

وكنت أخلو إلى نفسى — خلال هذه المعمعة من المشاغل — فى بعض الأمسيات ، فأجلس فى الشرفة المحبوبة ، وأتذكر حديثه عن الأمانى التى كان يأمل تحقيقها ، والتى يريد أن يعيش بها زمناً رغداً . . ويمعن بى الخيـــال ويداعبنى الأمل ، فإذا بى أغرق فى أحلام عجيبة . . وأتخيل نفسى ليلة الزفاف باكية حزينة .. وقد فقدت كل أمل .. ثم يطرق أذنى وسط ضجيج الناس وصخبهم وقع حوافر خيـــل تقرع الأرض وأسمع صهيلا وهمهمة . ثم أبصره بقامته المشوقة ، وحذائه الطويل ، كفرسان العصور الوسطى . . وقد أمسك بيده مسدسه .. والقوم قد خيم عليهم الصمت وكأن الطير علا رؤوسهم ، وفغروا من الدهش أفواههم ، وجلسوا فى مقاعدهم لا يتحركون كالدمى .. وهو يقترب منى باسماً . . فيرفعنى بين ذراعيه . . ويغادر القوم المشدوهين المبهوتين ، ويخرج بى من وسط الضجيج والأنوار ، إلى هدوء الليل وظلمته فيركب جواده ، ويضعنى أمامه . . وينطلق .

ينطلق . . وينطلق . . وينطلق . . لا يستقر أبداً على ثرى الأرض .. وأمكث متهيبة فى أحضـــانه وهو ثابت على جواده يسابق به الريح .. حتى يستقر بنا المقام فى بقعة خلت من السكان وهجرها القطان . . أياً كانت هذه البقعة — حتى لو كانت قبراً نتوسد أحجاره سوياً — إنها أحب إلى نفسى من جنة الخلد .

تلك كانت أمانىّ المجنونة . . التى كنت أعزّى بها نفسى، وأمنيها بتصورّها .. زمناً رغداً . . وأنزعها — للحظات — من وسط هذا الشقاء الذى أيبسها وأذبل عودها

وكنت خلال هذه الفترة أدعى من آن لآخر . . مع الخطيب الكريه . . إلى حفـــلات مختلفة . . كنت أجلس فيها شاردة الذهن ، صامتة اللســان لا أجيبه . . إلا بقدر ما أسكته .. وعوّدت نفسى طابع ابتسامة ترتسم على شفتى .. دون أن يكون لها أى صلة بمشاعرى . . بل كانت مجرد « طابع » أو قنـــاع أضعه على وجهى . . بلا أقل جهد ولا مشقة .

وأخيراً حدد موعد الزفاف ولم يكن قد بق عليه سوى بضعة أيام .. عندما أبصرت أخى ذات مساء . . قد ارتدى بدلة السهرة وأقبل علىّ يسألنى عن « بيبون » أى الأسود

الذى يرتديه مع قميص السهرة . . لأنه لا يجد « ببيونه » .
وسألته وأنا أعطيه « البيون » : إلى أين هو ذاهب ؟
ولم أدر وأنا أوجه السؤال . . أنى كنت كمن يرفع — عن جهل — طابة الأمان لقنبلة ، فإذا بها تنفجر فى يده وتتركه حطاماً .

ماذا تتصورون إجابته ؟!!

لقد قال ببساطة :

— مدعو إلى زفاف أحمد ، إنه سيتزوج الليلة .

لقد انفجر فى ردّه . . الذى ألقاه بمنتهى السهولة والبساطة . . كما ينفجر أشد الألغام فتكا .

ماذا روعنى من النبأ ؟ . .

ألم أكن أنا نفسى أوشك أن أزف بعد بضعة أيام ؟ !

أكنت أنتظر منه أن يقضى عمره أعزب ؟ .

ماذا يضيرنى إذا تزوج الآن ، أو تزوج بعد حين ، ما دمت قد فقدت الأمل فيه . . وما دمت البادئة بالخذلان ؟

ولكنى مع كل ذلك ، وجدت نفسى أوشك أن أتهاوى

لقد كنت أشعر — مع كل ما حدث — أنى لم أفقده بعد ، وأنه ما زال هناك أمل .

أما الآن ، فقد ذرت الريح أملى .

ماذا يمكن أن آمل ، بعد هذا ؟

لقد أصبح أحمد — أو يوشك أن يصبح بعد بضع ساعات — زوجاً ، لقد أصبح إنساناً ، لا أمل لى فيه ، ولا رجاء لى منه .

وأحسست من تلك الصدمة أنى بت على استعداد لأن أثور على كل شيء ، وأحطم كل تقليد ، وأن أواجه أبى وأقذف فى وجهه بكل ما يجول بخاطرى ، وأن أقول له إنه رجل أنانى ، وأن أنطلق هاربة من البيت ، متحدية كل قوة وكل سلطان . . لقد أعطتنى الصدمة قوة خارقة ، ووهب لى اليأس ثورة عنيفة .

ولكن ما الفائدة ؟

ما الفائدة ، وقد أضحى أحمد ملك سواى ؟

ماذا يمكن أن أرجو منه ، وقد أضحى زوجاً ؟

لقد استطعت أن أتجلد أمام كل ما سبق من الصدمات ، أما هذه الصدمة فقد جعلتنى أنهار تماماً

واتكأت على المنضدة وأمسكت بها ، حتى لا أتهاوى على الأرض ، وأحسست بحلقى يجف ، وهتفت بصوت خافت مبحوح :

— أحمد . . سيتزوج ؟

وبهت أخي من لهجتي ، وروّعه شحوب وجهي ، وترك البيبون يسقط من يده ، ثم تقدم إليّ وأمسك بيدي وسألني في دهش :

ـ ماذا بك يا عايده ؟ تعالي اجلسي على الأريكة .

وحاولت أن أتحامل على قدمي ، ولكنني تهاويت على الأريكة .

وعاد « علي » يتساءل في فزع :

ـ ما بك !. . تكلمي ؟

وبلا إرادة وجدت نفسي أردد :

ـ أحمـــد . . سيتزوج ؟

وأحسست بشفتي تختلجان . . وعضضت شفتي السفلى حتى كدت أدميها . . محاولة أن أكتم نوبة البكاء التي توشك أن تجتاحني .

وجلس أخي بجواري وضمني برفق وهتف بحنان :

ـ عايده ؟ .. عايده ؟! ما بك !! تكلمي !! قولي شيئاً .

وفجر قوله الحنون منبع الدمع في مقلتيّ ، فلم أشعر إلا وأنا أنشج . . واندفعت في البكاء أرتجف بين يديه كريشة في مهب الريح .

واستمر أخي يضمني إليه ويربت على خدي حتى هدأت .

ثم مدّ يده إلى ذقنى ، ورفع وجهى ونظر إلى عينى المغرورقتين وبدا لى أنه قد فهم كل شىء ، وهمس قائلا :

— لِمَ لم تقولى لى . . لِمَ لم تتحدثى من قبل . . لِمَ رضيت بخطبتك ؟

— وما الفائدة ؟

وبدا عليه الحنق وقال بحدة :

— ما الفائدة ؟ . . هذا مصيرك . . مصيرك أنت وحدك ! أنت التى ستشقين . . أو تسعدين به ! كيف تخضعين صاغرة ذليلة . . دون أن تعترضى ، أو تنبسى ببنت شفة ؟

— وماذا كنت أقول ؟

— ماذا كنت تقولين ؟!! ثورى وقاومى . . حطمى كل شىء . . اصرخى . . استنجدى . . هذه حياتك . . أتتركينها تذهب سدى !! إننا لم نعد بعد فى زمن الاستعباد . . كيف ترغمين على زوج لا تريدينه .. هذا منك جبن وخور .

— لقد حدثته جدتى !

— وماذا قال ؟

— سخر وثار . . وقال إن الأمر قد انتهى ، وليس لأحد أن يعترض عليه . وإنه هو أدرى الناس بمصلحتى .

— وماذا ستفعلين ؟

وتنهدت فى يأس وأجبت :

— لا شىء . . ماذا أستطيع أن أفعل؟ لقد قضى الأمر وليس أمامى سوى الخضوع والاستسلام . . هذه مشيئة الله.

ورأيته يطرق برأسه ، وقد بدا عليه الشقاء والحزن . . وكرهت أن أغرقه فى أحزانى ، وأن أشركه فى مصابى ، فقلت وأنا أتصنع الجلد :

— قم . . يجب عليك أن تذهب . . كل شىء سيهون . . الزمن كفيل بمحو كل شىء . . إنه ينسينا ما نحب ويعوّدنا ما نكره .

كان مجرد كلام أعزّى به نفسى .

كلام هراء . . كنت آخر من يصدقه أو يقتنع به

أى زمن هذا الذى ينسينا ما نحب ويعودنا ما نكره؟ أهناك شىء يمكن أن ينسينى أحمد . . ويعودنى البلية الأخرى؟

ونهض أخى . . وقد ألقى « بالبيبون » على الأريكة . . وسار إلى حجرته بخطوات متثاقلة .

ودلفت إلى حجرتى .. وارتميت على فراشى . . كأنى جثة هامدة . . ولم أحاول أن أخرج إلى الشرفة . . ولا أن أضرع إلى السماء ، أسألها الرحمة . ولم أحاول أن أصلى أو أدعو الله ،

لقد يئست من كل شيء . . وكفرت بكل شيء . . ولم أعد أومن لا بالسماء ولا بالمعجزات . . ولا عدت فى حاجة إليهما .

لقد حطمنى النبأ . . وجعلنى بلا حس . . وأفقدنى كل أمل ، وأطفأ أمامى كل شعاع . . وطمس كل بارقة .

لِمَ فعل أحمد هذا ؟ . . لِمَ تعجل ؟ . . ألم يقل لى إنه لن يدفعه إلى الزواج إلا الحب ؟

أتراه قد أحب ؟ . .

لا أظن . . أتراها الرغبة فى الثأر لكبريائه الجريحة وكرامته المهدرة . . والرغبة فى أن يكون هو البادىء فى الزواج ؟ .

أتراه قد تزوج لإغاظتى والانتقام منى ؟ بعد أن أتاه نبأ خطبتى ؟

ولكن ماذنبى ؟ . . ما حيلتى فى الأمر ؟

لشد ما أخطأت بعدم إعلانه بالخطبة . . كان يجب أن أخبره بها وأوضح له ظروفها ، وأبين له أنى مكرهة عليها . . وأنى لم أخدعه ، ولم أفضل عليه « توتو » ! .

إنى حتى الآن خجلة من ذكره اسمه . . ولكن ماذا أسميه ، وأبوه نفسه كان يدعوه به . وإذا كان اسمه الآخر « تهانى » شراً منه . . فبماذا أسميه ؟

كان يجب أن أوضح له الأمر بنفسى وأنبئه أنى سأظل مخلصة له أبد الدهر ، وألا أتركه يفاجأ بالنبأ فى الصحف . . فأظلم نفسى ، وأتركه يتهمنى بما أنا منه بريئة .

ولكن ما الفائدة من كل هذا ؟ . . ما الفائدة فى أن أكون لديه بريئة أو مظلومة ، وأن يعرف أنى نسيته أو أنى سأذكره إلى الأبد ؟ ! ما فائدة هذا ؟ . ما دمت قد خضعت للقيد والذل ورضيت بأن يذهب كل منا فى طريقه ، وأن يمزق كل ما كان بيننا من مواثيق وعهود !

ولكنى كنت مكرهة . . أما هو فما عذره ؟ .

أما كان يجب عليه أن يتريث قليلا ؟ أو قد هنت عليه بمثل هذه السهولة حتى يستبدل بى أية مخلوقة ، ليجعلها تحل محلى . . وتتخذ فى حياته بوضعى ! ؟

أيريد أن يرينى أنى وغيرى سواء . . وأن أية فتاة يمكن أن تغنى عنى ؟

أيمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟ ! وأنه لم يعد به من حاجة إلىّ ، وأنه قد طردنى من ذاكرته ، بل ومن قلبه ، ليضع هذه التى توشك أن يزف إليها مكانى ؟

ولكن من هى ؟

ابتسام ؟ ! !

عجبا ! . . أى شيطان دفع إلى رأسى بهذا الإسم

أجل لاشك أنها هى دون غيرها

لقد وضح الأمر . إن أمه قد أحست بصدمته ، وعرفت بنبأ خطبتى ، وخيبة أمله فىّ ، ويأسه منى ، ولم تجد وسيلة لتعويضه عن الفشل ، ولرد الإهانة ، سوى أن تعجل بزواجه من ابتسام ، التى كانت تراها ـ على حد قوله ـ عروسه الأصلية وزوجته العتيدة .

وسمعت صوت « على » ينادى أحد الخدم . وعجبت لعدم ذهابه . وصممت على أن أرجوه أن يذهب ، حتى لا يحقد علىّ أحمد ، وحتى لا يظن أننى أنا التى جعلت أخى يمتنع عن الذهاب ، وحتى لا يظن أننا قد صممنا على مقاطعته ، وذهبت إلى « على » ورأيته يهم بخلع ملابسه . فقلت له بلهجة متوسلة :

ـ على . . أرجوك أن تذهب . . حتى لا يحزن أحمد ، وحتى لايظن أن بيننا خصاماً .. اذهب من أجلى أنا .

ونظر إلىّ « على » ثم أخذ يرتدى ملابسه ثانية ، وقبل أن يخرج سألته هامسة :

ـ من سيتزوج ؟

ـ الفتاة التى قلت لك مرة إنى رأيتها معه فى السينما . .

ابتسام .

* * *

مرت الأيام القليلة الباقية على موعد زفافى .. بطيئة متثاقلة .. وكنت أحس أنى أعيش وأتحرك وسط ضباب معتم كثيف .. يرينى كل ما حولى من مرئيات ، كأنه أشباح باهتة .. أو ظلال سـوداء .. ولا أكاد أبصر خلاله أو وراءه .. سوى أكداس من الظلمات .. تغرق المستقبل الموحش البغيض .

وأخيراً حل يوم الزفاف .. وكنا فى أواخر سبتمبر .. وهو أحب شهور العام إلى نفسى .. وأملؤها بالذكريات الحلوة .. واستيقظت قبيل الفجر وأنا أحس ببرودة صباح الخريف تتسلل من الشرفة ... فأغلقت بابها ، وعدت إلى الفراش ، ولكنى ظللت أتقلب دون أن يعاودنى النوم .. فغادرت الفراش .. وخرجت إلى الشرفة ، واستقبلنى النسيم الرطب ، يمسح وجهى بكفه الندية .. ووجدتنى أتنسم منه شهيقاً طويلا أغسل به حنايا صدرى وأندى به حرارته .

وكانت السماء منمقة بسحب الخريف المنثورة فى الأفق المحمرة الحواشى .. الموشـاة الأطراف .. إيذاناً بمطلع الشمس ، وأوراق الشجر قد كسيت بقطرات الندى المتلألئة المتساقطة إلى الأرض كالدموع الصامتة ، وأبصال الزنبق تملأ الحديقـة .. وأعواده المحملة بالزهور البيضاء تتمايل

مع هبات النسيم . . . وأوراق الورد الأحمر متناثرة على الطمى والداليا تتثاقل زهورها على أغصانها العالية . . وحوض الماء الذى أجلسنى « أحمد » عليه وغسل لى ساقى فيه .. تتساقط من صنبوره قطرات الماء .

ما أقدر المناظر المعينة . . والأجواء المخصوصة . . على تجسيد الذكريات . . وعلى إثارة الشجن . . رب صوت عابر أو نسمة رطبة ، تعيد إلى نفوسنا حشداً من الأحداث . . . وتنقلنا إلى عالم آخر .. رب نقيق ضفدع ، أو زقزقة عصفور ، تنكأ فى نفوسنا جرحاً أبل وقرحاً شفى .

رب ورقاء هتوف فى الضحى
ذات شجو صدحت فى فنن
ذكرت إلفاً وعهداً سالفا
فبكت حزناً فهاجت حزنى
فبكائى ربما أرقها
وبكاها ربما أرقنى
ولقد تبكى فما أفهمها
ولقد أبكى فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها
وهى أيضاً بالجوى تعرفنى

لم تكن ورقاء هاتفة ، هى التى حركت شجنى ، وأندت مآقى ، بل كان كل شىء حولى .. السحب المنخفضة ، والنسيم الرطب .. ومدامع الورق .. وأعواد الزنبق .. وأوراق الورد .. وز ير الداليا .. وحوض المياه .. كل هذا تعاون علىّ فذوّب نفسى ، وأضرم الحنين فى قلبى .

ووجدت نفسى أتسلل إلى الحديقـــة ، وقد وضعت على كتفى معطفاً ، ولففت رأسى « بإيشارب » ، وانتعلت حذاء خفيفاً ، وتسللت من الدار فى سكون ، وسرت فى الطريق ، تحملنى قدماى إلى الساقية المهجـــورة .. إلى المعبد المقدس .

وكانت الشمس قد بدأت تتسلل برأسها من وراء الأفق كأنها تستكشف الأرض ، والأشعة البرتقالية تغمر أعالى الدور وأطراف الشجر ، وقد خلت الطرقات إلا من الجمال المحملة « بالكرنب » تأتى من طريق « الوايلية » متجهة إلى شارع « الملك » .

وسرت بحذاء السلك الشائك المحيط بثكنات الحرس ، أخوض المزارع .. متخذة طريقاً قريباً .. بدل الدورة الواسعة عن طريق الجامع والشارع المجاور للسراى .

ووجدت نفسى أخيراً أشرف على الساقية من ناحية

المزارع ، وبدا لى طريق السراى محوطاً بأشجار البانسيانس القائمة على جوانبه .

وجلست حيث تعوّدت أن أجلس ، وحيدة صامتة . . أحس فى جلستى بالكثير من العزاء ، وأتمنى لو استطعت أن أخلد فى موضعى لا أغادره أبد الدهر . . وأن أضحى جزءاً من ذلك المنظر الخرب .

وكان يراود نفسى أمل خفى فى أن « أحمد » قد يأتى ، وأنه قد يكون أصابه ما أصابنى من حنين . . ودفعه ذلك الدافع الخفى الذى دفعنى إلى المجىء .

أجل . . إن مجيئى لا يمكن أن يكون عبثاً . . لقد حركنى قلبى ، ولابد أن يحركه قلبه . . إن موضعه الشاغر لابد أن يملأ بعد فترة .

وأخذت أسترق السمع إلى كل صوت يقترب ، وأمعن البصر فى كل شبح يبدو على الطريق .

ومضى الوقت ، وأنا فى جلستى — كما أنا — مغرقة فى الصمت والوحدة ، وأخذت الشمس تعــلو فى الأفق ، والحياة تدب من حولى ، وأصــوات الفلاحين والدواب تتعــالى .

وأخيراً نهضت للعودة ، أتلمس طريقي بين المزارع .. فاشلة المسعى .. خائبة الرجاء .

أي حمقاء أنا ؟ .. أي وهم صوّر لي حضوره ؟ .. أو قد نسيت أنه متزوج وأنه لابد أن يكون في هذه الساعة منعماً بين أحضان زوجته ؟!

لقد أضحيت عنده غير ذات قيمة .. ولم يعد لي مكان في قلبه ولا ذهنه .

ولِمَ أحمل عليه ، وغداً أكون مثله ؟ غداً أصبح زوجة ، ويصبح حبه جريمة كبرى وخيانة زوجية .

إن من الجنون أن أحاول التفكير فيه . يجب أن أقتلعه من نفسي اقتلاعاً .. يجب أن أنسى حبه ، وأن ينسى حبي ، إن لم يكن قد نسيه بعد .

* * *

ومضى اليوم ، لا أدري كيف مضى ، ولكن الدار كانت تعج بالحركة ، وتضج بالاستعدادات ، والحديقة قد انقلبت — بالمناضد التي وزعت فيها — إلى منتدى عام ، والأسلاك المحملة بالثريات الكهربائية تتناثر فوق الأشجار .

وكنت أنا أجلس كالتمثال ، مسلوبة الرشد ، فاقدة القدرة

على التصرف أو التفكير ، أرقب ما يحـــدث كأنى مجرد مشاهدة ، أو عابرة سبيل ، وكأن كل ما يحدث لا يعنيني ، أو كأنى لا أقوم بدور البطلة ، فى وسط هذا المسرح القائم على قدم وساق .

وأقبل الليل ، وبات البيت شعلة من النور ، وبدأت تتوافد على الدار بعض العربات

وكان علىّ أن أبذل جهداً كبيراً فى التجلد والتماسك ، وأن أخرج إلى القوم فأتقبل تهانيهم وتحياتهم ، وأرحب بهم وابتسم لهم .

وخرجت ، بعد أن تعهدتنى الأيدى بالزينة وبعد أن ضمتنى جدتى بين أحضانها وطبعت على جبينى قبلة حنان .

وكان أول من لقيت « صاحب الدولة » وابنتـه ، وكانا يجلسان مع أبى فى الصالون ، ونهضا يرحبان بى فى حرارة وحماسة ، وأخذت « سوسو » تصلح لى زهرة حلى بهـــا كتف ثوبى :

وأخذ المدعوون يتوافدون زرافات ، فامتلأت الدار بهم وضاقت رحاب الحديقة على سعتها .

ثم حضر « توتو » أخيراً فى حشد من أصدقائه الذين

عرّفني بهم فى فترة الخطبة . وكان يبدو متأنقاً لامعاً برّاقا ، والواقع أنه كان حلو القسمات ، جميل التقاطيع ، أرستقراطى المنظر ، وكما قلت من قبل إنه قد يستهوى ملايين الفتيات . . وإننى لولا سقم تفكيره . . وتفاهة عقليته . . ولولا أننى لم أكن أملك قلبى . . لما اعتبرت زواجه كارثة ، بل لما رأيت فيه إلا كما رأى أبى « لقطة كبيرة » .

وأقبل « توتو بك » وأصدقاؤه يحيطوننى بهالة من الإكبار والإعجاب ، وحاولت جهدى أن أبادلهم مرحهم ، وقلت لنفسى إننى يجب من الآن أن أكون مخلوقة جديدة ، وأن أحاول ألا أدع حب « أحمد » يتسرّب من مكمنه ، بل يجب أن أئده ، وأن أبذل كل جهدى لأظهر بمظهر المرحبة بحياتها الجديدة .

ولم أكن قد رأيت أخى طيلة اليوم ، وعجبت لغيبته . . ولكنه بدا لى أخـــيراً . . وتقدم إلىّ متكلفـــاً المرح والسرور .

ولم أشك فى أنى قد نجحت فى التجلد والتماسك إلى أبعد حد ، بل إنى وجدت المسألة أسهل كثيراً مما كنت أتصوّر . . ورأيتنى أروح وأغدو ضاحكة مبتسمة . . أى جهد ولا مشقة .

وانتحى بى أخى جانباً . . ثم همس فى أذنى :

ـــ لقد دعوت أحمد . . فهل يسوءك هذا ؟

وأخذت بقوله . . وأصبت منه بما يشبه لسع الجمر . . ولكن لِمَ هذه الرجفة ؟ . ألم أدع أنى قد انتصرت على مشاعرى ، ووأدت حبى ؟

وقلت له وأنا أتكلف قلة الاكتراث :

ـــ يسوءنى ؟ . . لا . . لا . . على الرحب والسعة .

ـــ لقد كان لا بد أن أدعوه . . رداً على دعوته . . وإلا أخذ « على خاطره » ، وظن ـــ كما قلت ـــ أن بيننا خصاماً .

ـــ أجل . . أجل . . لقد كان لا بد أن تدعوه .

ولقد تملكنى إحساس بالرهبة والخوف . ولكنه كان خوف ممتع . . ورهبة لذيذة .

ألم أكن أوشك أن أرى « أحمد » ، وأتحدث إليه ؟

ولكن أين ما ادعيته من كبت المشاعر ، وقتل القلب ، ووأد الحب !! وعلامَ هذا الإحساس بالمتعة . . والشعور باللذة ؟ .

أحقاً قد وأدت حبى ؟

ولكن لِمَ لا أؤجل وأده هذه الليلة ؟ ليلة واحدة !!

أأستكثر على نفسي ليلة واحدة ، أتزود منها للعمر كله ؟

* * *

وأخيراً انتهت الإجراءات الوهمية التي أجراها الشيخ المعمم الذي لقبوه « بالمأذون » ، ووجدت نفسي في غمضة عين قد صرت زوجة .

أية سخرية هذه ؟ لقد جلست أنظر إليه وهو منهمك في الكتابة ثم تمتم كلاماً لم أسمعه وأخذت أردد معه أقوالا كأني ببغاء ، وأنا شاردة الذهن ، أصوّب النظر في لفافة عمامته .

وأخيراً سمعت ألفاظ التهنئة تتواتر على مسمعي .

أهكذا انتهى الأمر !؟

أهذه الإجراءات التي تبدو كأنها « عقد إيجار » أو « صفقة شراء » يقام لها من الوزن والاعتبار ما لا يقام لكل ما أملك من مشاعر نحو أحمد ؟

أتفاهم الأرواح ، وامتزاج الأنفس والقلوب ، لا يحلل الصلات التي أحلها ذلك الشيخ المعمم بكتاباته وقراءاته ؟

أأضحى بهذه التفاهات الشكلية ملكا لرجل لا تربطني به أية صلة ، ولا أحس نحوه أقل عاطفة ؟

أتزيل هذه الكتابة كل عقبة . . بيني وبينه . . ويقف الحب العميق القوي مكتوف الأيدي ؟

أتتيح لى تلك الوثيقة المخطوطة . . أن أفعل .. ما لو فعلته بدونها — حتى مع أحمد — لاعتبرت فاسقة ، واستحققت الرجم بالحجارة ؟

يا لحمق التقاليد وسخفها ؟

لقد قضى الأمر وأصبحت زوجة بفعل هذا « المأذون » .

الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه !

وأخذت الدار تعج بمن فيها . . واختلط الحابل بالنابل ، وامتلأت الحجرات والصالون . . واحتشدت الحديقة بمن فيها . . ووقفت أنا بين الجموع أقلب فيهم البصر ، وأتطلع إلى الباب بين آونة وأخرى .

وفجأة أحسست بقلبي يدق بعنف . . وزال عنى كل ما ادعيته من تماسك وتجلد . . فقد رأيت أحمد يشق طريقه بين المدعوين ويلتفت يمنة ويسرة باحثاً عن شخص يعرفه . حتى التقت عينانا .

وتقدم إلىّ بثبات ، وقد كسا وجهه شبح ابتسامة ، ثم شد على يدى قائلا :

— مبروك ياعايده .

— الله يبارك فيك . . وأنت أيضاً مبروك .

وتمتم برد خافت . . وبدا عليه كأنه يقاوم اضطراباً

شديداً ، وأخذ يتلفت حوله كأنه يبحث عن مفر حتى وقع بصره على أخي . . فاستأذن مني واتجه نحوه ، وسرعان ما اختفيا بين المدعوين .

وتملكني ضيق شديد ، وكرهت ألا يكون بيننا في اللقاء الأخير أكثر من كلمتي تهنئة . . أو على الأصح تعزية !

وأحسست بدافع شديد يدفعني إلى أن أخلو به ، وأن أتفاهم معه .

حرام أن نختم حبنا بمثل هذه الخاتمة الجافة الباردة . . إذا لم يكن من الفراق بد . . فلا أقل من وداع جميل . . يعزينا عن البعد والحرمان .

يجب أن أشرح له الموقف كله ، حتى أرفع عن نفسي الظلم . . وحتى نفترق حبيبين . . أو على الأقل صديقين .

وتسللت من بين الجمع الذي أحاط بي ، وذهبت أتنقل بين المدعوين في الحجرات وفي الحديقة باحثة عنه ، دون أن أجد له أثراً .

وأخيراً عثرت على أخي ، ولكنه كان وحده وخجلت أن أسأله عنه .

ووقفت أمامه برهة . . وقد بدا علي التردد . . وكأنما قرأ مايجول بذهني فقد قال لي متسائلا :

ـ ألم ترى أحمد ؟ . . لقد كان معي حالا . . وقد ذهبت لتحية نجيب بك . . ثم عدت إليه فلم أجده.

وهززت رأسي بالنفي ، ثم تركته وعدت أبحث وأنقب .

ألا يحتمل أن يكون قد رحل ؟

وأحسست بغيظ شديد .

هذا العنيد المتكبر . . لِمَ عجل بالانصراف ؟ . . لم لم ينتظر ؟ ! لِمَ يأبى عليّ متعة الوداع ؟

وسرى إلى نفسي الحزن واللوعة وبت أضيق بكل هذا الضجيج والصخب والأنوار . . وتلهفت إلى لحظة سكون وخلوة ، ووجدت نفسي أنسحب من بين المدعوين وأتجه إلى الشرفة الخلفية المطلة على الجزء الساكن من الحديقة ، والتي شهدت ميـــلاد حبنا . . عندما رأيته أول مرة بعد تخرجه .

وفي الظلمة السائدة رأيت شبحاً يستند بمرفقه على حافة الشرفة وقد أولاني ظهره وأخذ يحدق في الأشجار المعتمة .

وأصابتني رجفة ، وهتفت بصوت خافت :

ـ أحمد ! !

أجل لقد كان هو بعينه أحمد .

ترى أى إحساس قد دفعه إلى المجىء إلى الشرفة ؟ أيشعر كما أشعر . . ويحس كما أحس ؟

أيريد أن يشهد الشرفة نهاية حب ولد فيها ؟ أيريد أن يجعل من المهد لحداً ؟

ليكن له ما يريد .

ومضت برهة قبل أن ينبس ، ثم أجاب دون أن يستدير ليواجهنى ، بل استمر مولياً وجهه شطر الحديقة :

ــ نعم .

ــ لِمَ فعلت ما فعلت ؟

واستدار ببطء ليواجهنى . . وأجاب فى لهجة مريرة مستنكرة :

ــ أنا الذى فعلت ؟

ــ أجل . . لِمَ لم تنتظر ؟

ــ أنتظر ؟! أى شىء أنتظر ؟

واقتربت منه ومددت يدى فأخذها بين يديه ، ومضت برهة وكلانا ينظر إلى صاحبه فى صمت وهمست قائلة :

ــ لا تحنق علىّ ؟ لم أكن أملك من أمرى شيئاً . . لقد تعوّدت دائماً أن أخضع . . أنت تعلم كيف نشأت ، وتعلم

أنه لم يكن فى وسعى أن أقاوم أو أرفض .. وكان الأمر يبدو لى أنه لا يمكن أن يتم وأن السماء لن تتركنى .. كنت أصلى ليل نهار ، وأنتظر معجزة تنقذنى .. وكنت واثقة أنى سأعود إليك فى النهاية ، حتى علمت أنك قد تزوجت ، فأصابتنى صدمة قاسية .. حوّلت نفسى وقلبى رأساً على عقب ، وأحدثت فى نفسى ثورة جامحة ، جعلتنى أحس أنى أستطيع أن أقاوم وأصرخ وأرفض .. ولا أخضع كعبدة ذليلة .. لقد بت أشعر أنى أجرؤ على كل شىء ، وأنى على استعداد لأن أنطلق معك هاربة ، وأن أتبعك حتى نهاية العمر : عشيقة ، زوجة ، خادمة ، أى شىء بات يرضينى ، فما أصبحت أقيم لهذه الشكليات وزناً مادمت أضمن أن أكون معك دائماً ، ولكن ما فائدة هذه الجرأة ، وقد جاءت فى النهاية ، بعد أن قضى الأمر .. وأصبحت يائسة منك !

ورفع يدى إلى شفتيه وأخذ يلثم أطراف أصابعى وظهر يدى وباطنها ويمسح فيها وجهه بحنين بالغ .

وسحبت يدى من يده ، فقد أحسست بنفسى تتهاوى وتنهار ، وشعرت بحرارة تسرى من شفتيه ووجهه إلى كل جسدى .

وعلت على وجهه سحابة يأس واكتئاب . . فقد أحزنه أن أبخل عليه بيدى بعد ما وهبت له من قبل شفتى . . وتملكنى حزن لحزنه . . واكتئاب لاكتئابه . . وكرهت أن أكون سبباً لشقائه .

وترك يدى من يده ، وأطرق برأسه وقال :

— لا فائدة . . يجب أن نفترق . . من الحمق أن نحكم شد أنفسنا برباط سيودى بنا سوياً إلى الهاوية . . لا أمل لأحدنا فى الآخر . . فيجب أن نفترق وأن ننسى ونستعين بالصبر . . إن الحياة لا تستطيع أن يفعل الإنسان فيها كل ما يحب . . ولا أن يحب كل ما يفعل .

وهممت بأن أجيبه ، ولكن تحشرج صوتى وتجمعت الدموع فى مآقى ، وحاولت مغالبتها فلم أستطع ، وأحسست بها تنساب على صفحة وجهى .

ولمح هو دموعى تلمع فى الظلمة . . فأمسك يدى بين يديه . . ودفن فيهما وجهه . . وشعرت بدموعه الحارة تنهمر فتبللهما .

وأصابتنى رجفة شديدة . . وبلغ بى التأثر أشده . . فما رأيته يبكى من قبل .

ومضت فترة صمت ، وتعطلت لغة الكلام ، وانقطع كل تفاهم بيننا إلا بلغة الدموع الصامتة . . التى كانت تنهمر من أعيننا فى سكون فتجلو صدأ نفسينا وتغسل أحزان قلبينا ، وتحمل لنا العزاء والسلوان .

ما كان أمتعه من بكاء !!

هل تصدقونى إذا قلت لكم إننى ما أحسست فى حياتى براحة كتلك التى أصابتنى من ذلك البكاء الصامت المشترك ؟

وأخيراً رفع إلىّ وجهه وقال فى هدوء :

— إنى لا أريد منك شيئاً ، لا شىء مطلقاً ، وسأحاول أن أهب لك هبة لا أشك أنك فى حاجة إليها ، إنى لا أستطيع أن أمنحك اسما ، ولا مالا ، ولا بيتاً ، ولا بنين ، ولكنى أستطيع أن أهب لك صداقتى . . أو حبى الصامت الذى لا أريد له مقابلا ، إن كل إنسان يحتاج إلى قلب مخلص أمين يضع فيه ثقته . . ويستعين به فى النوائب والملمات . . إنى سأكون لك أماً وأباً وأخاً . . يجب أن نفترق على هذا ، على أن يذكر كل منا صاحبه ولا ينساه أبداً . . وأن نستبدل بالحب صداقة . . ما رأيك ؟

وأحدث قوله المملوء بالطهارة والإخلاص فى نفسى فعل السحر ، وأثر فىّ تأثيراً بالغاً ، وشد كل منا على يد صاحبه

اتفقنا على أن نستبدل بحبنا الجارف صداقة متينة ثابتة .

وقد تسألون أنفسكم : هل يستطيع عاشقان أن ينزعا حبهما ليغرسا مكانه صداقة ؟ وهل تقوى النفس البشرية على مقاومة رغباتها وتبديل مشاعرها وتحويل أحاسيسها ؟

وعلى أية حال . . أستطيع أن أؤكد ، أننا كنا فى عزمنا وقتذاك صادقين مخلصين ، وكنا نحس تماماً أن هذا هو خير عزاء يمكن أن نهدىء به نفسينا ونطفىء به حرقة قلبينا .

وتناول يدى مرة أخرى وهم برفعها إلى شفتيه ، وهو ينظر إلىّ نظرة استئذان خشية أن أسحبها منه كما فعلت قبل ، لقد سحبتها منه فعلا . . لأمدّها برفق هى ويدى الأخرى فأحيطه بذراعى . . وأضمه إلىّ بلا وعى ولا إرادة .

لقد أبيت عليه يدى . . ومنحته شفتى .

ما علىَّ من بأس ولا حرج . . قبلة أخيرة . . هى زاد العمر كله .

أليس من حق الصائم أن يتزود لصيامه حتى يستطيع أن يصلب عوده ويقيم أوده ؟

قبلة واحدة وبعدها الزهد الدائم . . والصوم الأبدى !

والتقت شفتانا فى لهفة عنيفة وشوق مستعر ، وتمنيت

أن تظل شفتانا ملتصقتين حتى آخر العمر ، وأن يجمد فمي على فمه .. فلا ينزع أحدهما عن الآخر أبداً .

وأخيراً أيقظنا من نشوتنا صدح الموسيقى المنبعث من الناحية الأخرى من الحديقة ، فغادرنا الشرفة ، وبنا طرب الثمالى وذهول النشاوى .

أي مجنونة كنت عندما أقدمت على ما فعلت ؟

ماذا كان يحدث لو رآنا أحد ؟

من يصدق أنى أجرؤ على ذلك في يوم زفافي ؟

ليحدث ما يحدث . . إني ما ندمت على القبلة قط . . فقد كانت القبلة أمتع عندى من يوم الزفاف . . وما بعد الزفاف .

وخرجت إلى زوجي !! أجل زوجي !! ألم يجعله المأذون كذلك ؟ !!! خرجت إليه وبنفسي شجاعة وجرأة . . ليفعل بي ما يشاء . . فلقد أمسيت قريرة النفس ، مطمئنة البال .. ليأخذ من جسدي ما يشاء .. فإن مالك قلبي .. ما زال يملكه .



عصبة الذئاب

١٢

قضيت الشهر الأول من زواجى ، شهر العسل ، فى فندق « مينا هاوس » . . ولست أستطيع بالضبط أن أحدد مشاعرى خلاله . . بل ما أظن كانت لدىّ فرصة لكى أشعر بشىء . . فقد كنت أشبه بجواد فى حلبة سباق ! . سباق بين الحفلات ، والدعوات ، والسهرات ، والمآدب الحافلة بصنوف اللهو وضروب التسلية .

لم يكن لدىّ وقت لكى أهدأ أو أفكر .. وكانت حياتنا مثلا للفراغ والجدة . . ولكنه كان فراغاً أشق من العمل وأملأ بالحركة والجهد . ولم أحاول أن أقاوم ، أو أرفض ، أو أخلد إلى الراحة . . فقد كان يبدو لى أن ذلك هو خير معين لى على تحمل حياتى الجديدة . . وأنه خير منقذ لى من التفكير والخلوة . . وتبين حقيقة مشاعرى . . كنت أفضل أن أستمر هكذا كطفل يحملونه من أطراف يديه ويلفون به لفات سريعة حتى يصاب بدوار . . كنت أحس أننى بتلك اللفاتُ السريعة المنهكة من اللهو . . لا بد أن أصاب بدوار ، ولا أعود أشعر بما حولى .

ولم يكن هناك مفر من أن أتعلم الرقص . . وعلامَ المفر ؟!! لقد أبدى لى « توتو » أن هذه مسألة حيوية خطيرة .

فلم أجد بداً من موافقته . وبدأت الدروس ، وبعد بضعة أيام كنت أستطيع أن أشاركه حلبات الرقص ، وأدور معه بين الراقصين .

وتعلمت كذلك احتساء الخمر . ولِمَ لا . . وقد أفهمني زوجي أن من الحطة والمعرّة والجهل أن أرفض الشرابَ . . وأني لابد أن أتعوّد شرب كأس أو كأسين حتى لا أخجله بين رفاقه وزملائه . . وشربت في المرات الأولى كأني أشرب دواء مراً . . ولكنني تعوّدت بعد ذلك . . إن العادة تسهل لنا كل أمر وتذلل كل صعب .

وانتهى شهر العسل وعدنا إلى بيتنا الجديد . . فيلا أنيقة في الدقي أعدت لنا خلال الشهر الذي قضيناه في « مينا هاوس » .

وتوقعت أن يهدأ من حولي ذلك الصخب والضجيج . . وان أبدأ في الدار حياة مستقرة . . وصممت على أن أقوم بواجبي كزوجة خير قيام ، وأن أرعى شئون الدار .

لقد كان « تو تو » رغم تفاهة عقليته وسخافة تفكيره ، رقيقاً معي في شهر العسل إلى أبعد حدود الرقة . . فصممت على أن أبذل جهدي لكي أخلص له بذهني وتفكيري . . وأن أحاول أن أنزع أحمد من قلبي شيئاً فشيئاً . . وأحله محله . لو استطعت .

وبدا لى أنه بشىء من الإرادة أستطيع أن أنجح فيما نويته ولاسيما أنى لم أعد ألتقى بأحمد . . وأوهمنى البعد أن تأثيره على قد خف ووهى .

وفهمت من « توتو » أن إجازته انتهت بانتهاء شهر العسل وأنه عين فى منصب رئيسى ،فى إحدى الشركات الأجنبية الكبرى . . وتوقعت أن يبدأ عمله . . وأن يخرج فى الصباح ويعود فى الظهيرة . . كما يفعل كل ذى عمل . . وأن الأمر قد لا يخلو من ذهابه أيضاً بعد الظهر . . وصممت على أن أبدأ عملى فى الدار كما كنت فى بيت أبى . . وأن أشرف على أعمال الخدم ، وأراقب المطبخ . . وأن أكون « سيدة بيت » بمعنى الكلمة .

ولكننى وجدته يخرج أول يوم ، ثم يعود بعد ساعة . ويطلب منى ارتداء ملابسى للذهاب إلى جروبى . أو إلى « نادى سبورتنج » أو إلى أحد النوادى الأخرى ، لنقضى الصباح بين « شلة » من أصدقائه المتزوجين والعزّاب .

وأدهشتنى عودته . . ولكنه أنبأنى أنه قد أنهى عمله . وأنه لايستطيع أن يعطيهم من وقته أكثر من ساعة . . بل إن ساعة كثيرة عليهم .

والظاهر أن الساعة فعلا كانت كثيرة عليهم . . فقد بدأ

يبخل بها وأصبح لايكاد يذهب إلى الشركة إلا لأخذ مرتبه .

وما العجب فى ذلك ؟ ! وأى عمل يمكن أن يقوم به توتو بك ؟ وهو الذى طالما صرح أنه لايكره شيئاً كالعمل . إن العجيب حقاً هو أن يعطوه عملا ، إذ كان كل ما يطلب منهم هو الراتب الشهرى ، مراعاة لخاطر « صاحب الدولة » وتوقعاً لعودته إلى الحكم . . وكانت الشركة بعيدة النظر فلم نبخل عليه به لأنها لا تريد جهد « توتو بك » أو خبرته . . ولكنها تريد نفوذ أبيه .

وهكذا بدأت أجد نفسى مرة أخرى فى شهر عسل جديد ، وقد يكون قضاء شهر فى الفراغ واللهو أمراً يمكن احتماله ، أما أن نقضى العمر كله هكذا فذلك ما أفزعنى .

لقد تعوّدت دائماً أن أفعل شيئاً ، وأن نقضى بعض الوقت فى اللهو للترويح عن نفسى بين آونة وأخرى ، ولكنى لم أتصوّر قط أن أضيع كل وقتى فى اللهو . . لقد كان هذا فوق طاقتى ، فما كان لى جلد على ذلك الإجهاد والسهر .

لقد أخذت السآمة والملل تعتريني . . حتى بدأت أجد بعض التسلية فى أحد النوادى التى يعلم فيها ركوب الخيل .

كنت أفضل أن أضيع وقتى — ما دام لا بد من تضييع الوقت — فى هذا النادى دون غيره من الأماكن المضيعة

للوقت ، لأنه كان أكثر هدوءاً . . ولأن روّاده كانوا قلة محدودة . . وكانت جلسته أقرب إلى أن تكون جلسة منزلية عائلية .

وكان النادى محبباً إلى نفسى ، وكنت أشعر بارتياح شديد إليه . . وكنت أعجب بمنظره وأبنيته والجو المحيط به . . لست أدرى لمَ ! ! فكثيراً ما يرتاح الإنسان إلى شىء دون أن يحاول أن يناقش نفسه فى سر ذلك الارتياح .

كان يعجبنى كل شىء فيه . . صالونه الزجاجى الذى يطل على الميدان الأخضر الفسيح ، تبدو فى أفقه أشجار الكافور والجازورينا ، والسرو المحيطة به . . والمدخنة التى تتراءى لى فى أقصى الأفق من وراء الأشجار . . والذى قد تناثرت فيه حواجز القفز . . وتفرقت فيه الخيل تسير خبباً وقد اعتدل عليها ركابها . . وبدا شعرها فى الشمس فضياً لامعاً أو أشقر براقاً :

وكنت أجلس على الآرائك المنخفضة أرقب الميدان من وراء الزجاج أو أتسلى بالقراءة فى أشعة شمس الشتاء الدافئة التى سمح الزجاج بحرارتها ، بعد أن حجب عنا برودة الريح .

كان كل شىء يشعرنى بارتياح . . صور الخيل الملونة

الأنيقة المثبتة على الجدران ، والفناء الخلفى المغلق المفروش بقش « السبلة » .

وكنت كذلك أستطيع عند ما أمل الجلوس والحديث والقراءة أن أخرج إلى منضدة « البنج بنج » الموضوعة فى الشرفة الخارجية ، فأتسلى باللعب مع بعض الصديقات أو الأصدقاء .

كل ذلك كان يجعلنى أفضل النادى على سواه من الأماكن التى كنا نرتادها كجروبى أو نادى « أسبورتنج » أو غيرهما .

وثمة سبب آخر . . سبب خفى لم يكن يجسر على أن يطل برأسه صراحة بجوار غيره من الأسباب .. ولا أن يتخذ مكانه فى ذهنى .. ويجرؤ على أن يجول بخاطرى دون خجل . . ولا خشية . . بل كان يرسب فى قرارة نفسى قابعاً منزوياً . . فى سكون وهدوء كأنه غير كائن .

كان السبب أقواها جميعاً . . بل إنى عند ما أحاول الآن أن أحلل مشاعرى وقتذاك أجده هو وحده أساس ذلك الارتياح والرضا والتفضيل .

كنت أحب الفروسية والركوب والسبلة ، وكل ما يمت إلى الخيل بصلة . . لأنى كنت أشم فيها عبق الماضى العطر . .

وأسمع فيها لحنه الممتع .. كنت أرتاح إلى كل هذه المناظر لأن فيها أصداء من الذكريات الغابرة . . وكنت أكاد أبصر فيها « أحمد » .. وأذكره بحذائه الطويل ، وقوامه الفارع ، وجلسته على الحصان .. وحديثه عن الاصطبلات والطومار وأحواض السقى والعليق .

كنت رغم محاولتى الإخلاص لزوجى بالجسد والذهن ، ورغم نجاحى فى ذلك . . وقناعتى بحياتى الجديدة ، ورضائى بحالتى الراهنة . . وتوهمى أن حب « أحمد » قد تضاءل فى قلبى وانكمش .

كنت رغم ذلك كله لا أستطيع التخلص من ذلك الحنين الخفى . . الذى لا يجرؤ على الظهور والذى يجعلنى أستريح إلى مكان معين دون أن أدرى لارتياحى سبباً .

ولم أحاول طبعاً أن أدخل فى روعى أن ارتياحى للفروسية وميلى الخفى إلى الخيل ، يعتبر خيانة لزوجى ، لأنى كنت واثقة من نفسى مطمئنة إلى قدرتى على أن أعصم نفسى من الزلل . . بل إنى كنت رغم رؤيتى لكثير من ضباط السوارى والحرس ، ورغم توقعى أن أرى « أحمد » فى أى يوم ، لم أحاول أن أسمح لنفسى بأن أتلهف على لقائه أو أتوق

إلى رؤيته .. بل كنت أكثر من ذلك أشكر الظروف لأنى لم أره فى النادى قط .

وسارت حياتى على وتيرة منتظمة لا تختلف يوماً عن يوم ، واستطعت أن أتعود حياة الخمول والفراغ فلم أعد أتبرم بها كثيراً .

كنا نستيقظ فى التاسعة أو العاشرة ، وبعد مضى ساعة من الاستيقاظ نكون قد انتهينا من الإفطار ، وارتدينا ملابسنا ، ثم نخرج قاصدين إلى النادى ، أو جروبى ، أو إلى إحدى دور السينما ، ثم نعود فى الثانية بعد الظهر إلى البيت للغداء .. إذ لم نكن قد دعينا لتناوله عند بعض الأهل أو الأصدقاء . . وبعد الظهر نذهب إلى أحد الأماكن التى لم نذهب إليها فى الصباح ، وفى الليل إما أن نذهب إلى السينما أو إلى حفلة راقصة ، أو إلى ملهى من الملاهى الليلية .

وكنا فى معظم نزهاتنا . . مع صحبة معظمهم من الأزواج الذين لا يختلفون فى مشاربهم وأهوائهم وتفاهاتهم عن زوجى .. والزوجات اللاتى لا يختلفن عنى كثيراً بعد أن أضحيت زوجة .

وهل أستطيع أن أنكر أنى قد صبغت بصبغتهم المدللة

التافهة؟ ألم يقل المثل «من جاور الحداد كوته بناره» ، «ومن عاشر القوم أربعين يوماً صار منهم»؟

وكان معظم لقائنا مع الصحبة فى النادى ، ولا أنكر أن الفترة الأولى من صداقتنا لهم كانت بريئة لاتشوبها شائبة ، أو على الأقل ، إنى كنت مخدوعة بمظهرهم ، حسنة النية فى ظنى بخلقهم . . ما ظننت قط أنهم عصبة ذئاب ينهش بعضها ظهور البعض الآخر .

لم أكن أتوقع قط أن يخيب أملى فى ذلك النادى الحبيب إلى نفسى بمثل هذه السرعة ، وأن يتضح لى أن النادى للخيل وللذئاب .

كنت حسنة النية حتى بدأت ألاحظ ذات يوم أن أحد الأصحاب «العزّاب» يلازم زوجة صاحب آخر كظلها ، وأنهما كثيراً ما يختليان فى أحد الأركان فيقضيان الساعات فى همسات خافتة . وأدهشنى الأمر ، وقلت «لتوتو» : إن فلاناً وفلانة لا يبدو منظرهما وتصرفهما مستساغاً ، وأنه يجب عليهما أن يراعيا مشاعر الزوج .

ووجدت «توتو» ينظر إلىّ ثم يضحك فى سخرية :

ــ الظاهر إنك ما زلت «غشيمة» . . . هذه الأشياء طبيعية جداً .

وأصابني الدهش وقلت متسائلة :

— ماهي تلك الأشياء الطبيعية التي تتحدث عنها؟

— سرقة الزوجات من أزواجهن ، والأزواج من زوجاتهن . . هنا ناد ، وخاطبة . . كان يجب أن يطلقوا عليه « النادي الشرعي » لكثرة ما يحدث فيه من حوادث الطلاق والزواج ، أو على الأصح . . النادي غير الشرعي .

وأجبته مستنكرة :

— عجباً ! ! ما ظننت أشياء كهذه تحدث في ناد محترم ، وبين قوم لهم مكانتهم . .

— وما دخل ذلك في الاحترام . . هنا يطلق الأزواج ويتزوج العزاب . . إذا دخل متزوجاً خرج أعزب ، وإذا دخل أعزب خرج زوجاً . . لذلك كنت أفضل أن أدخله وإياك قبل الزواج حتى نخرج منه زوجين بدلا من أن نخرج مطلقين .

— هذا تشنيع منك !

— تشنيع ؟ . هذه أقوال تستند على وقائع . . اسمعي . . هل تعرفين على بك رسمي . . لقد اشترك في النادي عزباً ، أما زوجته فقد كانت زوجة أحمد عبد الله . . هذه واحدة . عدى على أصابعك ، أما مدام سماحه ، فهذا ثالث لقب لها ، فقد

كانت منذ بضعة اشهر « مدام فتوح » ، ومنذ ستة كانت « مدام محرز » والأزواج الثلاثة أصدقاء وزملاء فى النادى . وعلى فتح الدين ، لقد « لطش » زوجته تلك من « مسيو سكارابى » ، ويبدو لى أن الأخير يوشك أن يستعيدها منه ، وابراهيم زكى ، وعلى عبد الرحمن . . تبادلا زوجتيهما . ما رأيك ؟ أتعتبرين أقوالى تشنيعاً ؟

— هذه أشياء عجيبة ، لا يصدقها عقل !

— على أى حال . . لا يقلقك أمر محمود ، ودعى زوجته تتناجى مع فتحى ، حتى تتيح له الفرصة لمراودة أخته « ميمى » . إنهـا حلقة مفرّغة ، ليس فيها خاسر ، فهذا ينهش ذاك ، وذاك ينهش هذا .

واقشعرّ بدنى ، من أقواله ، وبدأت أحس بكره للنادى واحتقار لأعضائه ، ولم أعد منذ ذلك الحين أشعر بذلك الارتياح الذى كنت أحسه من قبل ، وبدأت أتوجس من كل نظرة خيفة ، وأتوقع وراء كل حديث شراً .

ويخيل لى أن أقوال زوجى لم تكن سوى مقدمة لأحداث توشك أن تقع ، وأنه هو نفسه كان ينوى أن يتخذ مكانه فى الحلقة المفرّغة ، وأنه كان يستعد لخوض معركة الذئاب . . والاشتراك فى عملية « النهش » .

كان من بين أصدقائنا الأقربين .. زوجان : محمود شكرى وزوجته فاطمة صالح ، أو كما كنا ندعوهما : حوده ، وطمطم ، وكان الزوج أحد أولئك المخلوقات التى حرمها الله أية مزية من المزايا التى يمكن أن ينعم بها على عباده . . إلا مزية واحدة عوّضته عن بقية المزايا خير عوض ، وهى أنه خرج إلى الحياة فوجد فى انتظاره بضعة آلاف من الأفدنة ، وكوماً من النقود قد كدّ فى جمعه أجيال من الآباء والأجداد ، وبذلوا فى سبيل الحصول عليه ما ملكوا من عرق وجهد ، وصحة وشباب . . وقد يكونون ضحوا من أجله بالكرامة والخلق . . ولقوا من وراء جمعه صنوف الشقاء فى الدنيا ، واستحقوا العذاب فى الآخرة . . لقد ضحت الأجيال المتعاقبة بالعاجلة والآجلة لكى يجمعوا كل هذا الحشد من الثراء . . ثم ذهبوا جميعاً ، وخرج صاحبنا الغبى المقعد المكسال . . الذى لا يستطيع أن يكسب مجرد القوت . . ليجد كل ماشق التعساء فى جمعه ، لقمة هنيئة مريئة ، ويجد كل مهمته فى الحياة محصورة فى أن يصرف ذلك الكوم من الثراء . . وأن يأكل تلك اللقمة السائغة الجاهزة . . لا يطلب منه إلا جهد الصرف ، ومشقة المضغ ، ولو استطاع أن يستعين بمن يفتح له فمه ويحرك له فكيه . . لفعل . . كان الله فى عونه .

هذا هو «حوده بك»، وظيفته فى الحياة .. غنى . أو .. وجيه .. أو «صريف» .. وكنت أرى فيه — هو وأمثاله — نصف إنسان . . فالإنسان الطبيعى وظيفته فى الحياة . . هى الحصول على النقود لكى يصرفها فى سبيل العيش . . أما هو فكان نصف إنسان . . النصف المتمم . . للنصف الأول . . وهو أبوه الذى أورثه ما ملكْ . كان أبوه يحصل على النقود ولا يصرف .. أما هو فيصرف مالم يحصل عليه . . صدق من قال «مال الكنزى للنزهى» . أما طمطم . . فقد كانت تقوم بدور «أوجه الصرف»، أو البالوعة التى تتسرّب فيها ثروة الآباء الكرام .

كانت امرأة فاتنة . . جمالها من النوع الصائح الصارخ . . الصاخب الضاج . . الذى يمسك بتلابيب الأبصار ، ويفغر الأفواه .. «ويلوح» الرقاب .. كانت عند ما تجلس أو تسير تشرئب إليها الأعين وتمتد الأعناق . . فإذا سارت ظلت العيون تتعقبها حتى تختفى .

ليس من السهل على المرأة أن تعترف بجمال امرأة أخرى، ولكنى أقر وأعترف أنها كانت أجمل من رأيت .

كانت عاجية الجسد ، بيضاء نقية ، وكان وجهها مرسوماً بمنتهى الإتقان لا عيب فيه ولا هنة ، وكانت به استدارة

حلوة ، وكانت شفتاها مصنوعتين جيداً ، وأنفهـا دقيق ، وأهدابها تلقى على عينيها الخضراوين الصافيتين ظلالا قاتمة .

وكنت أحبها وأحسن الظن بها ، رغم طيشها ونزقها . . وكنت واثقة فيها .. لم يخطر ببالى أن أغار منها على زوجى . . أولا لأنى لم أكن أشعر بأى استعداد للغيرة على زوجى . . وثانياً لأنى كنت أعلم أن لها زوجها

ولـكن حدث أن بدأت ألمح إقبـالا منهـا على زوجى ، وإقبالا منه عليها . . وقد يكون ذلك شىء غير جديد ، فلعله كان موجوداً من قبل . ولـكن لم يفتح له عينى سوى حديث زوجى المستهتر عن أعضاء النـادى ، وعن سرقة الأزواج والزوجات .

ولم أعر الأمر كثير اهتمام فى بادىء الأمر ، ولم أبد أقل اكتراث عندما كان يتركنى ألعب البنج بنج ، ويخلو هو إليها فى أحد الأركان يتهامسان ، أو يحاول أن يذهب لتوصيلها بالعربة إلى أى مكان تريد الذهاب إليه .

ولم أبد أقل عناية بتلك الحركات ، بل كنت أحتقر نفسى لو حاولت الاهتمام بذلك الإنسان التافه ، زوجى . . وكنت أعتبر غيرتى عليه تـكريماً له لا يستحقه .

ولـكن المسألة بدأت تدهشنى عندما وجدت أن زوجها

«جوده بك» لا يغير الأمر أيضاً كثير التفات ، وأنه لم يظهر أقل غيرة ، ولا أدهشه أن تخرج زوجته مع زوجي ليوصلها بعربته . . رغم وجوده هو وعربته .

لقد بدا لي كأنه يجد المسألة جد طبيعية .

وحتى هذا لم يكن يثيرني .. فما كنت أعتبر نفسي مسؤولة عن صيانة شرف الرجل ، وإثارة نخوته ورجولته . . إذا كان لا يغار على زوجته ، فذلك أمره وحده ، لا شأن لي به .

ولكن الذي أثارني تماماً . . وجعل دمي يغلي في عروقي هو أن الزوج المحترم ، بدأ يلازمني ، وينصب شراكه حولي ، ويحاول أن يستعيض بي عن زوجته ، أو أن ينهش عرض من نهش عرضه . . وإذا بي أجد نفسي - دون أن أدري - داخل الحلقة المفرّغة .

ولم يأبه زوجي ولم يعترض . . كما لم يأبه الآخر ولم يعترض . فقد كان في شغل شاغل عني بزوجة صاحبه . . كما كان صاحبه في شغل شاغل عن زوجته بي .

وتملكني غيظ شديد . . فقد وجدتني لا أزيد لدى زوجي عن سلعة بسيطة يملكها . . ليس أسهل عليه أن يستبدلها أو يستعيض عنها .

ولم أجد هناك فائدة من أن أثير زوجي أو أثور عليه ،

أو أفهمه أنى لست على استعداد بالقيام بذلك الدور المهين ، فقد أدركت أنه لن يعبأ بى . . ولن يقلعه عن غيه خوف على عرض ، أو ثورة على شرف . . وما دام قد استساغ لقمة غيره . . فليستسغ غيره لقمته . . أو - كما قال - مادام يَنْهَش فلا بأس عليه من أن يُنْهَش .

ورأيت أن خير ما أفعله هو أن « أرمى طوبته » . . وأن أدافع عن نفسى بنفسى وأن أتجاهله وأتغافل عنه . . معتبرة نفسى بلا زوج . . وأن أتركه يسير فى غيه ، على أن أصد عن نفسى هجوم الآخر . . أتقيه وأتحاشاه . . وأن أتسلل ناجية بنفسى . . هاربة من عصبة الذئاب .

ليفعل زوجى ما يفعل . . فما توقعت منه إلا كل نقيصة . . وما كان لى أن أدهش من أى مكر تأتيه عصبته . . عصبة الذوات المدللة المرفهة . . الأرستقراطية العليا . . القديرة على كل سفالة . . الرقيقة المتهتكة . . الراطنة بالفرنسية . . المترفعة عن الشعب . . شعب الهمج والأوباش .

ليغازل زوجى من يشاء . . وليسرق من الزوجات من يرغب . . فلن يكون لى به شأن . . ولن أكرمه بالغيرة أو الاهتمام . . إن واجبى هو أن أترفع عنهم جميعاً . . وأن أبقى شريفة عفة فى هذا الوسط الملوّث .

أجل . . سأدعه وشأنه . . ولكن . . عليّ نفسي .

وهكذا بدأت أتخذ لنفسي خطة الانكماش والتباعد . . وتحاشى صحبة السوء . . وتجنب محمود شكري على الأخص والإعراض عنه . . والنفور منه . . حتى أصده تماماً .

وأقللت من الخروج ، وخاصة إلى النادى . وبدأت أقبع في داري . ولم أجد إلحاحاً من زوجى فى اصطحابى معه كما كان يفعل دائماً عندما كنت أحاول أن أتخلف فى البيت . . بل بدا لى أن ذلك قد صادف هوى فى نفسه إذ كان يتيح له فرصة الانطلاق وحده والتحرر من قيود صحبتى حتى يخلو له الجو مع صاحبته الجديدة « طمطم هانم » .

وانقطعت تماماً عن الذهاب إلى النادى . . حتى كان موعد الحفل السنوى ، وذهبت بصحبة زوجى إلى النادى فى اليوم النهائى للاحتفال ، وكان النادى قد اكتظ بالمشاهدين ، ورأيت مدرجات طويلة قد أقيمت على الجانب الأيسر للساحة .. الجانب الملاصق للسور المطل على النيل ، وابصرت الأعلام الملوّنة ترفرف فى أعلى الأعمدة . . والحواجز البيضاء قد رصت فوق الأرض الخضراء ، وفى أحد الأركان أقيمت منصة الحكام وقد أخذوا يتشاورون ويعلو صوت أحدهم فى مكبر الصوت بين آونة وأخرى .

واتجهت وزوجى إلى مبنى الأعضاء .. وقد بدا كخلية النحل ، وأخذ الضباط يجولون فى المكان بأحذيتهم الطويلة وأزرارهم اللامعة ، والزرد الفضى الذى يحلى أكتافهم .. أما المتسابقون المدنيون فكانوا يبدون بأحذيتهم السوداء وبنطلوناتهم البيضاء وستر هم الكحلية الطويلة .

وقد شاع فى المكان جوّ من الأبهة والأرستقراطية ، وبدا كأنه معرض جمـــال وأزياء .. ووجاهة .. وأخذ المصوّرون الصحفيون يلتقطون الصور للشخصيات المعروفة والوجوه الجميلة .

وصعدت وزوجى إلى الشرفة العليا .. وتلفت زوجى يميناً ويساراً كأنه يبحث عن شىء معين .. ثم وجدته يمسك بيدى ويقودنى إلى أحد الأركان قائلا :

ـــ هيا بنا نجلس بجوار حوده وطمطم .

وسرت بجواره .. فقد كان من الحمق أن أبدى أى حركة غير طبيعية للتراجع أو الانسحاب أمام حشد الناس الذى يحدق فينا .

ولِمَ التراجع ؟

ماذا يضيرنى من أن أصاحبهما خلال الحفل ثم نفترق بعد ذلك ؟ !

وتبادلنا التحيات وسألا هما وغيرهما من الرفاق الجالسين معهما . . عن سبب اختفائى وإضرابى عن المجىء إلى النادى فضحكت وقلت إنى كنت متوعكة المزاج .

وجلسنا نتحدث ، وأعطانى أحدهم برنامج المسابقات . . وأخذت ألقى على أسماء المتسابقين نظرة عابرة .. توقف بصرى خلالها أمام اسم بارز من بين الأسماء وهو « ملازم أول أحمد عبد السلام » .

ودهشت قليلا لأنى لم أتوقع أن أجده مشتركا فى المسابقات ، ولأنى لم أبصره قط راكباً فى النادى . . وحتى اليوم لم ألمح وجهه بين وجوه الضباط الرائحة الغادية ، رغم أنى كنت أبحث عنه بعينىّ خفية .. خفية حتى عن نفسى .

وبدأ السباق .. ودخل المتسابق الأول الساحة وأخذ فى القفز .. ولم تمض بضع ثوان حتى أحسست بـ « طمطم » تنهض وتنسحب من جوارنا مستأذنة قائلة إنها ستعود حالا .

وانتهى المتسابق الأول . . وعلت أصداء التصفيق . . ثم نودى على المتسابق الثانى .. وبدأ القفز .

وبنفس الطريقة تسلل زوجى من جوارى ، ووجدت نفسى أجلس وحيدة مع محمود شكرى .

وشعرت بدمى يغلى فى عروقى .

إنى لم أحاول قط أن أغار .. أو أتصرف بأى حمق .

ليفعل زوجى ما شاء . . ولتفعل الأخرى ما شاءت . . ليذهب الإثنان معاً ، إلى الجحيم ، فذلك ما لا أعبأ به مطلقاً ولكن تسللهما وقتذاك . . بتلك الطريقة المكشوفة . . وتركى وحيدة مع الزوج البارد المتغاضى . . وتهامس الناس . . وتحوّل أبصارهم من ساحة السباق إلىّ جعلنى أغلى بالغضب .

لم تعد المسألة مسألة غيرة . . ولكنها كرامة مهدرة وكبرياء محطمة .. واستهتار بى .. واستخفاف بعواطفى .. على ملأ من الناس .

ولم أستطع أن أمنع ذلك الدم المتصاعد إلى وجهى . . والحرارة التى تنبعث منه .

وزاد من ثورتى أنى أحسست بيد الزوج الأحمق تتسلل فتوضع على يدى بمنتهى البساطة .

ولم أجد وسيلة تكبح جماح غضبى ومنع حدوث فضيحة سوى أن أنهض أنا الأخرى بهدوء ، وأعود أدراجى إلى البيت وأنتظر عودة زوجى حتى أسوى الأمر معه .

وكما فعل الإثنان فعلت ، وتسللت بين الصفوف هابطة الدرج إلى أسفل ، ودلفت من الممر الضيق متجهة إلى الشرفة

السفلى التى كانت توضع فيها منضدة « البنج بنج » . عند ما أوشكت أن أصدم بشخص قادم من الشرفة .

ورفعت إليه بصرى .. متمتمة ببضعة كلمات اعتـذار . . فوجدته أحمد .

وحاولت جهدى أن أخفى ما بى من انفعال . . ومددت إليه يدى مبتسمة فشدّ عليها . . وقد تهلل وجهـه سروراً . . وسألنى سؤاله التقليدى :

— إزيك يا عايده !

— الحمد لله .

— إلى أين ؟

— إلى البيت .

— لِـمه ؟

— أحس ببعض التعب .

وبدا عليه الانزعاج وتساءل :

— كيف ؟

— صداع خفيف .. ولـكنى أفضل أن أستريح .

— ألا تبقين قليلا . . على الأقل حتى تشاهدينى ؟

وذكرت كيف كان دائماً يقول لى إن أحب أمنية الـه

هو أن أشاهده يقفز أمامى فى مسابقة ، ويعتقد أنه سيستمد من وجودى قوة تجعله يأتى بالمعجزات ، ويقفز إلى عنان السماء .

وبدا علىّ التردد .. فعاد يقول :

ــ إنك لم تشاهدينى أقفز قط ، وسأستمد من وجودك ثقة . إذا عرفت أنك تشاهدينى فلابد أنى فائز . . أستبقين ؟

ولم أكن أستطيع أن أقول : لا . فهززت رأسى موافقة .

وشاع فى وجهه الرضا وقال :

ــ أمامى اثنان حتى يحل دورى . . لن أجعلك تنتظرين طويلاً .

وسرت إلى الصالون الزجاجى . . وهو يسير بجوارى ، واتخذت مجلسى على مقعد أمام إحدى المناضد ، وأشرت إليه بالجلوس . . وتردد قليلا وسألنى فى أدب ، وبلهجة ملؤها الاحترام :

ــ أين تهانى بك ؟

ــ تهانى بك ؟

وكدت أقهقه ساخرة .

ماذا أقول له ؟ أأقول إنه « زاغ » مع عشيقته وتركنى ليتسلى بى زوج عشيقته ؟

تصوّروا لو أنى قلت له هـــذا ، وهى الحقيقة المبسطة بلا أى مبالغة . . ماذا كان قائلا لى ، وهو الذى يأبى الجلوس دون أن يسألنى . . عن زوجى . . سعادة البيه المحترم .. خشية أن يكون فى جلوسه بجوارى أمام الناس — وهو ابن خالتى — مايضايق زوجى .

تصوّروا لو أنى قلت له :

« اجلس . . إن زوجى لا يأبه كثيراً . . إنك على الأقل أولى من الغريب » .

ولكنى لم أر ضرورة للفضائح ، ولم أجد خيراً من أن أقول له ببساطة :

— لقد كان هنا منذ لحظة ولابد أن يأتى بعد قليل .

وجلس بجوارى ، وران بيننا — فى أول الأمر — صمت قلق مضطرب ، وأحسست بموجة الغضب التى كانت تجتاحنى منـــذ برهة قد سكنت ، وبالثورة التى كانت تصطخب فى صدرى قد هدأت ، وسرى إلى نفسى — برغمى — شعور ممتع لذيذ منتزع من أغوار المـاضى السحيق .

وطال الصمت ، وأنا لا أقول شيئاً ، إذ لم أجد فى رأسى ما أقول سوى بضع كلمـات تافهة ، لا تتناسب قط مع حرارة الأحاسيس التى تزخر بها نفسى .

وأخيراً قال . . لمجرد قطع الصمت :

ــ كيف حالك ؟

ــ الحمــــد لله . . وأنت ؟

وأطرق برأسه مفكراً ثم أجاب :

ــ لا بأس . . الحيــاة تسير .

وتذكرت أحاديثه عن أمانيه . . الأماني المرجوّة والتي يعيش بها زمناً رغداً ، وقلت ضاحكة :

ــ كيف حال الأماني ؟

ــ على خير ما يرام .

ــ أما زالت كما هي أماني مستطاعة وأماني وهمية ؟

ــ هل ما زلت تذكرين ؟ . . إني لا أستطيع العيش بلا أمان . . ولكن الأماني تتغير مع الزمن . . فهي إما أن تتحقق أو لا تتحقق . . فما تحقق منها سقط من حساب الأماني . . وما لم يتحقق أصابنــا منه اليأس . . واستبدلنا به غيره بما يتناسب مع تطور نفوسنا .

ــ هل ما زلت تتمنى أن تكون نابليون أو شكسبير ، أم أن هناك أماني أخرى تعيش بها زمناً رغداً ؟

وضحك في قهقهة خفيفة وأجاب وهو ينظر إلى عيني :

ـ من هذه الناحية . . لقد تبدلت أمانىّ تماماً . . لقد يئست من نابليون وشكسبير . . لم تعد هذه الأمانى تطربنى كما كانت من قبل . . لقد أضحى لدىّ أمنية جديدة . . بنفس الاستحالة ونفس البعـــد . . لا أمل فى تحقيقها ، ولا رجاء فى الحصول عليها . . لكنى مع ذلك أحيا بها زمناً رغداً .

ـ ترى ماهى الأمنية الجديدة ؟

وصمت برهة ، وحاول أن يتشاغل بمشاهدة القفز . . ولكنى عدت أسأل :

ـ ماهى ؟

ولم يجب . . فعدت ألح :

ـ ألن تقول لى ما هى ؟

ـ لا . . لا أستطيع .

ـ والأمانى الأخرى . . التى كنت ترجو تحقيقها ؟

ـ تحققت كلها . . تقريباً . . تحققت كما أراد القدر ، لا كما أردت أنا ، شـــقة متواضعة ، وزوجة طيبة ، وعربة صغيرة « على قد الحال » . . أما الابن فى الطريق . . ننتظر قدومه فى القريب العاجل .

ـ أحقاً توشك أن تصبح أباً ؟

ـــ أ كثير عليّ ؟

ـــ ما زلت صغيراً . . ماذا تنوى أن تسمى ابنك ؟

ـــ لو كان ولداً سميته علياً .

ـــ ولو كانت بنتاً ؟

ـــ أنت أدرى بأحب الأسماء إليّ .

ـــ حتى الآن ؟

ـــ حتى آخر العمر .

وأحسست أن مشاعرى ترهف ، وعواطفى ترق ، وخشيت من نفسى ومن الجو الشاعرى الذى أحاطنا ، وقلت أحوّل مجرى الحديث :

ـــ كيف حال ابتسام ؟

ونجح قولى فى تبديد سحب الحنين التى خيمت علينا ، وعاد كل منا إلى نفسه ، وأجابنى بهدوء :

ـــ الحمد لله ، لقد أجهدها الحمل كثيراً ، منذ الشهر الأول وهى فى تعب مستمر . . قىء وغثيان ، وقد بدا عليها الضعف والإرهاق ، ويخشى الطبيب الذى يعودها ألا يكون الجنين فى بطنها فى وضع طبيعى .

وبدا لى من لهجته للمرة الأولى أنه ينوء بعبء حياته . .

وأنه لم يعد ذلك الإنسان الممتلىء بالآمال . . الشديد الثقة بالحياة والمستقبل .

أجل . . إنه لا يبدو أسعد منى حالا ، ووددت لو طالت جلستنا وأفضى كل منا للآخر بهمومه ، وتشاركنا فى الشكوى . ألم يقل لى فى آخر مرة إننا يجب أن نفترق أصدقاء . . وأن نحوّل حبنا إلى صداقة ؟

وقلت له فى صوت خافت:

ـــ إنك لا تبدو سعيداً !

ـــ لا أنا سعيد ، ولا أنا شقى . . حياتى طبيعية كغيرى من المخلوقات . . أكل ، وشرب ، ونوم ، ومتـــاعب ، ووقت يمر . . ماذا يمكن أن نرجو من الحياة أكثر من ذلك . . إن الحقائق ليس فيها شىء من بهاء الأمانى ورونقها .

وعلا صوت المكبر من شرفة الحكم يأمر أحـد المتسابقين بالبدء فى القفز ، وينبه الذى يليه ـــ الملازم أول أحمد عبد السلام ـــ للاستعداد .

وقام أحمد . . ومدّ يده يشد بها على يدى قبل أن يذهب لامتطاء جواده . . وهتفت به بلهجة ملؤها الاخلاص :

ـــ شد حيلك . . لابد أن تفوز .

ـــ أنت التي ستجعلينني أفوز .

ـــ إن شاء الله .

وبعد انصرافه جلست مكاني برهة ، ثم غادرت الصالون إلى الشرفة الخارجية . . حيث كان يجلس حشد من الأصدقاء والصديقات ، فاتخذت مجلسي بينهم ، وجلست أرقب القفز .

وانتهى دور الراكب دون أن ألقي إليه كثير التفات . . فقد كانت الأفكار تصطخب في رأسي ، وكان الذهن يتنقل في شروده بين غضب على الزوج ودعاء لفوز الحبيب . . أعني الحبيب السابق .

وبدأ دور « أحمد » . . . وخرج بجواده من الساحة الصغيرة ، التي تصطف بها خيل المتسابقين ، خلف مظلة الحكام . . وتقدم الهوينا في ثقة واعتداد . . رافع الرأس ، بارز الصدر . . ورفع يده بالتحية للحكام ، ثم أدار جواده تجاه السدود .

وأحسست بقلبي يخفق بشدة . . كأني أنا التي امتطيت الجواد وأوشك أن أقفز . . وخيل إليّ أن السدود مرتفعة جداً ، وتمنيت أن أصيح به لأمنعه عن القفز خشية عليه .

ولكني لم أكن أملك إلا أن أكتم أنفاسي وأرقب .

وانطلق الجواد يضرب الأرض بشدة وقد رفع رأسه وفتح خياشيمه وسار ببطء نحو السد الأول ، وأخذ يقترب حتى أضحى منه على قيد خطوات دون أن يبدو أنه قد تحفز للوثوب ودون أن تكون لديه القوة الدافعة لتجاوز السد ، حتى كدت أجزم أنه لن يقفز . . ومع ذلك فما كاد يصل إلى السد حتى وجدته قد وثب بقدميه الأماميتين إلى أعلا ، ثم هبط بهما من الناحية الأخرى مخلصاً قدميه الخلفيتين بمنتهى البساطة والسهولة ، وأتم القفزة بهدوء كأنه لم يقفز ، ثم اتجه الى السد الذى يليه .

وكان السباق سباق قوة التحمل ، وهو سباق شاق .. مرتفع الحواجز متعددها لا يكاد الراكب يسلم فيه من الخطأ ولذا لا يعمل فيه حساب للزمن .

واستمر «أحمد» فى قفزه عابراً الحواجز الواحد تلو الآخر بمنتهى الهدوء والثقة ، والجواد يخلص سيقانه بمهارة عجيبة .

وملأنى الاطمئنان وأنا أراه يقفز بسهولة وأحسست بفخر وكبرياء وأنا أسمع همسات الإعجاب تعلو من حولى ، وأبصرت الأيدى تتحفز للتصفيق وقد أوشك «أحمد» أن ينتهى دون أن يخطىء مرة واحدة .

ولم يكن قد بقى سوى الحاجز الأخير وهو حائط خشبى ،

رص فى أعلاه قوالب خشبية أشبه بقوالب الطوب . . ووثب الجواد فوق السد مخلصاً قدميه الأماميتين ، ولكنه لم يكد يهبط إلى الأرض ليخلص الخلفيتين حتى تعثر وكبا . . وانقلب راكبه فى الهواء ، ودار الاثنان واختلط الراكب بالجواد حتى بدا كأنهما قد أصبحا قطعة واحدة .

وانطلقت منى صرخة مدوّية . . وانطلقت بلا قصد ولا إرادة . . فقد أحسست كأن يداً قاسية تعتصر قلبى . . وكأنى أنا الذى أدور على الأرض مع الجواد ، وخيمت على عينىّ سحابة عندما أبصرت « أحمد » يرقد وراد الحاجز بلاحراك ، ثم أبصرت المرئيات تختلط فى ناظرى . . والأرض تتمايل وتتأرجح ، ولم أعد أحس بشىء .

لقد صرخت ، وسقطت مغشياً علىّ !

كيف حدث هذا ؟ . . كيف أفلت منى الزمام ، ففقدت سيطرتى على نفسى ؟ لقد كان منى عملا لا شعورياً ، ولو كنت أملك نفسى وكان أمرى بيدى لما وقع منى مثل هذا الأمر الذى قد يعتبر أمراً مشيناً والذى يفضح خبيئة النفس ويهتك حجب القلب .

ولكن كيف أراه يسقط تلك السقطة المروعة وأتمالك نفسى ؟ كيف أرى الجواد يسقط فوقه وأبصر جسده العزيز

الحبيب مسجى على الأرض ، ولا أصرخ ولا أفقد مشاعرى ؟

لقد حركت سقطته كامن الحب وأيقظت هاجع المشاعر فلم أر فى الجسد الهاوى المسجى .. إلا أحمد «القديم» ، حبيب الروح وتوأم النفس .

وأفقت بعد قليل لأجد نفسى مضطجعة على أريكة فى الصالون ، وقد تجمع الأصدقاء حولى يحاولون إعادتى إلى رشدى ، ومن بينهم استطعت أن أميز وجه زوجى ، وقد علته علامات الدهش والانزعاج .

وللمرة الثانية وجدتنى أتصرف على غير إرادة منى فأسأل فى لهفة وارتياع :

ــ ماذا حدث له ؟

وقال أحد الأصدقاء مهدئاً :

ــ لا خوف عليه . . ليس به سوى بعض الرضوض .

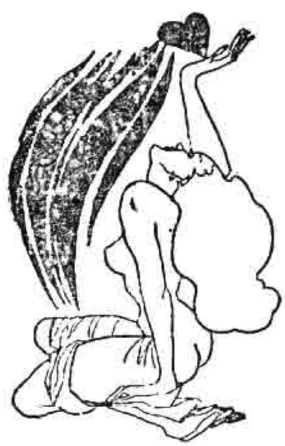
واستطعت أن ألمح فى بعض الوجوه تساؤلا وتغامزاً .

ثم بدأ الجمع ينفض من حولى ، وينصرفون لمشاهدة السباق ، ووجدت نفسى وحيدة مع زوجى .

وتذكرت فعلته الشائنة ، وتسلله مع صاحبته ، وتركه إياى سخرية أمام الناس ، وكدت أصرخ فى وجهه ، ولكن

تذكرت ما فعلته أنا ، على غير إرادة مني . . من إغماء ولهفة على رجل غريب .

قد أستطيع أن أعتذر أمام الناس بصلة القربى التى بيننا . . وأنى لم أصب بذلك الإغماء إلا لأنه ابن خالتى ، ولكن أمام نفسى . . كنت أحس أننى مذنبة . . وأنى قد أعطيت زوجى واحدة بواحدة .





على شفا الهاوية

١٣

وزوجي إلى الدار يومذاك قبل أن تنتهي المسابقات ، وران الصمت بيننا خلال العودة ، فلم يحاول أحدنا أن يناقش صاحبه الحساب أو ينبس ببنت شفة عما يصطخب في رأسه .

عمت

ولم أكن أدرى بالضبط نوع الأفكار التي تجول بخاطره . ولا ماذا يمكن أن يكون رأيه فيما حدث . . لقد كان هناك شيء في رأسه ، وهو جالس إلى عجلة القيادة ، شارد الذهن ، غارب البال .

ما هو ؟

غيرة ؟ . غضب ؟ . ثورة مكبوتة ؟ . ندم على ما فعل ، وخوف من الحساب ؟ قلق وانتظار ؟

من يدرى ؟ ! !

لو أنه كان رجلا عادياً ، وحدث من زوجته ما حدث ، في ظروف عادية . . لما شككت في أنه غاضب لكرامته تنهش الغيرة صدره ، وتصطخب الثورة بين جوانحه ! !

أى زوج يحتمل أن يرى زوجته تصرخ ويغمى عليها في حفل عام من أجل إنسان سواه ؟

قد أكون رقيقة القلب ، وقد يكون الرجل ابن خالتي ،

ولكن هل يمنع ذلك . . من أن تسرى فى نفسه إحساسات الغيرة والغضب والخجل من أقوال الناس ؟

هذا ما كان يجب أن يشعر به كل زوج .

ولكن زوجى . . الذى يتركنى بين الناس لأجالس زوج عشيقته دون أن يأبه لأقوال الناس .

زوجى الذى حاول أن يدخلنى فى الحلقة المفرغة . . يشركنى فى عصبة الذئاب ، ويطبق علىّ قانون النهش .

هل يمكن أن يغار وأن يثور ؟!

إنى أحس أنى مذنبة . . لأنى أكره أن أسبب لزوجى ما يهينه أمام الناس وأكره أن أخدش كرامته وأجرح كبريائه.

وأحس أنى مذنبة . . لأننى أدرى من غيرى بمشاعرى إن ضميرى يخزّنى لأنى لم أستطع بعد أن أقتل حبى . . وكل ما استطعت فعله هو أن أكبته وأكتمه . . فلما أصبت بأول هزّة .. انطلق من صدرى صارخاً فاضحاً

لا . . لا . . ما كان يليق بى أن أفعل ما فعلت

ودخلنا الدار فى صمت ، وذهنى يجول بين الزوج الصامت الغامض الأفكار ، وبين الحبيب الساقط عن جواده المسجى على الأرض .

* * *

ومضت الليلة بسلام .. سلام فى الظاهر ، والقلوب منطوية على ما بها .. ثم مرت الأيام بعد ذلك .. هادئة راكدة .. لا يكاد يحدث أحدنا الآخر إلا الأحاديث الهامة الضرورية .. وتركته يخرج وحده إلا بضع مرات صحبته إلى السينما ، وعدا ذلك كنت أقبع وحدى فى الدار أتسلى بالعمل فيها أو فى الحديقة أو بالقراءة .

ولم أحاول فى هذه الأثناء أن أتدخل قط فيما يعمله زوجى ، أو أسأله إلى أين يذهب أو ماذا يفعل . ولم أحاول كذلك الاتصال بـ « أحمد » سوى مرة واحدة اطمأننت فيها بالتليفون على صحته ، وتأكدت أنه أفاق من سقطته بعد قليل ، وأنه لم يصب منها إلا ببضعة رضوض بسيطة .

وحل الصيف ، وانتقلنا إلى الإسكندرية ، ووجدت نفسى مضطرة لأن أخوض معه مرة أخرى غمار التجربة الأولى ، وأن أعود إلى رفقة الذئاب الذين كانوا يحيطون بنا ليل نهار .. فى النهار على الشاطىء وفى الكابين ، وفى الليل ما بين كارلتون وسان استفانو وغيرهما من أماكن اللهو التى كنا نقضى بها السهرة .

لم يكن هناك وسيلة للفرار أو التباعد . إذ لم يكن من المعقول أن أسجن نفسى فى الدار ، ولا أن أذهب إلى البحر ،

ولا سيما بعد أن مللت طول الوحدة والقبوع فى الدار ، كما كنت فى القاهرة .

ووجدت نفسى مكرهة على مشاهدة بقية القصة . . قصة الغرام العلنى التى كان زوجى أحد أطرافها ، وبدأت أجلس فى الكابين وأرقب فى صمت كما تعوّدت أن أفعل دائماً . . وكأن زوجى إنسان غريب لا يهمنى أمره .

كان المقام لا يكاد يستقر بنا فى « الكابين » حتى ترتدى « طمطم » المايوه . . مايوه رقيق دقيق يبرز مفاتن جسدها . . ثم تنطلق شبه عارية ووراءها زوجى يعدوان تجاه البحر . وبعد برهة تطويهما الأمواج بعد أن يعتليا صهوة برسوار .

ويمر الوقت وأنا جالسة فى الكابين وحيدة مع الزوج - زوج طمطم - ومع شلة أخرى من الأصدقاء أبرز من فيهم الفرسان الثلاثة .

ولست أدرى كيف فاتنى الحديث عن هؤلاء من قبل وهم مخلوقات عجيبة تستحق الذكر . . أو هم بين الرجال نسيج وحدهم .

الفرسان الثلاثة : كيكو ، ومظلو ، وبنجو ، أسماؤهم هكذا لا تحريف فيها ولا تحوير ، هم إحدى عينات الطبقة إياها . . الطبقة المدللة المرفهة .

وهم نوع عجيب من الآدميين .. يصعب على المرء تمييز كنهه ، ويتعذر عليه معرفة جنسه .. فهم مزيج من الرجال ومن ربات الحجال .. أو هم ـ من حق القول عليهم ـ أشباه الرجال ، ولا رجال .

يطالعكم « كيكو » بشكل رجل لا شك فى رجولته .. فسيح الجبهة ، أسود الشعر ، عريض الصدغين ، متين البنيان ، كثيف شعر الذراعين والصدر والساقين ، ليس به ما يوحى بشيء سوى الرجولة الكاملة ، وليس لديه أية مواهب للتخنث ومع ذلك فما يكاد يتحدث حتى يروعكم حديثه ، وتصرعكم لهجة الرقاعة والتخنث التى تسيل منه .. فهو يتثنى ويتدلل ، ويتلوى ويتأوه ، ويحشر كلمة « ماما » فى كل جملة ، فهو يقول إن « ماما » نهته عن كذا ، و « ماما » ابتاعت له كذا ، ولا يفتأ يتعوّج وينهر من حوله بقوله « إيه يا ختى ده » ، ولا يعلن عن سخطه وغضبه إلا بكلمة « يا سم » .

هكذا كان كيكو .. « ابن أمه » ، وسليل عائلة كبيرة الاسم ، عريقة الأصل ، كريمة المحتد .. رحم الله أصلها ، وأكرم مثوى الجدود الغابرين الذين تركز نسلهم فى هذا الخلط المؤنث المذكر .

أما الفارس الثانى فهو يروعكم من أول نظرة بشعره

الأصفر الذهبي المسدول على قفاه ، وجسده الأبيض الناعم البض ، وقميص الشفيون على بدنه ، وأصابع قدميه تطل من « الصندل » ذى الكعب العالى ، وقد بدا فى أظافرها الطلاء الأحمر . « وحصوه فى عين اللى ما يصلى على النبى » .

لا تظنوا بقولى تشنيعاً ولا تتوهموا فيه فرية كاذبة ، فإنى أقسم غير حانثة : أنى لم أبصر أظافر الرجل مرة واحدة غير مطلية « بالمانيكير » .

أما الفارس الثالث ، فما كان يقل عن أخويه تفنناً فى التخنث والرقاعة ، والدلال والميوعة .

مع هؤلاء . . وغيرهم . . كنت أقضى معظم وقتى . . وزوجى غريق فى حبه بين أمواج البحر . . وزوج عشيقته ما زال يرمى الشباك حولى ، وينصب الأحابيل . . تاركاً زوجته تلهو مع زوجى كما تشاء .

وفى المساء كنا نشد رحالنا إلى كارلتون أو المونسنيير . . حيث يعاد تمثيل المسرحية إياها . . فتخاصر زوجى صاحبته وأجلس لمشاهدتهما . . ويجلس زوجها لمغازلتى ، والرفاق من حولنا .

ويمر الصيف وأنا صامدة صابرة . . كنت أثور فى مبدأ الأمر . . ثم أقاوم . . واجدة صعوبة فى المقاومة ، وتهدئة

نفسى . . وكنت فى بعض الأحيان أوشك أن أهرع إلى أبى ، ولكنى أعود فأسخر من نفسى .

ماذا يمكن أن يفعل لى أبى ؟ إنى أعرفه معرفة جيدة ، وأعرف جموده وصرامته ، وسخافته وماديته .

ومن يدرينى أنه لن ينهرنى ويؤنبنى . . أو يتهمنى بأنى لا أريد البقاء مع زوجى . . لأنى لا أحبه . . وأحب إنساناً غيره ؟ . .

وعدنا إلى القاهرة أخيراً . . لنعاود سيرتنا الأولى . . أنا قابعة فى الدار . . وهو منطلق فى غيه . . ممعن فى ضلالته .

ومرّ الخريف المحبب إلى نفسى .. المثير لأجمل ذكرياتى . وبدأت أتعوّد حياتى . . واجدة كثير من التعزية فى خلوتى بالدار ، وفى عملى فى الحديقة بين الزهور المحببة إلى نفسى ، وفى كثرة القراءة .

وفى ذات يوم وقد جلسنا للغداء قال لى زوجى :

ــ لقد دعانا أبى للسفر إلى العزبة لقضاء بضعة أيام .

واستمررت فى تناول طعامى دون أن أجيب . . فعاد يتساءل :

ــ هل لديك مانع ؟

ــ لا .

ــ إذاً سنذهب من الغد ، فقد دعا معنا بعض الأصدقاء .

ــ كما تشاء .

ولم أجد هناك ما يمنع من الذهاب . . فقد كان كل شيء لدى سواء ، ولم أكد أفضل حالة عن حالة . . فقد تعوّدت ماأنا فيه حتى لم أعد أحس به ، بل أضحيت تماماً ـ كماقال أحمد ـ « لا سعيدة ولا شقية . . أكل ، وشرب ، ونوم ، ومتاعب ، ووقت يمر . ماذا يمكن أن نرجو من الحياة أكثر من ذلك؟ »

وفى اليوم التالى ذهبنا إلى العزبة . ولم أكن قد ذهبت إليها سوى تلك المرة التى تمت فيها الخطبة . . والتى كنت فيها مذهولة ، لا أكاد أرى من حولى شيئاً .

وكانت الدار فخمة أنيقة . . قائمة وسط أشجار البرتقال والمانجو والكروم ومختلف أشجار الفاكهة .

والتقينا هناك ببعض أصدقاء أبيه وأسرهم ، ممن استضافهم معنا ، أو استضافنا معهم ، وكانوا خليطاً من أنواع مختلفة من النساء والرجال ، واستطعت أن أجد فى طبقة الذوات أنواعاً أخرى غير تلك التى تعوّدت أن أبصرها فى هذه الطبقة . . أنواعاً تستدعى الاحترام ، لم يفسدها الغرور ، ولم يتلفها التدليل . . لم تمح وفرة النعمة من نفوسهم ، متانة خلقهم ، واخشيشان نفوسهم .

لقد رأيت من بين الشبان والفتيات العريق الأصل ، الموفورى الثراء ، من لا يعرف آخر رقصة . . ومن لم يسمع آخر اسطوانة أفرنجية ، ووجدت من بينهم من يحفظ لشوقى وللمتنبى ، ولابن الرومى . ومن قرأ لكتابنا واحداً واحداً .

ووجدت من بينهم من يؤمن بمصر . . ويحب مصر . . وجدت منهم من يتكلم العربية « كأحد أبنائها » !!

واستمتعت بدعوة الريف إلى حد كبير . وكان الجو صحواً والشمس مشرقة ، ولم تفلح قطع السحاب المتناثرة فى السماء فى حجب أشعتها إلا هنيهات متقطعة ، أما بقية اليوم فكانت تسطع دائمة فوق الخضرة الممتدة على مدى البصر .

وكان مفروضاً أن نقضى فى العزبة ثلاثة أيام ، ولكننى فوجئت فى اليوم التالى بزوجى ينبئنى أنه لا بد أن يعود إلى القاهرة لأنه تذكر أن لديه عملا فى الشركة لابد من إنجازه ، وأنه سيحاول أن يعود فى نفس اليوم .

وأدهشنى قوله . . فما توقعت قط أنه يمكن أن يكون لدى زوجى عمل ـ أياً كان ـ يستدعى سرعة الإنجاز . . فقد كنت أعلم أولا أنه بلا عمل ، وثانياً حتى لو كان لديه عمل فما كان بالذى يحمل عبء مسؤولية ، أو يقدر عاقبة أو يأبه لنتيجة ، وما كان بالإنسان الذى يقطع نزهة لكى ينجز عملا .

ولكني لم أحاول أن أناقشه .. فقد كنت أربأ بنفسي عن الاهتمام به . . وما كنت أهتم بوجوده أو عــدم وجوده ، ولا كنت أهتم بتصرفاته إلا من حيث الشكليات ، فقد كنت أخشى الفضائح وأكره أن نكون مضغة الأفواه .

وعاد إلى القاهرة ومضى اليوم دون أن يحضر ، وقضيت ليلتي وحيدة . وفي اليوم التالي لم يحضر حتى الظهيرة .

وبدأت أحس بالثورة تعتمل في نفسي ، فقد كانت تلك هي الشكليات التي تحز في نفسي .

كنت أكره أن أفقد اعتباري وأبدو مهجورة أمام هؤلاء الغرباء ، وبينهم أناس محترمون ، لا يقارنون من حيث الاعتبار بشرذمة الصحاب التافهين الذين تعودنا رفقتهم .

وصممت في نفسي على أن أعود إلى مصر ، وأن أعطيه درساً قاسياً حتى يتعلم كيف يتصرف أمام الناس .

وكان بعض الضيوف سيعودون بعد الغداء إلى القاهرة ، فعزمت على العودة معهم .

وسارت العربة بنا تنهب الأرض ، وأنا مكروبة الصدر ، مهمومة النفس ، أتعجب من هذا الوضع الذي صرت فيــه . . وأتعجب من سخرية القدر ، وأذكر المثل القائل « رضيت بالهم والهم مش راضي بي » .

ووصلنا إلى القاهرة وقد خيم الظلام ، وسارت العربة تقطع شوارع القاهرة حتى أوصلتنى إلى باب الدار وشكرت أصحابها وسألتهم التفضل بالدخول ، ثم ودعتهم ودلفت إلى الداخل .

ولم يبد من النوافذ الأمامية بصيص ضوء ، ولم أكن أتوقع بالطبع أن أجد زوجى بالدار . . وكذلك كنت أعلم أن الخدم يبيتون فى بيوتهم فقد منحتهم إجازة ثلاثة أيام ، وهى المدة التى كنت أتوقع قضاءها فى العزبة .

وحمدت الله أنى أحتفظ معى بأحد مفتاحى الباب ، وعبرت ممر الحديقة ، وصعدت بضع الدرجات المؤدية إلى الباب ، وأنا أحس بشىء من الرهبة والوجل ، فما تعودت أن أكون وحيدة فى الدار . وامتدت يدى إلى مفتاح الكهرباء المجاور للباب وضغطت عليه فانبعث الضوء فى الشرفة الكائنة أمام الباب ، وأعاد إلى نفسى الطمأنينة .

وضعت المفتاح فى الثقب وأدرته ، ثم دفعت الباب فانفتح بسهولة . . وخطوت خطوة إلى الداخل مادة يدى وراء الباب حيث مفتاح إنارة الصالة .

وفى اللحظة التى ضغطت فيها على المفتاح الكهربائى وغمر النور أنحاء الصالة ، وصل إلى أذنى صوت يصيح متسائلا فى ذعر :

— من ؟

وكانت مفاجأة الصوت شديدة الوقع على نفسى ، بحيث أصابتنى برجفة شديدة ، ويستطيع أى إنسان أن يدرك مدى ارتياعى وأنا أخطو من الباب دون أن يكون لدىّ أقل فكرة عن وجود إنسان بالداخل .

وزال الذعر سريعاً لتحل محله دهشة بالغة عندما ميزت فى الصوت المتسائل صوت زوجى . وعندما رأيته يقف بباب الردهة المؤدية إلى حجرة النوم ، وقد ارتدى « البيجامة » .

عجباً ! ! أى ريح هوجاء قذفت به إلى الدار فى هذه الساعة المبكرة ؟

لعله مريض . . وقد أوى إلى البيت ليستريح !

ولكن ما باله يقف جامداً فى مكانه وقد فغرفاه ، وبدا عليه ذلك الذعر وتلك الدهشة ؟

أيخيفه منظرى ويزعجه إلى ذلك الحد ؟

ما باله لا يتكلم ؟

ووجدت نظره قد تحوّل من وجهى إلى المشجب . . وحوّلت بصرى إلى حيث ينظر . . فوجدت معطفاً نسائياً قد علق عليه . . وأعدت النظر إليه ، فإذا به يحملق فىّ ، وقد اشتد ذعره وبدا أشبه بفأر فى مصيدة . . ومرة ثانية

تحوّل بصره فتبعته ثانية ، واستقر بصرى فى هذه المرة على حقيبة للسيدات ملقاة على مقعد ، ولم يصعب أن أميز عليها حرفى F.S.

وفى لمح البرق . . تكشف لى الأمر . . ووضح على حقيقته . . فقد استطعت أن أميز من حرفى الحقيبة . . اسم صاحبتها « فاطمة شكرى » .

وفى الثانية التالية قطع الشك باليقين ، وعلا صوت صاحبة الحقيبة تنادى من حجرة النوم :

— توتو . .

لقد كانت هى بعينها . . طمطم . . تتعجل زوجى ، وهى راقدة على فراشى .

وأحسست بالدنيا تدور بى ، واستندت على حافة مقعد قريب حتى لا أسقط ، وشعرت بأنفاسى تتلاحق ، وصدرى يرتفع وينخفض كأنى فى سباق .

إنى لم أزعم قط أنى أحب زوجى ، أو أغار عليه ، وما حاولت أن أبدى له اهتماماً . . بل كنت دائماً أتذرع بالبرود .. وأتحلى بالهدوء والسكينة .

ولكن فى هذا الموقف . . أحسست أنى جمرة متقدة ، وأن صدرى يغلى . . وأنى أوشك أن أجن .

أبلغ به الاستهتار إلى هذا الحد ! ؟

أبلغت به الصفاقة والنذالة والجبن والخسة أن يحط إلى هذا الدرك ؟

ماذا بقى لى من قيمة فى الحياة . . وأنا أرى زوجى يخوننى فى بيتى ، وأمام عينى ؟ !

أو قد هنت إلى هـــذه الدرجة . . حتى تستحل امرأة فراشى وبيتى بمثل هذه البساطة ؟

أقسم أنى لو كنت أملك وقتذاك مسدساً لأفرغته فى رأسه ، أو لو كان بيدى أية وسيلة للقتل لما ترددت فى القضاء عليه .

ولكننى كنت أحس أنى عاجزة عن أن أفعل شيئاً . . اللهم إلا الاندفاع فى السباب والصراخ . . أو الهجوم عليه وصفعه ، والبصق فى وجهه .

ولم تكن هذه الأشياء التافهة لتطفىء حرقتى أو تهدىء ثورتى .

لقد كنت أريد أن أثأر لكرامتى . . كنت أريد أن أمزق جسده إرباً إرباً

ومضت برهة صمت . . وكلانا يحدق فى الآخر . . وبذلت جهدى لكى أتمالك وأسيطر على أعصابى .

وكنت أول من تـكلم ، عندما صاح صوتها من الداخل يناديه مرة ثانية .. فقد قلت له فى مرارة وسخرية :

— إنها تناديك .. اذهب إليها حتى لا تقلق .

وادرت له ظهرى ، وخرجت من البـاب فى سـكون ، وأغلقته خلفى وهبطت الدرج . واحتوتنى حلـكة الليل .

* * *

سرت فى الطريق ، وأنا أحس بنيران آكلة تحرق قلبى ورأسى وجسدى ، وقد تملـكنى إحســـاس خليط بين الذلة والتعاسة واليأس والغضب ، والرغبة فى الانتقام ، ولم يكن تفـكيرى قد استقر بعد على ماأفعله .. اللهم إلا على شىء واحد لم يكن هناك مجال للتردد فيه ، وهو عدم عودتى إلى هذه الدار ، وهذا الحيوان الآدمى .

مهما حدث . . فلن أعود . . حتى ولو أدى الأمر إلى أن أهيم على وجهى . . سائلة . . أو بغيا . ما من قوة تستطيع أن تعيدنى مرة أخرى . . لا أبى ولا غيره . . إنى أنا التى سأقرر مصيرى هذه المرة . . كفى استعباداً ، وكفى مذلة .

وسرت برهة أضرب فى الطرقات على غير هدى ، وريح الليـل تهب باردة فتثلج وجهى وأطرافى ، ورأسى يضطرب بما فيه . . وأنا حائرة . . إلى أين أذهب ؟ وماذا أفعل ؟

وتلفت حولى .. فإذا بى أمام دار أعرفها جيداً ، ولم تكن تبعد كثيراً عن المنطقة التى نقطن بها ، وهى دار « محمود شكرى » زوج « طمطم » ورفعت بصرى ، فإذا بالنوافذ ينبعث منها الضوء .

وفجأة قفزت إلى ذهنى فكرة طارئة وجدت فيها مخرجاً لتلك الثورة التى تستعر فى نفسى ، ومنفذاً لذلك البركان الذى يصطخب بين جوانحى .

لقد بدا لى من أضواء النوافذ أن « محمود » قد يكون فى الدار ، وأنى أستطيع أن أصعد إليه حالا فأنبه بخيانة زوجه ، وأطلب منه أن يضبطها متلبسة بخطيئتها .. وأترك له إتمام المهمة والانتقام لى ولنفسه .

لقد كنت فى حاجة إلى من يثأر لى .. فإنى أحس أنى — كما قلت دائماً — مخلوقة عاجزة .. أو كما قال أخى : إنسان جبان .. لا أملك إلا الفرار والانزواء والاستسلام للقدر .. ولكنى فى هذه المرة كنت واثقة من أنى سأجد إنساناً موتوراً يرد عنى الطعنة .

واقتربت من الباب ، وسألت الحارس :

— محمود بك .. موجود ؟

— أيوه يا فندم .

— أريد أن أقابله .

— اتفضلى ياهانم .

ولا شك أن الرجل قد عرفنى .. فقد سبق أن حضرت مع زوجى لزيارتهم ، وتقدمنى مسرعاً .. ودق جرس الباب الداخلى .

وفتحت إحدى الخادمات الباب فقال لها الرجل :

— افتحى .. قولى لسيدك .. سيدتى عايدة هانم .

ودلفت إلى الداخل ، وجلست أنتظره فى حجرة الصالون ولم تمض فترة وجيزة .. حتى أقبل « محمود » مرتدياً قميصاً وبنطلوناً ، وهو يبتسم مرحباً ، وقال وهو يضغط على يدى :

— أهلا وسهلا .. كيف حالك ؟ وكيف حال « توتو » ؟ لقد كنت أوشك أن أخرج الآن .. إذ لو تأخرت لحظة لما وجدتنى .. لقد ظننت أنكما مسافران .. إذ أخبرنى « توتو » أنكما ستمضيان بضعة أيام « فى عزبة الباشا » .. ولكن أين « توتو » ؟

ولم يترك لى فرصة للكلام أو يحاول أن يستمع لإجابة سؤاله .. بل انطلق يثرثر :

— هل سررتما من العزبة ؟ لابد أنكما تضايقتما .. وإلا لما عدتما سريعاً .. معكما حق .. إنى أكره الريف .. ملل ،

وقذارة ، وناموس . لقد ذهبت مرة إلى العزبة . مرة واحدة طيلة حياتى ، ولم أطق أن أنام ليلة واحدة ، بل عدت فى منتصف الليل ، ولم أحاول تكرارها مرة ثانية ، و « طمطم » أيضاً لا تطيق الريف .. إنها تعتبره منى قذراً .. لقد خرجت « طمطم » منذ العصر .. إنى وحدى فى البيت .. كنت أوشك أن أخرج .. سأذهب إلى السينما سواريه .. يوجد فيلم فى ديانا من أحسن أفلام الموسم .. لفريد استر .. موسيقى هائلة .. ورقص عظيم .. يجب أن تشاهديه .. إن « طمطم » قد ذهبت إلى بيت خالتها وقد تغيب إلى منتصف الليل أو تبيت هناك .. لأن خالتها مريضة .. إنى أنصحك . . .

ولم أدر إلامَ كان ينوى أن يستمر فى ثرثرته . وأحسست بصبرى ينفد . ولم أجد بدأ من مقاطعته .. فقد كانت أعصابى متوترة وصدرى ضيقاً . . وقلت له فى سخرية ومرارة متجهة إلى الموضوع رأساً .

— « طمطم » لم تذهب إلى بيت خالتها يامحمود بك .

وبدا لى أنه لم يلق بالا إلى قولى فى مبدأ الأمر ، فقد استمر فى ثرثرته :

— إنى أنصحك أن ترى الفيلم ، إنه فيلم عجيب . تقولين إن « طمطم » لم تذهب إلى بيت خالتها .. كيف ؟! إنى واثق

أنها قد ذهبت إلى هناك .

ــ وأنا واثقة أنها لم تذهب .

ــ غير ممكن .. من أدراك أنها لم تذهب إلى بيت خالتها ؟

ــ لأنها ذهبت إلى بيتنا . . وقد تتأخر حقاً إلى منتصف الليل . . وقد تبيت فيه تماماً كما قلت .

ــ ذهبت إلى بيتكم ؟ ! ستقضى ليلتها عندكم ؟

ــ أجل . . ستقضى ليلتها على فراشي . . وبين أحضان زوجى .

وقفز من مقعده كمن لدغه عقرب :

ــ كيف تجرئين على هذا القول ؟

ــ كما جرؤت هى على فعله . . منذ عشر دقائق . . تركتها مستلقية فى غرفة نومى . . . لقد تركنى زوجى وعاد ليتمتع بها فى بيتى وعلى فراشى . . خير لك أن تردعها ، وأن تمنعها من التسلل إلى بيوت الناس ، وسرقة أزواج الغير . . إن الكلاب المسعورة لا تطلق هكذا بلا قيد .

وكنت أتوقع منه ثورة جارفة . . وعاصفة جامحة لا تبقى ولا تذر . . وكنت أنتظر أن ينطلق إلى دارنا فيثأر لشرفه المثلوم ، وعرضه المخدوش . . ولكن أدهشنى أن أجده يحدق فىّ . ثم ينهض ببطء ويذهب إلى باب الحجرة فيغلقه

جيداً . . ثم يعود إلىّ . . وقد علت وجهه ابتسامة باهتة .

وأخذت أرقبه بعين حذرة ، وأنا أتحفز لما ينوى أن يفعله . . ورأيته قد جلس على حافة أحد المقاعد . . وبعد فترة إطراق قال لى فى صوت خافت :

— أنت السبب .

— أنا السبب ؟ ! فى ماذا ؟

— كان يجب علينا أن نبدأ بالهجوم .

— نبدأ بالهجوم ! ! لست أدرى ماتعنى ؟

— طالما نفرت منى ، وتباعدت عنى . . لو استجبت إلىّ لكننا الرابحين ، ولما جلست هكذا ، كأن كارثة حلت بك .

وأذهلنى قوله ، وأصابنى بصدمة لا تقل عن تلك الصدمة التى تلقيتها فى بيتى منذ لحظات .

إنه لم يثر ، ولم يغضب على شرفه المهيض ، ولا اندفع هائجاً لينتقم من الخائن والخائنة . . بل كل مافعله هو أن جلس يؤنبنى ، ويحملنى مسئولية ما حدث . . لأنى لم أستجب لمغازلته ، فأكون البادئة بالخيانة . . كأن كل ما حدث كان أمراً لا يعيبه إلا أنه لم يكن نفعاً متبادلا .

لم يسؤه أن تقضى زوجته ليلة مع رجل فى فراش ، ولكن ساءه أن ضاعت عليه فرصة مثلها .

وأحسست بثورة الغضب تتصاعد فى صدرى . . وهممت بأن أنفجر فيه . ولكنى كبحت جماح نفسى ، واكتفيت بأن أحدق فيه كما أحدق فى نوع غريب من الحيوانات .

ولما لم يجدنى أجيبه على قوله أردف قائلا

— على أية حال .. لابد لنا من الانتقام .

ورفعت إليه حاجبى فى دهشة . . لقد بدأت تعاوده رجولته . وأخذ يتحدث عن الانتقام . وأنصت إليه فى لهفة واستمر هو يقول :

— أجل . . لابد لنا من الثأر . . العين بالعين ، والسن بالسن ، واحدة بواحدة ، والبادىء أظلم . . إننا نستطيع أن نضرب عصفورين بحجر ، وننتقم لنفسينا بنفس الطريقة . . سنرد العدوان بعدوان مثله .. إنها ترقد الآن فى فراشك ، فلمَ لا ترقدين فى فراشها ؟

وضغطت على أسنانى حتى أحسست أنها ستتفتت ، ثم تمتمت قائلة :

— جبان . . سافل .

— مجنونة ! أما زلت تتمسكين بأهداب الشرف والعفة ؟ أفى الوقت الذى يرقد زوجك مع امرأة أخرى فى فراشك ، تحاولين التمسك بهذه الخزعبلات التى بادت وعفت آثارها ! !

هذا الوسط الذى تعيشين فيه لا يأبه كثيراً لهذه الرسميات .
ماذا يمكن أن تثأرى به لنفسك من التى سرقت زوجك ولوثت فراشك أكثر من أن تسرقى زوجها وتلوثى فراشها ؟ وماذا أستطيع أن أفعل أنا أفضل من أن أقتص من الخائن بنفس طريقته .. هدئى نفسك ، وكونى عاقلة . وفكرى فيما أقول لك .. هل يؤلمك كثيراً .. أن تخونى زوجك ؟ . هل يثقل عليك ضميرك إذا فعلت ما فعل ؟ لمَ ؟ . ماذا له من حقوق عليك ؟ إن الرابطة الزوجية التى بينكما لا تعدو أن تكون شيئاً وهمياً .. إنها مجرد شكليات .. فإذا لم يجعل هو لهذه الشكليات قيمة ، ولم يقم لها وزناً . فلمَ تجعلين لها أنت وزناً ؟ لمَ يتدخل ضميرك فى مسائل تافهة لا محل له للتدخل فيها ؟

معه حق !! .. ألم أعترف أنا نفسى من قبل أن ما بينى وبين زوجى لا يعدو أن يكون عقداً شكلياً كتبه ذلك الشيخ المعمم . لقد قلت ذلك قبل أن أعرف مدى تقدير زوجى لهذه الرابطة الشكلية ، فما بالى الآن وقد رأيته يمزقها إرباً ويحطمها شظايا ؟

إن هذا الرجل الجالس أمامى .. رغم ما اتهمته به من الجبن والسفالة ، لم يقل سوى الحق .. إن تفكيره منطقى معقول : العين بالعين ، والسن بالسن ، واحدة بواحدة

والبادىء أظلم . . لقد استحوذت على زوجى وفراشى وتركت زوجها وفراشها خاليين ، فلمَ لا أستحوذ عليهما أنا الأخرى.. فأضرب عصفورين بحجر واحد وأنتقم لنفسى بنفس الطريقة ؟

حقيقة إنه أمر مروّع .. مخيف .. إذا ما بحثته بتفكيرى الأول ، وعقليتى السابقة غير الملوّثة .

أما الآن ، وأنا امرأة مصابة ، مهيضة الجناح ، وفى هذا الجو الملوث ، وبتلك الكبرياء الجريحة ، والكرامة المحطمة ، يبدو الأمر طبيعياً لا غبار عليه . . بل هو الأمر الطبيعى الوحيد الذى يجب أن أفعل .

* * *

هكذا تطور تفكيرى ، وأنا جالسة أحدق فيه وأنصت إلى حديثه ، وأضحى ذهنى على أتم استعداد لقبول العرض وتنفيذ الانتقام .

ونظرت إلى عينيه فلمحت فيهما بريق لهفة ، ورأيته يقترب منى . فأطرقت برأسى ، وأحسست بجسدى يهتز كريشة فى مهب الريح ، ومدّ يده فضغط بها على يدى مترفقاً ، وقال فى صوت كأنه فحيح الأفاعى :

— تعالى . . .

ورفعت عينىّ إليه . . فرأيت وجهه قد تأجج بنيران

الرغبة ، وسمعت صوت أنفاسه تتلاحق . وشعرت أنى أمقته مقتاً شديداً وتمنيت لو استطعت أن أنهال عليه بالصفع ، لقد كان فى نظرى أشبه بحشرة حقيرة لا يقل حقارة عن زوجى المحترم . . .

ولكن يجب أن أتحمله . . إنها عملية انتقام لا أقل ولا أكثر . . يجب أن أكبت نفورى وأخفى اشمئزازى . . يجب أن أستسلم له كما استسلمت لزوجى من قبل . . وأن أعوّد نفسى عليه ، كما عوّدت نفسى على الآخر .

ورأيته يجلس على حافة المقعد ، ومد أحد ذراعيه فطوّق جسدى ورفع بيده الخالية ذقنى وأخذ يقترب بشفتيه من شفتى .

وتذكرت أحمد ، فى نفس الجلسة ، ونفس الوضع ، وأحسست بقشعريرة تسرى فى جسدى .

وبلا وعى ولا إرادة . . دفعت الرجل فى صدره دفعة شديدة ، ونهضت من مقعدى ، ووقفت متحفزة للنضال كأنى حيوانة ثائرة .

ماذا كنت أوشك أن أفعل ؟ وأية هاوية كنت أوشك أن أتردى فيها ؟

انتقام ؟ . ممن ؟ . من تلك الحشرة التافهة الحقيرة ؟

أو يستحق أن ألوّث نفسى من أجل الانتقام منه ؟ . .

أو يستحق أن أكون من أجله عاهرَة بغيا !

وأحمد ؟ ! كيف نسيته ؟

كيف أجسر أن أفكر فيه ، أو أقارن نفسى به . . إذا ما تردَيت فى الهاوية وتلوّثت بقذارتها ؟

حقاً إنى لا يهمنى أن أكون شريفة من أجل زوجى ، ولكن من أجل أحمد !

كيف يمكن أن يفكر فىّ ، ويسمى ابنته باسمى ، ويحبنى حتى آخر العمر ، وأنا مخلوقة قذرة ملوّثة ؟

كيف يمكن أن يرانى أنا !! المخلوقة النموذجية السامية . . المترفعة الأبية الشريفة . . التى يضعها — على حد قوله — فى مصاف الآلهة والملائكة ، وقد أضحيت كـ « طمطم » ، وأمثالها من سارقات الأزواج ؟

إن كل ما بقى لى فى هذه الحياة .. هو تفكيرى فى أحمد ، ويقينى أنه ما زال يرانى كما كنت دائماً . . المخلوقة الأولى فى حياته . . التى سيذكرها . . حتى آخر العمر ، والتى جعل منها آماله التى لن تتحقق ، ولكنها تحييه زمناً رغداً .

كيف أحطم آماله ، وأبدد أوهامه ؟

من أجل أحمد يجب أن أقاوم ، وأن أترفع ، وأن أتحمل

كل شيء . . وأن أستحق ثقته بي .

من أجله يجب أن أكون تلك المخلوقة السامية المثلى . . . يجب أن أبقى دائماً في مستواه الرفيع .

إن أحمد هو زوجي الحقيقي . . هو زوج روحي وتوأم نفسي . . .

لقد عقد المأذون زواجي على « تهاني » عقداً بين الأجساد . . أما عقد القلوب والأرواح ، فقد كان بيني وبين أحمد من قبل ذلك بزمن طويل .

إذا خانني زوجي . . فليذهب إلى الجحيم .

إن أحمد وحده هو الذي يملك عليّ حقاً . . فيجب أن أرعى هذا الحق .

يجب أن أصون نفسي وروحي عن الاندفاع في الخطيئة .

° ° °

ودون أن أنبس ببنت شفة أدرت ظهري وانطلقت ، هاربة من الهاوية التي كنت أوشك أن أزلق فيها .



ما تشتهي السفن

١٤

خرجت إلى الطريق مرة ثانية ، وانطلقت فى الظلمات أضرب على غير هدى ، وأنا أحس أنى نجوت من خطر أوشك أن يودى بى .

وأخذت أمعن فى السير ، كأنى فريسة مطاردة ، حتى وصلت إلى الشارع الموازى للنيل والمؤدى إلى الكوبرى الإنجليزى (كوبرى الجلاء) . وهبت موجة من ريح باردة سرت فى عظامى فضممت المعطف جيداً حول جسدى .

ووصلت إلى الكوبرى وبدأت أتمهل وأسير الهوينا .

لقد نبتت فى ذهنى المشتت الشارد فكرة جديدة ، أوحى إلىّ بها خرير الماء الجارى أسفل الكوبرى فى حلكة الليل .

لِمَ لا ألقى بنفسى فى اليم فأستريح من الحياة ؟

ماذا يجعلنى أتشبث بحياة فارغة خاوية حالكة ، لا يبدو لى منها بارقة أمل أو شعاع رجاء ؟

ماذا يمكن أن آمل من حياتى :

إن أقصى ما يمكن أن أحصل عليه هو الخلاص من زوجي .

وبعد ذلك ، أقبع فى دارى ، مطلقة ، يائسة بائسة !!

لو أن أحمد لم يتزوج ؟!

ولكن هل كان يقبل أن يتزوجنى الآن بعد أن خذلته فى أول مرة .. ولفظته لفظ النواة ؟

أجل . إنه إنسان كريم ، وهو ما زال يحبنى ، ولن يكف عن حبى مدى الحياة .

ولكن ما فائدة كل هذا ، وهو متزوج فعلا ؟

إن الانتحار هو خير وسيلة للخلاص .

يجب أن أتوقف .. ثم ألقى بنفسى من فوق السور الحديدى ، وفى ثوان معدودة سيكون كل شىء قد انتهى .

إن الخلاص يحتاج إلى شجاعة وجرأة ، ويجب أن أكون شجاعة ولو مرة واحدة حتى أنجو من حياتى التعسة الشقية .

دار ذلك الحديث فى رأسى .. دون أن أتوقف .. وانتهى الحديث ، وقد انتهيت من عبور الكوبرى .. دون أن ألقى بنفسى فى الماء .

إنى مازلت كما كنت دائماً .. مخلوقة جبانة .. لاأستطيع أن أقدم على ما فيه خلاص نفسى .. وكل ما أجسر عليه هو التفكير ، ولاشىء أكثر من التفكير .. أما التنفيذ .. فأمر لم أحاوله قط .

وعدت أفكر نابذة فكرة الانتحار .. قائلة لنفسى .. لِمَ أعجل بالحكم على نفسى ؟ . لِمَ لا أنتظر ؟ .

وما دمت قد وطنت نفسى على الموت .. فإنى أستطيع أن احتمل أى مكروه فى الحياة .

وهكذا سرت أتخبط بين أفكارى المحتشدة المختلطة حتى وصلت إلى كوبرى « قصر النيل » ، وأعاد منظر النهر العريض والماء الحالك .. فكرة الانتحار إلى رأسى ، ولكنها لم تزد عن أن تكون فكرة ، وانتهيت كذلك من عبور الكوبرى دون أن أتوقف أو ألقى بنفسى فى اليم .

ووصلت إلى ميدان الإسماعيلية ، وبلا تفكير اتجهت إلى موقف الأتوبيس (رقم ١٤) الذاهب إلى حدائق القبة ، وصعدت فى إحدى العربات .

إلى أين أذهب إن لم أذهب إلى بيت أبى ؟ هل لى ملجأ سواه ؟ . مهما سرت فى الطرقات . . أليس للسير من نهاية ؟

لقد بدأت قدماى تكلان فعلا ، ولا بد أن أجد لى مقراً تكون به خاتمة المطاف .

وتحركت العربة تعبر الشوارع المضيئة الصاخبة وجلست أحدق من وراء زجاج النافذة فى المناظر العابرة دون أن أعى منها شيئاً .

كنت لا أحس كثيراً بما حولى . . فقد كان بى ذهول شديد ، وكان ذهنى قد أعيته الحوادث ، وأضناه التفكير . .

فتبلد وجمد .. وأضحيت فى جلستى فى العربة أشبه بمريضة ذاهلة أو مخبولة تائهة

ولم أشعر بمرور الوقت ، ولم آمين معالم الطريق ، بل وجدت نفسى فى النهاية ، وقد خلت العربة إلا منى . ورأيت السائق يغادر العربة ، والكمسارى يتساءل فى لهجة لا تخلو من السخرية :

— لقد وصلنا النهاية يا هانم . . أم تريدين العودة معنا ؟

ونهضت فى صمت .. وغادرت العربة .

وتوقفت أنظر حولى ، ولم أتمالك نفسى من ضحكة خافتة مريرة ساخرة .

* * *

يا للسخرية !

لقد وقفت تلك الوقفة من قبل وشتان بين وقفة ووقفة !

هذا هو الجامع القائم فى زاوية الطريق ، خيمت عليه حلكة الليل . . فلم يبد منه سوى شبح مظلم كالأطلال الباليا تقوم بينها المئذنة كأنها مارد يوشك أن ينقض .

والطريق قد بدا موحشاً مخيفاً جرّده الشتاء أحمر أزهاره وأخضر أوراقه ، وترك أشجاره المتكاثفة مجرّدة عارية كأنها هياكل الموتى ، أو قوائم القبور .

والسماء . . والكواكب ، والنجم الثاقب . . قد باتت كلها غطاء مظلماً يطبق على الأرض . . والنسيم قد عاد ريحاً تصفر وتئن وتعول وترن .

وأنا . . وحيدة . . بلا أحمد . . وبلا أمل . . وبلا رجاء .

يا للعجب ! . . أ كان يخطر لى على بال وأنا أقف مع أحمد وقفتنا الساحرة وقد غمرنا ضوء القمر . . وأفعم نفسينا الأمل . . وفاضت جوانحنا بالمتعة والهناء . . أن هذا المكان يمكن أن يضحى ماهو عليه الآن ؟

كيف يمكن أن تتبدّل الكائنات مثل هـذا التبدّل ؟ كيف يمكن أن ينبع اليأس من منابع الرجاء . . وينبت الشقاء من منابت الهناء . . ؟

وبدأت السير . . لا لأعود إلى الدار . . بل لأخوض غمار الطريق الموحش المظلم .

إلى أين ؟ . . ولمه ؟ .

أهو إمعان فى التعذيب ؟ أم عدو وراء سراب ؟

ليكن ما يكون . . إن بى إلى السير فى الطريق ، والجلوس على الساقية . . حنيناً لايقاوم ، ولهفة لا ترد .

إنه تعذيب ممتع . . وألم لذيذ . . .

مهما كنت . . ومهما كان المكان . . فإنى أحس فيه بحلاوة الاستقرار وسكينة المأوى .

مهما كان بى من حزن ويأس وشقاء وبؤس ، ومهما كان بالمكان من ظلمة ووحشة وكآبة وجمود . . فإنى أتوق إليه . وأتلهف عليه .

إن لى فيه حياة . . بل إنى لم أحى إلا فيه . . أما فيما عداه فقد كنت فى عداد الموتى .

وسرت فى الطريق الخالى المغرق فى صمت القبور . . وسور السراى يقوم على يمينى قاتماً مظلماً ، يبدو فى ارتفاعه وضخامته كأنه حاجز يمتد من الأرض إلى السماء . . والريح تهب من ناحية المزارع صرصراً عاتية . . تصطدم بأطراف الجازورينا العالية القائمة وراء السور ، فترسل منها فحيحاً مخيفاً . . وكل شىء يبعث على الخوف ويثير الرعب . . ومع ذلك فما أحسست خوفاً ولا رعباً .

كنت أسير فى ثقة وطمأنينة ، وقد قرّت نفسى وتبددت أحزانى . . واستتب فى نفسى الأمن وعاودتنى السكينة ، وداخلنى إحساس تائه ضال يوشك أن يهتدى إلى مأواه ، وغريب طالت غربته يهم بأن يعود إلى وطنه .

كنت أشبه بجندى دفع به فى أتون المعركة وخاض غمارها

بين الدوى والنيران والثرى والدماء . . وأصابه منها ما حطمه وأفقده وعيه . . ثم أفاق فى حلكة الليل بين الأشلاء الراقدة والسكون السائد ، وأخذ يزحف على يديه وقدميه بين الحياة والموت ، حتى لاحت له بارقة هدته إلى معسكره ، وأعادت إليه الأمل فى الحياة .

ووصلت إلى الساقية ، ولاح لى شبحها أسود قائماً . . لا تستطيع العين أن تميز منها سوى كتل داكنة تقوم وسط الحقول الغارقة فى الدياجير .

واتخذت طريقى إليها . . عابرة الممر الضيق الذى طالما اجتزناه سوياً ، وقد تشابكت أيدينا وتلاصق جسدانا .

وجلست كما تعوّدت أن أجلس دائماً .. على جزء من السور المنخفض المهدم .. حيث مهد لى « أحمد » مقعداً بين الحجارة النائتة . وأحسست أن كل شىء قد عاد كما كان ، وأن السنين التى ولّت قد رجعت بى القهقرى .. وأنى قد عدت مرة أخرى إلى العهد البائد والأيام الخالية .

وماذا بعد ؟ !!

ماذا بعد هذه الجلسة . . التى أثارت هاجع الذكرى ، وكامن الشجن ؟ .

ماذا أرجو ؟ وماذا أؤمل ؟

وخلت فى نفسى هاتفاً يهتف بالمعبد المقدس :

هل الزمان معيد فيـــك لذتنا

أم الليالى التى أمضته ترجعه ؟

وأجبت نفسى بضحكة ملؤها السخرية .

أى زمن هـذا الذى يعيد اللذة المنصرمة والمتعة البائدة ؟ وأى ليال تلك التى ترجع ما أمضت . . وتعيد ما سلبت ؟

ذلك عهد لم يعد يرجى لى منه سوى استعادة الذكريات وترديد الأحلام .

كل أمل فيه . . لا يعدو جلسة كهذه . . تكتنفها الوحشة وتحيطها الظلمة . . ويحدوها السكون والهدوء .

جلسة كهذه . . أجلس فيها بجوار الساقية الخربة فى عصف الريح . . وصبارة البرد . . وبهمة الليل . . كأنى شبح من أشباح الخرائب . . قد بانت كل زادى فى الحياة .

ياللسخرية ! . .

أذلك هو أقصى ما أستطيع الحصول عليه فى دنيانا المليئة بالنعم والمتع واللذات ؟

وأحمد ؟ لهف نفسى عليه ، وعلى مسة من يده ، وهمسة من شفتيه !

ماذا يضير القدر . . لو أرسله إلىّ فى هذه اللحظة ؟

أكثير على القدر . . أم كثير عليّ ؟

القدر الذى يكيل الضربات ، ويتقن السخريات ، ويحكم تدبير أسباب الضراء . . لِمَ لا يكرمنى مرة فيدبر لى فرصة سراء !

أكثير على القدر الماهر البارع . . أن يدبر بيننا لقاء فيرسل إلىّ أحمد على غير موعد ؟

أم كثير علىّ أن أحظى بهذه النعمة ؟

وتذكرت آخر جلسة لى بجوار هذه الساقية . . صباح الزفاف ، وحيدة كما أجلس الآن ، وتذكرت حنينى إليه ولهفتى عليه ، وتوقعى مجيئه بين لحظة وأخرى . . آملة أن تدبر لى المصادفات لقاء آخر . . وتذكرت عودتى بخفى حنين . . خائبة الرجاء . . محطمة القلب .

من أنا ؟ . حمقاء . . غبية ؟ ! أعلل النفس بآمال زائفة . . وأوهام سرابية !

تلك أشياء لا وجود لها إلا فى القصص . . أما فى الحياة الواقعة ، فإن الأقدار أبخل من أن تجود بها .

ذلك اللقاء المحكم الذى تدبره المصادفات المحضة . . هو شىء أشبه بالمعجزات ، وما أظننى — بعد كل ما حدث — أطمع فى معجزة .

٣٥٣٠

أين منى الآن . . صنو الروح وتوأم النفس ؟ .

أتراني أطوف بخاطره كما يطوف بخاطرى . . أم تراني لا أشغل من رأسه قيد شعرة ؟

أغلب الظن أنه جالس فى بيته يتمتع بالدفء . . مشغول عنى . . بامرأته وبطفله ! !

أجل . . إنه لا شك يداعب طفله الآن . . فما أظن امرأته إلا قد وضعت .

ترى ماذا أنجب ؟ . . بنتاً أم ولداً ؟ . . أتراه سيصدق فى وعده ويسمى البنت « عايده » كما قال لى ؟

أتراه سيذكرنى إذا ماناداها ؟ . . أم ترى اسمها سيمحو اسمى فتصبح لديه « عايده » واحدة . . وعفا الله عما سلف ؟

من يدرى ؟

وانطلقت من صدرى زفرة حارة ، وأحسست بعبرتين ساخنتين تسيلان على وجنتى .

وما الآخرة ؟ . . ما آخرة كل هذا ؟ ! !

أليس من الخير لى أن أغادر المكان ، وأعود إلى الدار ؟ أما كفنى أوهاماً وأحلاماً ؟

وهممت بالنهوض متثاقلة . . عندما سمعت فجأة صوتاً يشق السكون ويهتف بى :

ـ أنتِ ؟ . . عايدة ؟

وأفزعنى الصوت فزعاً شديداً . . فقد كان وقعه فى أذنى وسط السكون السائد . . وأنا لا أتوقع وجود أحد لى . . شديد المفاجأة على نفسى .

وتملكتنى منه رجفة خوف . . سرعان ما أعقبتها هول شديد .

من يصدق هذا ؟ .

مستحيل ! . . لا يمكن ! .

إنى لا شك واهمة حالمة .. أأصابنى خبل، ومستنى جِنّة ؟

أهو حقاً أحمد ؟ !

أم ترانى ما رأيته وما سمعته . . ولكن شُبِّه لى ؟

أجل . . هو ذاك ولا شك . . لقد جسَّده لى الوهم من فرط ما تمنيته وفكرت فيه .

ومع ذلك . . فقد أخذ الشبح الطويل الفارع القامة، يقترب منى . . حتى بت أكاد أسمع تردد أنفاسه .

لقد كان هو أحمد . . بدمه ولحمه . . لا وهم، ولا شبح .

وكنت أنا المتسائلة هذه المرة فى صوت مبحوح، وأنفاس لاهثة :

ـ أحمد ؟ !

ومضت فترة صمت ، وكلانا يحدق فى صاحبه متدوهاً مبهوتاً دون أن ينبس بكلمة .

* * *

إنى أحاول الآن أن أصف مشاعرى وقتذاك .. ولكن يبدو لى أن الألفاظ والتراكيب تعيا عن وصفها .. وتبخسها حقها .

لقد حدثت المعجزة أخيراً ، فى زمن خلا من المعجزات وتحقق الرجاء الذى لم أجسر حتى على التفكير فيه .

ها هو أحمد .. ماجلس فى بيته يتمتع بالدفء ، ولا شغل عنى بامرأته وطفله ، بل يقف معى بجوار الساقية الخربة .. يشاركنى فى رجفة القر ، وعصف الريح ، ووحشة الليل .

وحشة ! حاشا لله أن تكون الوحشة حيث يكون أحمد .

لقد وقفت أحملق فيه ، وقلبى يدق بعنف ، ويكاد يقفز من بين أضلعى ، وقد تبدد من نفسى كل ما كان بها من حزن ويأس ولوعة وأسى . . وتطايرت من رأسى الهموم والأشجان .. ونسيت كل ما مر بى من حوادث مثيرة صاخبة ، وامحى من ذهنى كل مافى الوجود من كائنات ومخلوقات .. ولم أعد أرى إلا مخلوقاً واحداً .. هو أحمد .

كنت أقف أمامه .. بعد طول شوق ولهفة وحرمان

وهجران ، وبعد طول خنوع للمبـــادىء وخضوع للتقاليد ، وبعد طول إخلاص لزوج لا يستحق الإخلاص ، ومحافظة على شرف ملوّث مثلوم .

كنت أقف أمامه . . كالمجهرة الصادية . . ألهبها الهجير وأحرقها السعير ، وكادت تهلك ظمأ . ثم لوّح لها بقطرات من الماء البارد العذب .

ولم أنبس ببنت شفة ، ولم أسأله من أين أتى ؟ ولا لِمَ أتى ! لم أسأله عن شيء قط .

هل يسأل الظامىء الذى كاد يقتله الظمأ . . عن مورد الماء وكيف أتى ؟ أم يندفع إليه ليهدىء من حرارته ويطفىء ظمأه ؟

كذلك فعلت .

لقد اندفعت فى أحضانه . . بلا كلمـــة واحدة . . حتى ولا التحيـة . . لقد ثأرت لنفسى من طول الصوم والزهد ، والكبت والحرمان .

وضمنى إليه . . وأنا أرتجف وأرتعد . . ولم أتمـالك من الاندفاع فى البكاء . وأخذ جسدى يهتز بين يديه ، وأنا أشهق شهيق طفل ينتحب .

وهدأت نفسى أخيراً ، وكفت عيناى عن البكاء ثم أخذت أتحسسه جيداً . . لأتأكد أنه حقيقة . . وأننى لست حالمة .

وقلت له هامسة :

ـ كيف أتيت إلى هنا ؟ . كيف حدثت المعجزة ؟

وأجاب وهو يجلسنى بجواره فى مجلسنا القديم :

ـ كيف أتيت أنتِ ؟ هـذه هى المعجزة ! أما مجيئى أنا فليس من المعجزات فى شىء . . فليست هذه هى المرة الأولى التى آتى إلى هنا .. طالما جئت وحدى . . وقضيت الساعات فى الوحشة والظلمة والسكون .

ـ أنت كنت تأتى إلى هنا ؟

ـ ولمَ لا .. ما أحسست بالهدوء والسكينة إلا هنا .

ـ عجباً ! كنت أظنك أنعم بالا . . وأقر نفساً . . كنت أظنك نسيت المعبد المقدس .

ـ كيف أنسى ؟

ـ ظننت أن لديك من مشاغل الحيـاة ما يشغلك عن تلك الذكريات البائدة ، وخلتك ، وأنا جالسة وحيدة فى تلك الظلمة .. تنعم بدفء الفراش . . هانئاً بزوجتك وابنتك .

ـ زوجتى وابنتى ؟

وانطلقت منه ضحكة ملؤها المرارة والسخرية .

وأذهلتنى ضحكته اليائسة البائسة . . وأخذت أرقبـه فى إشفاق ودهشة . . فوجدته يطرق برأسه إلى الأرض .

وأردف فى صوت خافت :

— لم يعد لى زوجة ولا ابنة . . لقد ذهبتا كلتاهما . . الزوجة والطفلة .

— كيف ؟ .

— كانت الولادة عسيرة . . احتاجت إلى إجراء عملية جراحية .. أودت بالأم والجنين .. رحمها الله . . لقد تعذبت منذ اليوم الأول للحمل . . لم تر يوم راحة قط .

وتملكتنى عليه لوعة . . إنه لم يكن أقل منى مصاباً . . حتى آماله البسيطة التى قنع بها . . ذرتها الرياح .

وحاولت أن أقول شيئاً على سبيل العزاء . . ولكنى لم أجد ما أقوله . . فضغطت على يده فى صمت .

ورفع إلىّ بصره ، وتساءل :

— وأنتِ . . ماذا أتى بك إلى هنا ؟

— أتى بى ما أتى بك . . أبغى الطمأنينة . . وأتلمس العزاء والسلوان .

— وعمّ العزاء ؟

— عن كل شىء . . عن حياة مدمرة محطمة . . وعن مستقبل مظلم حالك .

— كيف ؟ ! ماذا حدث لزوجك ؟ هل . . . ؟

وأدركت ما يعنى بسؤاله . . فهززت رأسى ببطء . . وأجبته :

ــ لا . . ما زال على قيد الحياة . . ينعم بمباهجها ، ويرتع فى بحبوحتها ورغدها .

ــ إذاً فماذا حدث؟

وبدأت أقص عليه ما حدث . . منذ البداية . وشرحت له تصرفات زوجى وأفعاله . وذكرت له حادث مسابقة الفروسية . . وغيره وغيره ، وذهابنا إلى العزبة ، وعودته وحده . . ثم أنبأته بحوادث الليلة . . وكيف وجدتهما معاً فى البيت ، وكيف ذهبت إلى زوجها وماذا قال لى . . وكيف فكرت فى الخلاص بالانتحار ، وتصميمى على الذهاب إلى أبى رغم يأسى منه .

وقلت له فى النهاية :

ــ لقد ساقتنى قدماى إلى هنا بلا إرادة منى ولا تفكير . لم أكن أتوقع قط أن أراك . . كنت أتلمس العزاء من مجرد ذكراك . . من الشارع القفر . . والساقية الخربة . . وكنت أحن إليك حنين يائس أضاع الأمل ، وقطع الرجاء . وكنت أعتبر لقاءك إحدى المعجزات . . وعندما سمعت صوتك يهتف بى فى الظلمة . . كنت فى أقصى درجات اليأس . . وقد

هممت بالعودة إلى دارنا ، رغم أنى لا أتوقع من أبى خيراً . ولكن إلى أين أذهب ؟ . . إن التشرد والسؤال خير لى من العودة إلى حياتى السابقة .

ورفع يدى فوضع ظاهرها على فمه . . وضمنى إليه بأحد ذراعيه . فازددت به التصاقاً . . وقال لى فى لهجة تذوب رقة وحناناً :

ــ لا تقولى هذا . . أنت تتشرّدين ؟ . . أنت تشقين فى حياتك ؟

وأحسست وقد التصق جسدانا وأسندت رأسى على كتفه بطمأنينة عجيبة وهتفت بغير وعى :

ــ لا تتركنى وحيدة . . كفى صبراً وتجلداً واحتمالا . . إنى لم أعد أحتمل البعد عنك . . لقد أخذت نصيبى من الحرمان والشقاء . . وأنت ؟ !

ــ أنا ! ! ماذا تظنين حياتى كانت ؟ . . حياة كلها فراغ ووحشة ، ورياء ونفاق . . حاولت أن أخضع لمشيئة القدر وأن أكون زوجاً وفياً ، ولكن وفائى كان مداهنة . . كنت وفياً فى الظاهر . . أما فى الباطن . . فما استطعت قط أن أتحكم فى ذلك الثائر فى الحنايا . . المتمرد بين الضلوع . . كم حاولت تهدئته وتسكينه . ولكنه ما كان يهدأ إلا ليثور لأقل ذكرى

وأبسط سانحة . . كل شيء كان يذكرني بك . . ما من شيء طاف بي إلا ورأيتك فيه . . كنت أراك في السماء الصافية ، والنجوم الزاهية ، وأسمعك في حفيف الورق وهتاف الوُرْق . كنت أذكرك عندما أنام أو آكل أو أستيقظ . . كل المتناقضات كانت تذكرني بك : زهور الداليا ، وبرطمانات المستردة . . هديل الحمائم ، وضجيج المكانس . . . كنت أذكرك وأنت صائلة في البيت جائلة بمنفضة في يدك . . أو جالسة في الحديقة ، عارية القدمين . . ملوّثة بالطين . . لم أستطع أن أنزعك من نفسي . . لقد فشلت فشلا ذريعاً في ذلك . . كيف لا . . وقد كنت أخطيء أحياناً فأنادي زوجتي باسمك . . كيف لا . . وأنا ما كففت منذ اليوم الأول من زواجي . . عن زيارة معبدنا المقدس . . والجلوس وحيداً . . هنا في هذا المكان الموحش الخرب ! . لقد كنت وأنت جالسة وحدك . . تعتبرين حضوري إحدى المعجزات . . ولكني كنت أرى حضورك . . وأنا جالس وحدي . . فوق المعجزات . . لم أحاول قط أن أفكر فيه أو أتوقع حدوثه . . وماذا يمكن أن يدفعك إلى الحضور لأقصى الأرض . . وأنت منعمة مرفهة . . هانئة قريرة ؟ . إني ما أتيت هنا قط لمحاولة لقائك . . فقد كان ذلك أبعد

الأشياء عن ذهنى . . كل ما كنت أبغيه من الحضور . . هو التنعم بالذكريات الخالية . . ما أردت أكثر من أن أجلس وأفكر ، وأنعم بالهدوء والاستقرار . . كانت حياتى شقية منغصة . . فما كان هناك بينى وبين زوجتى أقل تفاهم . . كانت تشك فىّ . . دون أن تعرف شيئاً ظاهراً لهذا الشك . . كانت تدرك بغريزتها أن فى قلبى إنساناً آخر . . يستحيل عليها أن تطرده منه لتحل محله ، ولكنها لم تجد فى تصرفى الظاهر نحوها مأخذاً أو نقيصة . . كانت تحس أن الرباط الذى يشد أحدنا بالآخر سطحى واه ، لا يربط بين قلبينا ، بل بين أناملنا . وكانت متبرمة شاكية . . متوترة الأعصاب ، وزاد الحمل من توتر أعصابها وإنهاك نفسها . . فأضحت لا تطاق ، وبت أرى البيت الذى كان لى أمنية عزيزة جحيما يستعر بالشكوى والمرض ، وسباب الخدم وضجيجهم . . وكان لابد أن أجد لى مهرباً . . أنا الذى لا أحب أكثر من السكون والبشاشة والهدوء .

هنا كان مهربى ومفرى ومخرجى من سعير الدار . . حتى هدأ السعير ، وسكنت الدار ، وذهب كل شىء كأن لم يكن ، وهدأت الثورة كأنها هبة غبار ثارت من حولنا برهة ، ثم استقرت على الأرض ، أو تبددت مع الريح .

وخرجت أشيعها وأنا مطأطىء الرأس ، محنى الهامة . . أسائل نفسى فيم كان كل هذا ؟ ما بال القدر يستمر فى عبث لاطائل تحته ، ولا جدوى منه ؟ . لقد أصابنى بزواجها ، وأصابنى بوفاتها . . فيم كان الزواج والحمل والولادة . . إذا كان كل ذلك قد انتهى إلى لاشىء ؟ إلى قبر بقفرة وعظام نخرة .

وعدت من المقبرة ، وكأنى قد شيعت عبئاً ، وحملت عبئاً أثقل وأمر ، ولم أذهب إلى الدار ، ولا إلى الميس ، ولا إلى الثكنات ، بل تسللت من بين القوم لآتى إلى هنا لأدفن أحزانى وأغرق همومى .. فإذا أجدك بعد طول لهفة وحنين ، وقد بلغ بى اليأس من لقائك أشده . . وإذا بك تسأليننى ألا أتركك وحدك .

أتظنين أننى أستطيع تركك هذه المرة ؟

ليذهبوا جميعاً إلى الجحيم بتقاليدهم وقيودهم ومبادئهم . . ولتنطبق السماء على الأرض .

تعالى .

* * *

وجذبنى من يدى ، وحثثنا الخطى تاركين الساقية ، عابرين الممر إلى الطريق ، وكنت أحس وأنا أمسك فى يده وأسرع بجواره .. أنى قد أضحيت مخلوقة أخرى .. ملء نفسى

الجسارة وملء روحي الجرأة والإقدام .. لا أخشى عواقب، ولا آبه لنتائج .

كنت أحس أني لا أسير على الأرض ، بل على هام السحب . . وأني قد ألقيت عن كاهلي كل ما أثقله ، ورميت عن ظهري كل ما أنقضه ، وأني بت حرة طليقة ، وأني قد حطمت القيود ودمرت الأغلال .

لقد صفا ذهني ورسبت شوائبه ، وخلا تفكيري من كل شيء . . إلا شيئاً وحداً ، هو أني أسير بجوار أحمد ، وأني سأبقى معه . . لن تجرؤ قوة على الأرض أن تنتزعني منه . . سأكون له أي شيء . . حتى مجرد متاع .

كفى بعداً وحرماناً . . كفى استعباداً للشرف والتقاليد والقيود الزوجية . . لن أترك أحمد مهما حدث .

أليس هذا الإحساس كافياً لأن يقر نفسي ؟

ليذهبوا جميعاً — كما قال — إلى الجحيم . . الزوج والأب ، والخلق كلهم ، ولتنطبق السماء على الأرض ، فما عاد يضيرني شيء مادمت معه .

بهذه الأفكار الثائرة الحرة الطليقة ، خرجت من المزارع إلى الطريق ، فوجدت عربته الصغيرة تنتظر على الجانب القريب ، ودون أن ينبس ببنت شفة فتح بابها

وأجلسنى . . ثم اتخذ مجلسه أمام عجلة القيادة . . وفى لمح البصر . انطلقت العربة تنهب بنا الأرض نهباً .

وتلفت إليه فإذا به قد شرد بذهنه ، وأخذ يحملق ببصره فى غياهب الطريق الذى اخترقه الشعاع المنطلق من مصباح العربة ، وسألته بصوت أشبه بالهمس :

ـ إلى أين ! ؟

ـ إلى أقصى الأرض ، إلى القمر ، أو إلى المريخ . . لاتسألى عن شىء . . ألا يكفى أن نكون معاً ؟

ـ أجل !

ـ أتخشين شيئاً ؟

ـ أبداً .

ـ أتخافين عاقبة ؟

ـ ولا الموت .

ـ أواثقة أنت ؟

ـ ليس أحب إلىّ من الموت بجوارك .

ووصلت العربة إلى نهاية السور من ناحية المطرية ، ثم لف بها يميناً بجوار السراى ، وبعد برهة عبرنا شريط السكة الحديدية عند محطة سراى القبة ، واتجهنا يساراً فى طريق

الزيتون . ثم يميناً فى أحد الشوارع الفرعية ، وتوقفت العربة وترك أحمد مقعده قائلا :

ــ دقيقة واحدة . . لا تقلق .

وتركنى فى العربة ، وابتعد قليـــلا ، ثم دلف فى أحد الأبواب ، ورغم رجائه لى بألا أقلق ، فقد أحسست بالقلق .

لقد كنت أستمد شجاعتى من وجوده ، فلما غاب بدأت أتهاوى .. ولكن لم تمض دقيقة كما قال حتى أبصرت بشبحه يخرج من الباب ويأخذ فى الاقتراب ثم يتخذ مجلسه بجوارى ويدير العربة فى صمت إلى الطريق الرئيسى .. ليتوقف بعد برهة أمام إحدى محطات البنزين ويقول للعامل :

ــ املأ الخزان .

وانطلقت العــربة من محطة البنزين . . متجهــة فى طريق الحلمية .. وكان بى شوق أن أعرف إلى أين يذهب ، ولكن لم أرد أن أتساءل .. حسبى ما أنا فيه .. ألا يكفى ــ على حد قوله ــ أن نكون معاً ؟

وسمعت تنهيدة حارة انطلقت من صدره ، ووصل صوته إلى أذنى وهو يقول فى لهجة خافتة مقررة كأنه يحدث نفسه :

ــ الحمد لله . . كأن كل شىء قد رتب بفعل فاعل .

من كان يصدق أن القدر يكرمنا إلى هذا الحد؟! إن المعجزات لا تأتي فرادى .

ــ ماذا تعني ؟

ــ أليس لقاؤنا معجزة ؟

ــ أجل !

ــ والبقية تترى .. أتعرفين إلى أين نحن ذاهبان ؟

ــ لقد سألتك فلم تجب .

ــ لم أكن قد وثقت بعد .

ــ والآن ؟

ــ كل شيء على خير مايرام .. إن الظروف قد خضعت لمشيئتنا ، وأن الرياح لآتية بأقصى ماتشتهي السفن ؟

ــ وماذا كانت تشتهي السفن ؟

ــ مرفأ تلجأ إليه ، وملاذاً تلوذ به .. يحميها من عصف الرياح وتلاطم الأمواج .

ــ وركاب السفن ؟

ــ كوخ في أقصى الأرض .. بعيد .. بعيد .. نهرب إليه وحدنا ونقبع فيه بعيدين عن جميع البشر .. لا يرانا أحد ولا نرى أحداً .

ــ وهل وجدته ؟ هل أتت به الرياح ؟

ـ أجل .

ـ أين ؟

ـ فى الإسكندرية . . على الشاطىء فى ناحية منعزلة قصية .. فى آخر سيدى بشر .. يملكه صديق لى ، وقد طاف بذهنى ، فرأيت فيه خير مهرب ، وأفضل ملاذ ، وتمنيت أن أجد صاحبه فى داره . . حتى يعطينى المفتاح ، ولم يكن بيته ببعيد .. ذلك البيت الذى مررنا به منذ لحظات ، وكان يمكن ألا أجده ، وكان يمكن أن يقول إن المفتاح ليس معه . ولكن الظروف ـ كما قلت لك ـ قد لانت أخيراً ، وكأنها دبرت لنا كل شىء ، بلا عقبات ولا عراقيل .. لقد وجدته هناك ، وعندما سألته المفتاح ، تملكته الدهشة ، وهمّ بالسؤال ، ولكنى أنبأته أنى على عجل .. فلم يتوان لحظة ولم يتردد فى إعطائه لى ، متمنياً حظاً سعيداً . . قائلا إنه ترك كل شىء كما هو ، وأننى لن أتعب فى شىء .

* * *

وسارت بنا العربة فى طريق مسترد . . وبدت المزارع من خلال الزجاج سوداء قاتمة قد لفها الليل بضباب ثقيل ، وعلا نقيق الضفادع من الترع المجاورة للطريق . . مختلطاً بصوت عجلات العربة فى احتكاكها بالأسفلت .. صوت كالصفير أو الفحيح .

وسألنى أحمد فى حنان :

ـ ما رأيك . . أسعيدة أنت ؟

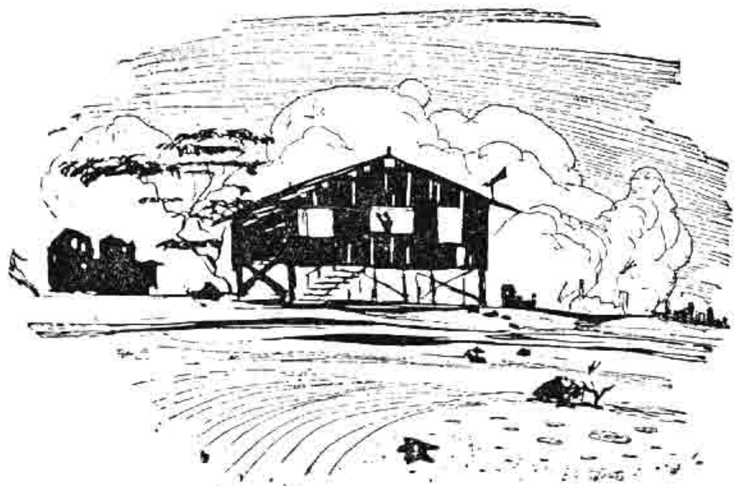
ـ كل السعادة . . إنى راضية عن كل ما تفعله . . معك أينما تذهب ، حتى نستقر سوياً فى باطن الأرض .

ورفع يمناه عن عجلة القيادة فتلمس بها يدى وتحسسها فى رفق ثم رفعها إلى فمه ، وأخذ يتحسسها بشفته كأنه عابد متبتل .

ورأن بيننا الصمت بعد ذلك ، وشرد كل منا بذهنه فى خضم أفكاره .

يا للعجب ! . . من كان يصدق أن هذا اليوم الحافل يمكن أن يختم بمثل هذه النهاية ! أ كان يخطر لى على بال فى أية لحظة من لحظاته القاسية الشقية . . أنى سأستقر فى نهايته إلى جوار أحمد ، هاربين بأنفسنا من تعاستنا وشقائنا ، واضعين آخر لطول البعد والحرمان !

وبدأت أحس بالتعب يحط على جسدى ، وشعرت وأنا أستقر إلى جواره والعربة تعدو بنا فى بهمة الليل .. أنى منهكة محطمة . . بعد ذلك اليوم الحافل بالمتاعب والحوادث ، المفعم بالجهد ، والمشقة ، والسير ، والسفر . . ووجدت جفنىَّ ثاقلان ، والنوم يتسلل إلى عينىَّ فأسندت رأسى إلى كتفه ولم أعد أشعر بشىء .



ساعة تفصل العمر

١٥

لا شك أنى استغرقت فى سبات عميق .. لم تفلح معه هزّات العربة ولا طول الطريق فى ايقاظى ، فانى لم أشعر بذلك الجهد الذى بذلته خلال اليوم — الجهد النفسانى والجثمانى — إلا عندما أخلدت بجواره إلى الراحة ، فاطبق النوم أجفانى وبسط علىّ سلطانه .

ولست أدرى كم مرّ من الوقت ، ولا كيف مر .. كل ما أدريه أنى استغرقت فى أحلام متقطعة مختلطة صاخبة ، رأيت فيهـــا أحمد مشتبكا مع زوجى . وأبى يعدو ورائى محاولا اللحاق بى ، وفى يده سوط يوشك أن يهوى به على ظهرى .. ثم رأيتنى أبكى بين أحضان جدتى ، وهى تربت على كتفى قائلة قولها المأثور « لا تكثرى من الآمال ، فإن وظيفة القدر هى أن يخيب آمالنا ، فلا تعطيه فرصة للشماتة بك » ثم رأيتنى بعد ذلك فى ثوب زفاف ، وقد جلست بجوار أحمد ، وأمامنا الشيخ المعمم وبيده قلمه ودفتره وقد بدا عليه الغضب ورفض أن يكتب العقد فيمسك أحمد بدفتره يمزقه تمزيقاً ، ويهوى على الرجل بضربة من يده ترديه صريعاً ، ثم أبصر الشرطة يكبلون أحمد بالأغلال ، ويسوقونه إلى السجن ، وأنا أصيح خلفه باكية « أحمد .. أحمد لا تذهب

وأحسست بالعربة قد وقفت ، ووصل إلى صوت أحمد يصيح :

ـ عايده . . عايده . . لا تبكى إنى بجوارك .

وفتحت عينى فإذا أحمد بجوارى ، وقد أمسك بوجهى بين يديه ، وأخذ يمسح دموعى ويهتف بصوت ملؤه الحنان :

ـ لا تبكى يا حبيبتى ، إنى لن أذهب أبداً .

وتشبثت بذراعيه فى خوف ، وأنا لم أفق بعد من تأثير الحلم ، وقلت هامسة :

ـ لا تتركنى .

ـ لن أتركك . . سأدافع عن مصيرنا معاً حتى الموت ، لن نفترق أبداً . . إما أن نبقى معاً ، أو نذهب معاً .

وتلفت حولى فلم تستطع عينى أن تخترق حجب الظلام المحيطة بنا ، ووصل إلى أذنى دوى مستمر وهدير صاخب ، فتساءلت :

ـ أين نحن ؟

ـ لقد وصلنا . . هذه هى الكابين ، قائمة على يميننا . . والبحر يهدر على يسارنا . . لست أدرى أين أضع العربة . . الرطوبة شديدة والرذاذ يتطاير إلى الطريق .

ـ كم الساعة الآن ؟

ورفع يده بالساعة وأضاء نور التابلوه وأجاب :

ــ الواحدة والنصف .. لقد وصلنا بسهولة والحمد لله . . لم تتعطل العربة . ولم تعترضنا عقبـــات . . ألم أقل لك إن الظروف تمهد لنا كل شيء . . سأدخلك الآن . . ثم أعود لأجد مكاناً للعربة .

ــ لا . . بل سأبقى معك . . ثم ندخل سوياً ، لا أجسر على البقاء وحيدة .

ــ كما شئت . . إنى أذكر أنه كانت وراء الكابين مظلة خشبية . . أشبه بشرفة فى الحديقة .

وبدأ يدير العربة ببطء مسلطاً ضوءها على « الكابين » ، كأنه نور كشاف ، وبدا لنا على الضوء سور خشبي به فتحة واسعة تكفى لدخول العربة .

واتجه أحمد بالعربة نحو الفتحة . . تاركاً أرض الطريق ، خائضاً فى الرمال ، ثم دلف إلى داخل السور ، ووقع ضوء العربة على قوائم خشبية ، وقال أحمد وهو يحرك العربة ببطء وتؤدة :

ــ ها هى المظلة .

ودخلت العربة بين الأعمدة الخشبية ، وأوقف أحمد الماكينة ، وأطفأ النور ، وتركنا العربة ، وأخذنا نتلمس فى الظلمة الدامسة .

وعلا صوت الهدير من ناحية البحر . . كأن بجوفه معركة طاحنة لا يهدأ لها أوار ، أو كأنه قفص يموج بآلاف الحيوانات المفترسة الجائعة . . وهبت الرياح شديدة عاصفة . . تحمل إلى وجوهنا رذاذ الماء . . وضممت المعطف حول عنق .. وأمسك « أحمد » بيدى يقودنى وسط الظلمة . . حتى وصلنا إلى باب « الكابين » . . وطرق سمعى صوته مرتفعاً ضائعاً بين هدير البحر وصخبه :

ــ احترسى . أمامك بضع درجات. امسكى ذراعى جيداً.

ولم أكن فى حاجة إلى نصيحته فقد كنت أمسك بذراعه كأنى غريق يتشبث بطوق النجاة .

وأخذ يتحسس بيده ثقب المفتاح . . وقال مازحاً :

ــ تصوّرى لو أن صاحبنا أخطأ فى المفتاح ؟ !

ــ لا شىء . . نبيت فى العربة .

وسمعت صوت المفتاح يصر فى الثقب ، وصوت أحمد يتنهد فى ارتياح :

ــ الحمد لله .

ودفع الباب . . فأرسلت مفاصله صريراً خافتاً ، وعاد أحمد يقول:

ــ بقيت مشكلة النور كان يجب أن أحضر ثقاباً أو

بطارية . هذه إحدى مزايا الذين يدخنون . ما بالك ترتجفين؟

وكنت حقاً أرتجف . . وكانت أسناني تصطك فترسل صوتاً مسموعاً . . لعله البرد . . أم لعلها رهبة الموقف . . أو فرط الجهد .

لم يكن عجباً أن أرتجف .. بل العجب أني بقيت واقفة على قدمي حتى الآن . . أنا المخلوقة الوادعة الساكنة . . التي كانت أقصى مغامرة أخوض غمارها هي أن أجلس وحيدة في الشرفة . كيف احتملت كل هذا ، وكيف جرؤت على الاقدام عليه !؟

وعاد صوت أحمد يقول :

ـ هذا مفتاح الكهربا . . ما بي من حاجة إلى ثقاب ولا ولاعة .

وغمر النور فجأة أركان المكان ، وأغلقت عينيّ لحظة ، فقد بهرهما الضوء بعد أن تعوّدت طول الظلمة . . ثم فتحتهما لأبصر صالة صغيرة . . قد توسطتها منضدة خشبية عارية وبضعة مقاعد من القش ، وهويت على أقرب مقعد . وأغلق أحمد الباب . ثم اقترب مني ، وأخذ رأسي بين يديه ثم وضع شفتيه على شفتي وهمس :

ـ أنت متعبة ؟

ـ جداً .

ـــ لشد ما عانيت طيلة يومك . . يا حبيبتى الغالية . . لن أدعك تتعبين بعد اليوم .

ـــ لن أتعب ما دمت معك .

وكان الحديث ينساب من الشفاه وهى مطبقة بعضها فوق بعض ، وأسبلت عينى وأحسست بخمول لذيذ .

ولم أفتح عينى حتى بعد أن رفع شفتيه ، بل تركت رأسى مسندة على ظهر المقعد ورحت بين اليقظة والسبات .

وسمعت صوته يقول :

ـــ لا تتحركى حتى أعد لك فراشاً .

ولم أتحرك لأنى لم أكن أستطيع حراكا . . كنت متعبة جداً ، وكنت أحس باسترخاء شديد . . كأنى فى شبه إغماء . ولم أعد أشعر بما حدث إلا كأنه حلم ، فرأيت فيما يرى النائم أن أحمد أقبل علىّ فحملنى برفق بين يديه ، وسار بى إلى إحدى الحجرات وأرقدنى على فراش . . ثم نزع حذائى من قدمى ، وخلع عنى معطفى ، وأخذ غطاء فدثرنى به جيداً ، ثم ركع بجوارى ، وأخذ يغمر وجهى بالقبل ، وأحسست بدمعتين ساخنتين تسيلان على وجهى ، وهو يلصق شفتيه بشفتى . . وانطلقت من صدرى زفرة حارة حملت معها كل هموم الحياة وشعرت براحة عجيبة ، آلت إلى نوم عميق ، لا تقطعه الأحلام.

***

واستيقظت فى الصباح وقد نسيت لأول وهلة ما حدث بالأمس ، وأخذت أقلب البصر فيما حولى فى دهش شديد ، ثم بدأت أدرك ماحدث ، وتواترت علىّ صور الليلة الماضية فى سرعة البرق ، وتملكتنى خشية ورهبة ، وحاولت أن أفكر فيما يمكن أن ينتهى إليه أمرنا ، ولكننى لم أترك لفكرى العنان بل نفضت عن نفسى الخشية والرهبة ، وقلت لنفسى إن أسوأ ما يمكن أن ينتظر أى إنسان هو الموت . . وأنه كان يجب علىّ أن أثوى فى قاع النيل لو أن لدىّ الشجاعة الكافية للانتحار فى الليلة الماضية ، فما يضيرنى أن أضيف إلى حياتى بضعة أيام هنيئة تساوى العمر كله . . ثم أختم بعدها الحياة .

يجب أن أنسى كل شىء . . إلا أننى بجوار أحمد . . وأننا نقطن فى « الكابين » سوياً بعيدين عن جميع البشر . . كأن الدنيا قد خلت إلا منا كلينا . . أو كأننا آدم وحواء .

إن من الجنون أن أتلف سعادتى بالتفكير فى ما يمكن أن يحدث . . وأن أترك خلسة الهناء . . التى انتزعتها من أنياب القدر . . لأشغل نفسى بمتاعب المستقبل .

ووثبت من الفراش . . أوفر ما أكون قوة ، وأقوى ما أكون أملا ، مصممة على أن أستغل هبة القدر أقصى استغلال وأن أنسى ما مضى . . وأغمض عينى عما هو آت .

وتلفت أتفحص فى الحجرة ومحتوياتها ، وكان بها نافذتان زجاجيتان إحداهما مواجهة وتنفذ منها أشعة شمس الصباح الدافئة ، والأخرى جانبية تطل على الطريق وبدا من خلالها البحر ، وقد هدأ موجه ، وسكن نوءه ، كأنه قد كلّ من طول الضجيج والصخب ، أو كأن وحوشه المفترسة الهادرة العاوية قد أعياها الصراخ فراحت فى سبات عميق .

وكان أثاث الحجرة غاية فى البساطة . . الفراش الذى كنت أرقد عليه وقد وضعت على حشية ، فرشت عليها ملاءة بيضاء ، وكوم الأغطية التى دثرنى بها أحمد ، ودولاب خشبى و«تسريحة» صغيرة واطئة ذات مرآة أشبه بمرايا «لونا بارك» وقد وضع عليها مشط وفرشاة للشعر «وعلبة بريل كريم» . وفتحت الدولاب فوجدت فى جانب منه بضعة أرفف وضعت فيها الملاءات ، والمناشف ، وأكياس الوسادات . . والجانب الآخر بضعة مشاجب علق على إحداها معطفى .

وخرجت إلى الصالة بملابسى التى كنت أرتديها بالأمس والتى رقدت بهـــا فى الفراش إذ كنت لا أملك غيرها ، وأخذت أبحث عن أحمد . . فإذا به يرقد فى حجرة مجاورة يفصلها عن حجرتى باب مغلق .

ووقفت بباب الحجرة أرقبه وقد أخذ يتنفس فى هدوء

وغطى جسده بسجادة عتيقة بالية . . فأدركت أنه دثرني بكل ماعثر عليه من أغطية ، ولم يجد مايقيه البرد سوى هذه السجادة .

وعدت إلى حجرتي فحملت ما على الفراش من أغطية . ثم اقتربت من فراشه على أطراف أصابعي ، ورفعت السجادة برفق ، ثم بدأت أضع الأغطية فوق جسده ، وعندما انتهيت من تغطيته وجدته يفتح عينيه ويقول ضاحكا :

ــ لا داعي لكل هـذا التعب . . ارفعيها ثانيـة . . لأني عزمت على النهوض !

ــ كان يجب أن نتناصفها . . بدلا من أن تثقل على جسدك بهذه السجادة المتربة .

ــ لقد تعوّدت التقشف والاخشيشان .

وقفز من فراشه وكان يرتدي القميص والبنطلون وسألني في مرح واغتباط :

ــ كيف أنت الآن ؟

ــ على خير حال .

ــ لقد كنت متعبة بالأمس !

ــ الحمد لله أن وصلت إلى هنا على قيد الحياة بعد كل مالقيت من جهد وعناء .

ــ سأعوّضك عن هذا التعب . . يجب أن تستريحي ،

وتدعيني أعمل كل شيء .

ــ بالعكس . . يجب أن تترك لى حرية التصرف فى شؤون الدار . . وألا تتدخل فيما لا يعنيك .

ــ ألا تريدين أن تستريحى ؟

ــ أمامى عمل كثير فى الدار ، يجب أن ترتدى ملابسك وتذهب لابتياع ما سأطلبه منك .

ــ بدأنا الأوامر من الآن !

ــ إن أوامرى يجب أن تنفذ بحذافيرها .

ــ هات الثمن مقدماً .

ومد إلىّ ذراعيه فجأة وضمنى إليه بعنف وهمس فى فمى :

ــ أنتِ لى ؟ .

ــ وأنتَ لى .

ــ لى وحدى بلا شريك ولا منازع ؟ .

ــ لك وحدك . . الآن ، وفيما مضى ، وفيما بعد . . ما استطاع مخلوق أن ينتزعنى منك .

ــ أحب رائحة أنفاسك ، ورائحة شعرك . . كنت دائماً أتمنى أن أقبلك وأنت ناهضة من الفراش . . مازال النوم يثقل أجفانك . أنت جميلة دائماً على أى حال وفى كل وقت ، ما رأيت إنساناً يستيقظ من سباته ، بمثل هذه الروعة ، وبمثل هذا الجمال .

وأفلت من بين ذراعيه ، وقد ملأنى من حديثه نشوة .

ونظرت إلى ساعة يده ، وقد وضعها على المنضدة فإذا بها الثامنة والنصف .

* * *

وفى التاسعة كان يهبط من البيت ، وقد حمل معه ورقة بكل ماطلبت منه ، ولم يكد يصل إلى العربة حتى ذهبت إلى النافذة وصحت به :

ــ نسينا شيئاً هاماً .

وصاح بى من أسفل :

ــ ماهو ؟

ــ قدح عدس بجبة .

ــ أما زلت تذكرين ؟

ــ وخل وشطه لميّة الدّقة !

ــ لا لزوم لها الآن .

ــ بل لابد أن تحضرها .. سأريك أنى طباخة ماهرة « مدقدقه » .

ــ سأحاول .

وانطلقت العربة فى طريق الكورنيش تجاه الاسكندرية وأخذت أجول فى الدار الخشبية أفحص حجراتها ومحتوياتها .

ولم يكن بها عدا الغرفتين اللتين نمنا فيهما سوى غرفة أخرى للجلوس وشرفة زجاجية منسعة تطل على البحر ، وكانت دورة المياه صغيرة ونظيفة ، والمطبخ يكاد يكون مستوفياً جميع لوازمه من أطباق وكسرولات وأدوات للطعام .

لقد كان الكوخ فى نظرى نموذجياً ، لايحتاج إلا لعملية نظافة . . ولم يكن هناك أقدر منى عليهـــا ، وانطلقت بحماسة مشمرة عن ساعدى ، ورفعت ذيل فستانى ، ولففته حول وسطى ، كأنى خادمة ماهرة ، وبدأت عملية الكنس وتنفيض الأثاث وإزالة الأتربة عن النوافذ ومسح الزجاج ثم ملأت « دلواً » عثرت عليه فى الحمام ، وأخذت فى مسح الأرض ، ووضعت على المنضدة غطاء نظيفاً ، وغيرت أكياس الوسائد وأغطية المراتب وجمعت كل مايحتاج إلى الغسل .

وسمعت صوت العربة تقف أمام الدار ، وأحمد يقرع الباب ، وفتحت له ، ووقف ينظر إلىّ وهو يحمل بين يديه كيساً ملىء بالخضر والفاكهة ، والحاجيات التى طلبتها منه ، ووجدته يضحك ملء شدقيه ويقول :

ـــ ما شاء الله . . هذا والله منتهى الأناقة « والشياكة » لاينقصك سوى « منديل رأس بأوية » . . و « زوج من الخلاخيل » . . من علمك أن تربطى ثيابك هكذا حول

وسطك أيتها الأرستقراطية ؟

ــ علمتيهـــا . . من علَّك أكل « الكشرى أبو جبة ومية الدقة » . . يا حضرة الأرستقراطى . . ادخل .

ودخل أحمد ووضع ما معه على المنضدة وقال وهو يزفر :

ــ عليك من ده بايه يا بنت الناس . . ما كان أغنانا عن كل هذا التعب . . كنا نستطيع أن نتناول غداءنا فى أحد المطاعم ثم ننعم بفراغنا وحريتنا . . لِمَ كل هذا الجهد ؟

ــ ليس هذا بجهد . . إنى سعيدة كل السعادة . . سأكون معك هكذا دائماً « ست بيت » . . هذا ما أحب أن أكونه . لقد شبعت فراغاً ، ونزهة ، وحرية ، وانطلاقاً . . أريد أن أكون زوجة . . زوجة وخادمة . . لقد مللت السيادة الكاذبة والأرستقراطية الزائفة . . كرهت الملاهى والفراغ ، والدعة والخمول . . ألا تحبنى هكذا ؟

ــ أحبك هكذا . . وغير هكذا . . لو سرحت « بشنة فول نابت » لعدوت وراءك فى الطرقات . . ولو جمعت « أعقاب السجائر » لعاونتك على جمعها . . إنى أحبك كيفما تكونين . . أيتها المخلوقة المثلى .

ــ هيا . . وكفى غزلا .

ــ ماذا تريدين منى أن أكون ، مرمطوناً ، أم غسالة ؟

— لا أريد منك شيئاً ، دع كل شيء لى . اذهب وتنزه على الشاطىء ، أو اجلس واقرض الشعر ، وسأفعل كل شيء .

— لا تكونى عنيدة . . لابد من معاونتك . . أقشر لك البطاطس . . أو أصفى لك الطماطم ؟

— لا أريد معاونة أحد . . أرح نفسك .

— حسناً . . سأفعل شيئاً طالما تقت إليه .

— ما هو ؟

— أستحم فى البحر .

— الآن ؟

— أجل ! .

— لا تكن مجنوناً .

— ولِمَ ؟

— أتستحم فى هذا البرد ؟

— ليس برداً . . إن الشمس تدفىء الكون .

— الشمس لا تدفىء شيئاً . . نحن فى عز الشتاء .

— لقد تعوّدت أن أسبح فى حمام السباحة ، فى مثل هذا الوقت . . فى أول الأمر أحس برجفة . . ثم أتعوّد برودة الماء بمجرد أن أمعن فى السباحة .

ثم بدأ فى خلع ملابسه بسرعة ، ولف نصفه الأسفل بمنشفة ،

وانطلق يعدو إلى البحر فى مرح الأطفال وهو يصيح بى :

ــ خذى بالك من « الكشرى » . إياك أن يشيط .

وتملكتنى عليه فى بادىء الأمر خشية البرد . ولكنى عند ما وقفت فى الشرفة وأحسست دفء الجو وحرارة الشمس اطمأن قلبى وعدت إلى الداخل لأباشر أعمالى .

ولم أكن جاهلة بشئون الطهى . فقد كنت كثيراً ما أزج بنفسى فى المطبخ . . وأنهمك فى الطهى مع « أم حسن » الطباخة . . بل كنت فى بعض الأحيان أتولى طهى بعض الأصناف وحدى .

وبدأت فى تقشير الخضر وإيقاد الكوانين . . ولم تمض برهة حتى كانت النيران تئز تحت الأوانى .

وكانت عملية غسل الملابس والملاءات ما زالت تنتظر دورها ، وكنت أحس بغبار السفر وقذارة الكنس والمسح تحط على جسدى . . وكان لا بد لى أيضاً من الاستحمام .

وجمعت ملابس أحمد التى خلعها ، وخلعت ملابسى ، وارتديت المعطف « على اللحم » . وبدأت أقوم بغسل الملابس فى الحوض وأنا أرقب الطعام بين آونة وأخرى .

وانتهيت من الغسيل ، وبدأت « عملية النشر » على حاجز الشرفة كما أنا بالمعطف المجرد ، وأنا أحس بنشاط عجيب .

ولم أكد أنتهى من « النشر » حتى أبصرت أحمد يعدو متواثباً

ويقفز الدرج ، ثم يقف أمامى ناظراً إلىّ فى دهش وتساؤل :

ـ والغسيل أيضاً ؟! أقسم أن أحد أجدادك كان خادماً.

ـ جدى . . أبو أمى ؟

وكان جدنا من ناحية الأم مشتركا . . فضحك وأجاب :

ـ لا . . جدك أبو أبوك بالطبع .

ـ ادخل لئلا يلفحك البرد . . كنى جنوناً . . ما رأيت إنساناً عاقلا يستحم فى البحر فى هذا الوقت من الشتاء . . إن فى شفتيك زرقة .. ادخل ولا تقف هكذا عارياً .

ونظر إلى الملابس المبتلة المرصوصة على سور الشرفة ، وهزّ رأسه فى أسف وقال :

ـ وماذا أرتدى وقد غسلت الملابس الوحيـدة التى أستطيع أن أستر بها جسدى ؟ .

ـ لف جسدك فى إحدى البطاطين حتى تجف الملابس .

ـ حاضر .

ودخل إلى الدار . . وبعد لحظة خرج إلىّ وقد لف جسده ببطانية وبدا كأحد تماثيل الإغريق وقال :

ـ هكذا يعجبك ؟

ـ جداً . . بك شبه كبير من . . . .

ـ من ماذا ؟ من طرزان؟

ـ لا .. من « أم على » بائعة الفول النابت .

ـ أشكرك .

ـ العفو .. عليك الآن أن ترقب الطعام حتى أستحم أنا الأخرى .

ـ أراقبه ؟! كيف ؟

ـ يعنى تقف أمامه .

ـ حتى لا تفر الحلل ؟

ـ لا . . حتى لايحترق . . اكشف على الحلل من آن لآخر ، فإذا رأيته يوشك أن يجف فضع قدراً آخر من الماء .

ـ بسيطة . . أهذه كل المأمورية ؟

ـ أجل .

ودخلت الحمام ، وكنت قد وضعت ماء فى « صفيحة » تسخن . . ولم أكد أنزع المعطف عن جسدى وأمسك بقطعة صابون ، حتى سمعت طرقاً على الباب وأجبت :

ـ ها .

ـ الكشرى فار .

ـ ارفع غطاء الحلة قليلا .

وبعد لحظة . . عاد يدق الباب مرة أخرى :

ـ رفعته . . ومستمر فى الفوران؟

ـ دعه يفور كما يشاء . . لا تضايق نفسك كثيراً به .

ـ إن منظره لا يعجبنى . . لا يبدو كالكشرى الذى كنت آكله فيما مضى فى ميدان السيدة زينب !

ـ سيعجبك عندما ينضج .

وبدأت أصب الماء على رأسى وجسدى عندما سمعت صوته يصيح من وراء الباب : « عايده » ؟

ـ نعم !

ـ البطاطس يكاد يجف . أى قدر من الماء أضع فى الحلة ؟

ـ كوب يكفى .

ومضت فترة قصيرة ثم سمعته يصيح :

ـ لم أكن أظن أن الطهى بمثل هذه السهولة

ثم علا صوته بعد ذلك يدندن بأغنية الجندول ، ولكن لم يكد يبدأ فى الأغنية حتى كف عنها وصاح بأعلى صوته :

ـ عايده .. الحق .. الكشرى اتحرق .. إنى أشم رائحة « شياط » .

ـ الله يلعن أبو الكشرى .. والذى اخترع الكشرى . حاضر . . خارجه حالا .

وأسرعت بإزالة الصابون عن جسدى . . ثم جففت الماء بالنشفة . . وارتديت المعطف ، وخرجت إليه فوجدته واقفاً

أمام « حلة الكشرى » يتذوق منها بملعقة ويهتف :

— هائل .. لم أذق ألذ منه من قبل .

— لمَ قلت إذاً أنه احترق ؟

— خيّل إلىّ .

وتناولت منه الملعقة وأخذت ألحس بقية « الحلل » . . وأحسست به يفحصنى بطرف عينيه .. وكنا نقف متلاصقين فوجدته يمد شفتيه ويتحسس بهما ذقنى وجانب شفتى وطرف أذنى . . وأحسست بقشعريرة فى جسدى ، وسمعته يقول فى صوت رقيق :

— أنت بردانة ؟ انتظرى حتى أحضر لك البطانية الأخرى .

واختفى فى إحدى الحجرات ثم عاد حاملا البطانية ولفها حول جسدى . . ثم حملنى بين يديه وسار بى إلى الفـــراش فوضعنى عليه برفق وقال :

— عليك الآن أن تستريحى . . سآخذ دورى فى العمل .

وسأتولى تجهيز المائدة والقيام بدور السفرجى .

— اطفىء الكوانين فقد نضج الطعام .

— حاضر ، لا تتحركى من الفراش ، سأقوم بكل ما تريدين .

وأحسست براحة عجيبة ، وأنا راقدة فى الفراش . وبدا لى أننى طرحت خلفى كل ما حملت من أعباء الحياة .

وسمعت وقع أقدامه تغدو وتروح . . وصوت أطباق توضع على المائدة . وبعد برهة ، وجدته يقف أمامى ويقول وقد انحنى فى احترام بالغ :

— تفضلى يا هانم . . المائدة جاهزة .

وهممت بالنهوض ، ولكنه وضع يده على كتفى قائلا بنفس اللهجة الخاشعة :

— لا تتحركى ، إياك أن تتعبى نفسك ، سأحملك إلى المائدة .

— أحمد . . كفى سخافة . . دعنى أسير .

— أبداً . . لا بد من حملك . . إن أمتع شىء لدىّ فى الحياة هو حملك ، فلمَ لا تدعينى أحملك . . فتريحينى وتريحى نفسك ؟

وضحكت واستلقيت على الفراش وقلت :

— تفضل .

ورفعنى بين يديه وضمنى إلى صدره ، وسار وهو يضع شفتيه على شفتى ، وأنفه على أنفى وهمس قائلا :

— واحد شايل روحه . . والثانى تعبان ليه ؟ !

ووقف بى أمام المائدة ونظر إليها معجباً وقال :

— ما رأيك ؟

وكان ما يزال يحملنى بين يديه فأجبته :

— أرجو أولا أن تضع « روحك » على أحد المقاعد .

ــ حاضر

وجلست أمام المـــائدة . . وقد رصّ عليها الصحاف ، ونظرت إليه معجبة وقلت :

ــ لابد أن أحد أجدادك كان سفرجياً !

ــ هذه المرة .. جدى لأمى .

وبدأنا فى تناول الطعام . . ولا أظنه كان جيد الطهى ، ومع ذلك فما أذكر قط أن أكلت بشهية ، كما أكلت حينذاك ، ولم نكف عن تبادل النكات والأحاديث المرحة طيلة الطعام.

ولست أدرى ما الذى دفع فى رأسى فجأة ذلك الخاطر القلق . . فجعلنى أفكر فى كيف يعلل « أحمد » هذه الغيبة عن عمله ، وماذا ترى سيفعلون به ؟

عن نفسى أنا لا يهمنى قط ما يمكن أن يؤول إليه مصيرى فكفى أنى استمتعت فى حياتى بهذه الفترة التى أحيا فيها الآن . كفى أن لقيت فى حياتى « ساعة تفضل العمر » .

ولكن هو .. كيف تركته يندفع معى فى هذه المغامرة ، دون أن أفكر فيما يمكن أن يصيبه من جرائها ؟

ولا شك أنى كنت أبدو ساهمة شاردة ، فقد وجدت أحمد يهتف بى :

ــ عايده .. ما بالك ؟

وهززت رأسي وأجبته محاولة الضحك :

ـ لا شيء .

ـ بل هناك مايقلقك . . ماذا تخشين ؟

ـ أخشى عليك .

ـ م ؟

ـ ماذا سيقولون عن غيابك عن عملك ؟

ـ لقد كلفت صاحبي أن يقدم عني طلباً بثلاثة أيام إجازة محلية ، ولاشك أن القائد سيوافق عليها . فهو إنسان لطيف .

ـ وبعد الثلاثة أيام ؟

ـ يفعل الله مايريد . لا تشغلي نفسك بالتفكير في أي شيء.

وفي نفس الوقت الذي ساق إليّ نصيحته تلك . . بدا هو الآخر ، وقد شرد ذهنه ، فقلت ضاحكة :

ـ لقد جاء دورك في التفكير !

ـ أنا ؟ ! ليس في رأسي شيء .

ـ بل به مايضايقك ؟

ـ أقول لك الحق . . كنت أفكر في مصيرك أنت .

ـ مصيري أنا ؟

ـ أجل . . إني أنا الذي يجب أن أخشى عليك .

ـ لمه ؟

ـ كان يجب عليّ ألا أغريك بالاندفاع معى . . لقد اندفعنا كالمجانين . . كان يجب علينا التريث . . لقد كنا مثلا للعشاق الفدائيين .

ـ أتطرّق الندم إلى نفسك ؟

ـ أنا لا يهمنى شيء قط . . ولكن أنت ؟ ! ! . . إنك ما زلت زوجة ؟

ـ زوجة ؟ . . لا تقلها مرة أخرى . . أى زوجة أنا ؟ زوجة ضائعة الحقوق . . مهدرة الكرامة . . مسلوبة زوج لا يستحق السلب . . لا . . لا . . إنى لا أعتبر نفسى زوجة وأستطيع أن أؤكد لك أن مصيرى يمكن أن ينتهى إلى أى شيء إلا العودة إلى هذا الحيوان .

ومضت برهة استغرق كلانا فى التفكير . . وبدأت أتصور حياتى البغيضة وزوجى الكريه . . ولكن سرعان ما نفضتها عن ذهنى كما ننفض الأتربة عن الثياب وقلت لأحمد:

ـ أرجوك . . دعنا من كل هذا . . يجب ألا نفسد هناءنا بتذكر الماضى ، أو التفكير فى المستقبل . . يجب أن نعيش فقط فى حاضرنا السعيد .

وضغط على يدى وأجاب:

ـ أجل . . يجب أن ننسى كل شيء ما دمنا وحدنا .

وتركنا المائدة . . ورفعت عنها الصحاف وبقايا الطعام وخرج هو إلى الشرفة . . ثم عاد يقول

ــ لقد جف « الغسيل » . . ما رأيك فى الذهاب سوياً إلى الإسكندرية لنجول جولة فى شوارعها ونبتاع بعض اللوازم ؟

ــ كنت أوشك أن أطلب منك هذا . . هيا بنا .

وبعد لحظات كنا قد ارتدينا ملابسنا . . وأغلقنا الباب ثم هبطنا إلى العربة وسارت بنا تنطلق فى طريق الكورنيش .

كانت تلك هى المرة الأولى التى أحضر فيها إلى الإسكندرية فى الشتاء . . إنى ما ظننت أنها لطيفة بهذا القدر . . أم ترى الرضا كائناً فى نفسى . . وعين الرضا عن كل عيب كليلة ؟

ليكن ما يكون . . إن حقائق الأشياء لا قيمة لها . . إلا بالقدر الذى نراها به . . لقد كنت أحس والعربة مندفعة على الكورنيش . . والطريق خال والرمال منبسطة . والبحر ممتد إلى ما لا نهاية . . أنى أسير فى طريق خاص . . وأن كل ذلك البحر والفضاء . . ملكنا وحدنا . . لا شريك لنا فيه .

وصلنا إلى ميدان الرمل وأوقف أحمد العربة . . ثم سرنا نجول على أقدامنا .

وكنت أحمل فى حافظتى ورقة بعشرة جنيهات أعطاها لى « توتو » عند تركه إياى فى العزبة ، وكنت أحس بقيمتها الآن ،

فهى لا شك ستنفعنا نفعاً كبيراً . . وقلت لأحمد أنبئه عنها :

ـــ معى عشرة جنيهات .

ثم مددت يدى فى الحافظة وأخرجتها له ، ولكنه أجاب مؤنباً :

ـــ أنا أيضاً معى نقود .

ـــ ضعها مع نقودك . . حتى نصرف منها .

ـــ بل ابقيها معك . . إن معى ما يكفى .

وقلت له غاضبة :

ـــ أحمد . . لا تكن سخيفاً . . ليس هذا وقت كبرياء وكرامة . . نحن فى حاجة إلى نقود . . وقد تكون نقودك كافية ولكن إذا أضفت إليها نقودى فستكفى أكثر . . أرجوك كف عن هذا العناد . . ودعنا نستمتع بوقفتنا .

ونظر إلىّ أحمد ثم ضحك . . ومددت يدى بالورقة فوضعها فى جيبه .

وانتهينا من جولتنا وابتعنا ما نحتاج إليه من ملابس وأطعمة وأشياء مختلفة ، ثم عدنا إلى العربة ، وكانت الساعة قد بلغت الخامسة والنصف . . وسألنى أحمد :

ـــ ما رأيك فى الذهاب إلى السينما ؟

ـــ كما تشاء .

وذهبنا إلى إحدى الدور ، ولم نكد نستقر على مقاعدنا حتى أحسست بيده تضغط على يدى وسمعته يهمس .

ــ أتذكرين أول ذهاب لنا إلى السينما سوياً ؟

ــ عندما تركتنا جدتى وذهبت إلى نفيسه هانم ؟

ــ وعند ما لم نطق البقاء فى السينما

ــ وذهبنا للسير وراء السراى !

وساد الصمت لحظة . . ثم سمعته يهمس ثانية :

ــ إنى لا أطيق الجلوس الآن .

ــ ولا أنا .

ــ هيا بنا .

ــ هيا . . .

وهكذا انصرفنا من السينما بعد خمس دقائق من دخولها.. إن الوقت أثمن من أن نضيعه فى الإمعان فى الشاشة . . فقد كان كل منا يرى فى وجه صاحبه أجمل ما يمكن أن يرى . . ويسمع من شفتيه خير ما يمكن أن يسمع .

وعدنا إلى الدار ووضع العربة مكانها وصعدنا الدرج نحمل مشترياتنا . . ملء نفسينا الثقة والاطمئنان .

لم يكن بى من رهبة الليلة الماضية وإنما كبها شىء . وما كان بى أقل شعور بالاغتراب أو الوحشة ، بل كنت أحس أنى مقبلة

على موطني الطبيعي، وداري التي ألفت سكناها منذ عشرات السنين.

ودلفنا إلى الداخل . . فلم تنفذ إلى أنفي رائحة تراب ، ولا صدم عيني منظر خراب ، وأحسست بالسكينة وأنا أجد الصالة نظيفة مرتبة . . تتوسطها المائدة مغطاة بمفرش أبيض نظيف وضع عليه الكوب الذى وضعت فيه بعض أغصان خضراء وزهور برية قطفتها من الأعشاب التي تحيط بالمنزل .

ووضعت لوازم الطعام في المطبخ . . ورتبت الملابس في الدولاب . . ثم بدأت أعد العشاء . . .

وأحسست بشفتيه تمسان عنقي وأنا أقف أمام مائدة المطبخ وسمعته يهمس :

— دعيني أتمم عملك . . واذهبي لتغيرى ملابسك . . إن هذا دورى فى العمل .

— سأغيرها بعد العشاء .

— بل تغيرين الآن . إنى أتوق إلى رؤيتك بالبيجامة الزرقاء .

— قلت لك بعد العشاء .

— لا أستطيع الانتظار .

— لحظة واحدة حتى أنزل « البيض » عن الوابور .

وأطفأت الوابور . . ثم تركته يعد المائدة . . وذهبت إلى حجرتي وأخذت أغير ملابسى ، وقد تملكتني قشعريرة

عجيبة واضطراب لذيذ كأنى مقبلة على عرس .

ووقفت أمام المرآة أرقب نفسى وقد ارتديت البيجامة .

حمداً لله . . إنى مازلت جميلة . . بل ما أظننى كنت أجمل مما أنا الآن ؛ لا تظنوا بقولى غروراً ! ! .

أو ظنوا كما شئتم ! ! مغرورة أو غير مغرورة . . لقد كنت أرى نفسى جميلة . . وكان هو يرانى أجمل . . ماذا يهم بعد ذلك إذا كنت فعلا غير جميلة ؟ !

ومع كل ذلك — ورغم أنى قد أكون لا أخلو من الغرور — فإنى أؤكد لكم أنى جميلة .

وكيف لا أكون . . وأنا أبصر صدرى فى المراة ، وقد رفع صدر البيجامة . . وتجسد من ورائها . . وخصرى وقد ضمه الحزام ، واستوى من تحته ردفى ؟

ووجهى ! ! إنه ما زال كما هو دائماً .. نضراً .. متورداً ، وشفتاى وعيناى وشعرى المنساب . . تماماً كما كنت أقف فى المرآة فى حجرتى فى بيت الحدائق.

وخرجت إلى الصالة ، فوجدت أحمد قد أتم إعداد المائدة وجلس ينتظر ، وعندما أقبلت عليه رفع بصره إلىّ وأخذ يحدق فى كأنه لم يرنى من قبل ، ثم هتف :

— مدهشة . . .

ثم هز رأسه أسفاً وأردف :

ـ كان يجب ألا تغيرى ملابسك إلا بعد العشاء .

ـ ولمه ؟

ـ حتى أستطيع التمتع بالطعام .

ـ وماذا يمنعك الآن ؟

ـ أنتِ . . ليس من بين الطعام ما يستطيع أن يحولنى عن النظر إليكِ .

ـ ولا الكشرى ؟

ـ ولا الكشرى .

ـ هذا تصريح خطير . . أستطيع أن أعتبره أنتصاراً كبيراً لى . . وهزيمة منكرة « للكشرى » .

وهممت بأن أجلس أمامه ولكنه صاح :

ـ بل بجوارى . . ملاصقة لى .

ـ دعنا نأكل . . أرجوك . . دع الغزل إلى ما بعد الطعام . . ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه .

ـ ولكنه جعل له قلباً وبطناً . . فلك القلب وللمائدة البطن . . اقتربى أرجوك . . لاتضيعى عمرنا سدى .

وحملت الكرسى فجلست بجواره ، وبدأنا نتناول الطعام وهو يأكل بيد ويحيط خصرى باليد الأخرى ، وقلت له :

٤٠١

ــ أحمد . . كل بيديك كلتيهما .

ــ أخشى أن أغمض عينى وأفتحهما فلا أجدك . . أخشى أن تفرى من يدى . . هل تصدقى أنى كثيراً ما يشرد بى الذهن فيخيل إلىّ أن كل ما أنا فيه ليس إلا حلماً . . وإنى سأستيقظ بعد لحظات لأجد الحلم قد تبدّد وأجدك أثراً بعد عين .

ــ هبه قد تبدّد . . ألا يكفينا ما نتمتع به الآن ؟! ألا تعوّضنا هذه الساعات . . عن شقاء العمر كله ؟

ــ أجل ، ولكنى وددت لو يدوم الحلم ، وألا نستيقظ منه أبداً .

وانتهينا من الطعام ، وغادرنا المائدة ، ودلفنا إلى الشرفة الزجاجية المطلة على البحر وجلسنا متلاصقين على أريكة من القش وقد أسندت رأسى على صدره .

ورنا كل منا فى صمت إلى ما وراء زجاج الشرفة ، وكان هدير البحر يصل إلى آذاننا خافتاً كأنه منبعث من مكان ناء وغور سحيق . . والزجاج قد تندى بقطرات الماء ، وبدت السحب من ورائه متقطعة تخفى بين طياتها القمر حيناً وتظهره حيناً . . وبدا القمر كأنه يعدو وراء السحب . . وهى ثابتة لا تتحرك ، وهو يطل من خلفها بين آونة وأخرى ، وكأنه يلعب ، استغماية ، أوكأنه يحذرنا مداعباً ويبتسم ابتسامته

المشرقة ليقول « حذار . . إنى أراكما » .

وأحسست من فرط المتعة والراحة والشعور بالاستقرار أنى لا أطمع فى شىء إلا البقاء فى مجلسى إلى الأبد . . وأنى لم أعد فى حاجة إلى أكثر من ذلك .

ولم نتكلم .. فقد كنا ثملين فى جلستنا .. ثملين من غير خمر ، فقدنا القدرة عن أن نأتى بأى شىء حتى الكلام ، ومد أصابعه يتخلل بها شعرى . . كما تعوّد أن يفعل دائماً . . ثم أخذ يتحسس بها وجهى ، ويلمس أهداب عينىّ ثم أنفى وشفتىّ .

واستقرت أصابعه على شفتى . . فأخذت أقبلها قبلات خفيفة أشبه بحسو الطائر الفزع . . وأضغط عليها بأسنانى ضغطات مترفقة حنونا . . شاعرة من ذلك بمتعة عجيبة .

وتمدد على الأريكة واضعاً رأسه على ساقى ، مسنداً قدميه على حافة الأريكة ، وأخذ كل منا يرنو إلى وجه الآخر وأصابعه مازالت على شفتى أقبلها حيناً وأضغط عليها بأسنانى حيناً آخر .

وسمعته يهمس :

— أأثقل برأسى على ساقيك ؟

ولم أجب بكلمة . . بل انحنيت برأسى على رأسه . . ووضعت شفتى على شفتيه . . ومضت فترة صمت كنت أسمع خلالها دقات قلبينا وحفيف أنفاسنا .

ورفعت رأسى أخيراً ونهض عن ساقى فجلس بجوارى ثم حملنى بين يديه وأجلسنى على ساقيه كأنى طفلة غريرة . . وأحاط جسدى بذراعيه . . ثم أطبق شفتيه على شفتى . . وضغط عليهما ضغطاً شديداً حتى تلاصقت أسناننا .

وأغمضت عينى مستسلمة . . وأحسست باسترخاء شديد ورغبة فى النوم . . وهمست به قائلة : أريد أن أنام .

ودون أن ينبس ببنت شفة حملنى بين يديه وسار بى إلى حجرتى ، ووضعنى برفق على الفراش .

ثم حمل الأغطية ، فأخذ يدثرنى بها كما فعل بالأمس ، فلما انتهى، وقف ينظر إلىّ فى صمت وتردد ، وسألت فى صوت خافت :

— وأنت . . بمَ ستتغطى ؟

— بالسجادة .

— ألم تشعر بالبرودة فى الأمس ؟

— كلا .. لقد كان فيها الكفاية .

وصمت برهة ، وكنت أحس أن المسألة تحتاج إلى شىء من الشجاعة ، وما أظنها كانت تنقصنى ، فلقد همست فى صوت حالم ، وأنا أرفع الغطاء وأفسح له مكاناً بجوارى :

— تعال . . دعنا نتشارك الغطاء . . دعنا نتشارك فى كل شىء : النوم ، والصحو ، والحياة ، والممات .



١٦ خروج بلا إذن

أن أتهم بالإباحية والزندقة ، إذا أنا تحدثت بشيء
أخشى عن ليلتنا الأولى . . ليـــلة تشاركنا فى الفراش
والغطاء . . ومزجنا الروح بالروح ، والجسد بالجسد .

أنا أعلم أنها أشياء لاتكتب ، ولا تقال . . فنحن فى عالمنا هذا ، المملوء بالعجائب ، ندعى الاشمئزاز من الحديث فيما لانشمئز من فعله . . ففعل المنكر لايعتبر عيباً ، بقدر مايعتبر الحديث عنــه عيباً ، وليس أسهل على الإنسان من أن يبيح لنفسه فى الليل مايشمئز من ذكره أو سماعه فى النهار .

عالم النفاق والمنافقين ، كلكم تتمنون أن أذكر ماحدث ، ولو كتبته لأقبلتم على قراءته بلهفة الجائع المحروم ، فإذا ماانتهيتم منه هززتم الرؤوس أسفاً ، وقلبتم الشفاه احتقاراً واشمئزازاً ، وقلتم : هذه إباحية . . هذا كلام لايكتب .

أجل معكم حق ، إنه لايكتب ولا يقال ، إنه يؤتى فقط .

كلكم منافقون ، وأشدكم نفاقاً أكثركم تظاهراً بالحرص على الفضيلة ، وتمسكاً بالأخلاق والتقاليد .

أجل التقاليد الزائفة التافهة .

إن مافعلته فى ليلتى يعتبر خيانة وفسقاً .

أتدرون ماذا كان ينقصه حتى يضحى هو نفسه بتفاصيله

وحذافيره ، وعلى نفس الفراش ، وتحت نفس الغطاء ، عملا شريفاً لاغبار عليه ؟ . . شئ بسيط . . غاية فى التفاهة .

أتذكرون ذلك الشيخ المعمم الذى قرأ وكتب ، وأباح لى بكتابته أن أرقد فى فراش إنسان غريب ، وأرتمى فى أحضان رجل لاتربط بين قلبينا صلة ولا يشد روحينا عهد أو ميثاق ؟!

ذلك العقد التافه هو الذى كان ينقصنى ، لكى يجعل منى فى نظركم امرأة شريفة ، ويجعل ما تسمونه فسقاً عملا مشروعاً تأتونه حين ترغبون .

إلى الجحيم .. أنتم ، وعقودكم ، وتقاليدكم .

هذه سخافات لم أعد أقيم لها وزنا .

إن زوجى الحقيقى هو ذلك الرجل الذى ربطتنى به مواثيق الحب . . إن ما فعلته معه مشروع فى عرف نفسى . . أما مافعلت ، فيما مضى .. فقد كان هو الفسق لامحالة ، الفسق المشروع بالإكراه ، إكراه العقود الزوجية .

هذا من الناحية النظرية . . فإذا أتينا إلى الناحية الواقعية فأقسم لكم أنى جنيت من المتعة فى ليلة واحدة ما لم أجنه فى شهور وسنوات . . إنها مسألة تفاهم وتجاوب قبل كل شىء ، ليست مسألة أوتوماتيكية ، ولاهى بجسد يلصق بجسد ، بل هى قبل كل شىء ، تبادل مشاعر ، وانسياب عواطف ، هى جو

زاخر بالأحاسيس والانفعالات والحنين والحب واللهفة والشوق . . هي أنفس تذوب وقلوب تتحلل ، وأرواح تختلط وتمتزج ، وماعدا ذلك فهو عبث وهراء ، وعمر يذهب سدى .

* * *

فتحت عيني في الصباح ، لأشعر بذراعيه يحيطان بجسدي وذراعي يحيطان بجسده ورأسي مدفون في حنايا صدره وكأننا روحان في جسد .

ومضت فترة طويلة وأنا مخلدة إلى كسل لذيذ وخمول ممتع ، لا أريد التحرك أو الاستيقاظ أو النهوض .

كنت أمتع بدفء الفراش وبدفء أنفاسه ، وكنت أود ألا أستيقظ أبداً ، وأن أظل منطوية بين ذراعيه ، ملتصقة بجسده ، حتى يطوينا القبر معاً .

ونهضنا أخيراً ، وكانت الساعة قد بلغت التاسعة ، دون أن يبدو أثر لضوء الشمس بعد . . فقد كانت السماء ملبدة بغيوم ثقيلة معتمة .

وأعددت الفطور ، وكان « أحمد » قد اضطجع على أريكة في الشرفة وبدا على وجهه تقطيب وشرود . . واقتربت منه أتحسس شعره برفق ، وأسأله النهوض للطعام .

وأمسك بيدي ووضعها على شفتيه وأجاب في صوت خافت :

ـ لا أستطيع الآن .

وسألت فى دهش :

ـ مابك ؟

ـ أشعر بمغص بسيط ، وميل إلى القىء .

ـ أرأيت ؟ . ألم أقل لك ؟ . لقد أصابك برد من سباحة الأمس ؟

وجلست بجواره ، وأسند رأسه على صدرى ، وأحطته بذراعى وقلت له :

ـ لِمَ لم تسمع نصيحتى ؟ أرأيت أحداً سواك فى عرض البحر ؟ . أفى هذا الجو القارس يستحم الناس فى البحر ؟

ـ لقد كان الجو دافئاً بالأمس ، والشمس مشرقة .

ـ ولو . . إن الماء لاشك كان كالثلج .

ـ لقد تعوَّدت من قبل أن أستحم فى الشتاء بالماء البارد . . لم تكن هذه هى المرة الأولى .

ـ ولكنها ستكون الأخيرة . . إنك لم تعد طفلا . . يجب أن تسمع نصيحتى . . أين المايوه ؟ لابد أن أخفيه .

وضحك ضحكة مغتصبة وقال :

ـ لا داعى لذلك ، أؤكد لك أنى لن أستحم بعد الآن

وأخذت أتحسس يديه وجبينه ، وقلت له مشفقة :

ـ بم تحس ؟

ـ لا شيء مغص بسيط ، لا يستدعى منك كل هذا .

ـ قم . . يجب أن ترقد على الفراش ، وتتدفأ جيداً .

ـ أؤكد لك أنه لالزوم لكل هذا . ليس بى ما يستحق الرقاد أو التدفئة ؟

ـ لا . يجب أن تستريح ، وماذا يضرك من الفراش ؟ سآذهب لآتى لك بـ « فنجان شاى » . . وأجلس بجوارك على الفراش .

وسحبته من يده ، وبدت على وجهه علامات التعب وهو ينهض من مكانه ، وأحسست كأن المغص الذى به يمزق أحشائى أنا . . وقلت له فى لهجة حنون :

ـ أتتألم كثيراً ؟

ـ لا . لا . ألم بسيط . يذهب ويجىء .

وأرقدته فى الفراش ، ثم أحضرت له فنجاناً من الشاى ، وجلست بجواره وأخذت أرقبه وهو يحتسى الشاى ، فرأيته يبتسم وينظر إلىَّ بطرف عينيه ثم يقول :

ـ أرجو ألا تحكمى علىَّ بالرقاد طويلا ياحضرة الدكتورة

ـ لا تسخر منى . إنك فى حاجة إلى الراحة .

وتناولت منه الفنجان بعد أن احتساه وقلت له محذرة

وأنا أنهض : « إياك أن تترك الفراش » . !

ولكنى عدت إليه بعد بضع دقائق فإذا بى أراه أمام المرآة ، يحلق ذقنه ، فصحت به غاضبة :

— أحمد . . يجب أن تلزم الفراش . . أرجوك .

وأجابنى وهو ينظر إلىّ فى دهش :

— عايدة ، لا تكونى مجنونة . . ليس بى أى شىء . . لقد ذهب المغص وأصبحت سليما ، كالجنى » ، ليس لدينا وقت لإضاعته فى أوهام المرض والرقاد .

ثم صمت برهة وأردف :

— هيا . ارتدى ملابسك .

— إلى أين ؟

— سنذهب إلى حديقة الورد ، أرأيتها ؟

— لا .

— وتزعمين بعد ذلك أنك محبة للزهور ! سيضيع نصف عمرك إن لم تريها .

— ولكنى لا أستطيع الخروج قبل الظهر .

— لمَهْ !

— لدىّ الطهى ، وتنظيف الدار .

— ليس هذا وقته ياعايده . . ستنظفين الدار ، وتطهين

الطعام ، ماشئت التنظيف والطهى .. إن الأيام المقبلة كثيرة .
دعينا نتمتع بالانطلاق والنزهة ، والبحر والحدائق .

— ومن يعد الطعام ؟

— نتناوله فى الخارج . . فى أى مطعم . . .

— أمرك . . .

ثم ترددت برهة وسألته :

— ولكن أواثق أنت من أنك سليم معافى ؟

— مائة فى المائة . . كالحصان الشق المستريح .

وبعد فترة قصيرة كنا ننطلق بالعربة ، وقد ارتديت بلوزة من الصوف ، ووضعت « إشارب » حول رأسى وأذنى ، وكان هو يرتدى قميصاً وبنطلوناً وبلوفر طويل الأكمام مقفل الياقة .

وسارت بنا العربة على الكورنيش فترة من الوقت ، والسماء مازالت ملبدة بالغيوم المتكاثفة والبحر يهدر ، وتتعالى أمواجه ويتطاير منه الزبد والرشاش . ثم انحدرنا إلى شارع « أبو قير » متجهين إلى حديقة الورد .

ووصلنا الحديقة ، وهبطنا الدرجات القائمة عند المدخل ، وسرنا نجول فى طرقاتها . . وكانت الحديقة تكاد تكون خالية . . إلا من بستانى يعمل بفأسه فى الأحواض ومن آخر يقص أحد الأسوار .

وكنا نسير متلاصقين . . وقد تشابك منا الذراعان ، وتلامست الأكف ، وأخذنا نتحدث ضاحكين .

وهمست أقول ونحن نقف أمام أحواض الداليه التى لم ترفع بعد :

ـ أتذكر يوم أتيت إلىّ لتخبرنى أنك ترقيت ونقلت إلى الحرس ؟

ـ أجل . . كنت أتوهم وقتذاك . . أنى قد بلغت أقصى الأمل ، وأنى أمسيت إنساناً هاماً خطيراً . . ولم يخطر لى على بال أن أباك سيهزأ بى ، ويردنى ملوماً محسوراً .

ـ لا تذكر هذا . . انزعه من ذاكرتك . . لم يكن الذنب ذنب أبى وحده . . لقد كان ذنبنا كلينا .

ـ ذنبنا نحن ؟

ـ أجل . كان علىّ أن أكون شجاعة ، وأن أنبهه أنه يستطيع أن يأمرنى بأن أرتدى مايشاء ، وأتناول من الطعام مايريد ، ولكن عندما تصل المسألة إلى الزواج .. فعلىّ أن أتزوج من أشاء ، أنا وحدى التى سأحتمل عبء زواجى ، وأنا التى سأشقى به أو أتمتع وبعد سنوات سيرحل هو عن هذه الحياة ، ويبقى الزوج فى عنقى حتى يموت أحدنا . . إن حياة المرأة فى زواجها ، فلها وحدها أن تنتقى شريك حياتها . كان يجب أن أقول له هذا ،

وأنبئه بأنى قد اخترتك وحدك دون سائر البشر ، فإن رفض رفضت ، وإن ثار ثرت .. وكان عليك أيضاً ألا تخضع وتستسلم .

ــ أنا لم أخضع إلا بعد أن خضعت أنت واستسلمت .

ــ حتى بعد هذا كان يجب عليك ألا تستسلم . كان يجب عليك ألا تكون عاقلا رزيناً كما كنت . فهذه الظروف تستلزم شيئاً من الجنون .. هل تدرى أنى فى كثير من الأحيان كنت أفكر فى أنك قد تحضر إلىّ فى ظلمة الليل وتختطفنى فوق جوادك وتفر بى .

وانطلق يقهقه :

ــ لو علمت أن هذا يجول بخاطرك ، لأقدمت على تنفيذه .. على أية حال لقد نفذته فى النهاية ، واختطفتك فى جوف الليل ، وإن كنت قد استبدلت بالجواد عربة ..

ــ لا بأس .. لقد أصبحنا فى عصر ميكانيكى .

وشرد بى الذهن فى المستقبل المجهول العواقب ، المستور وراء حجب من المتعة الطارئة والهناء السريع الأفول .

وقلت له فى لهجة أشبه بالدعاء :

ــ من كان يظن أن آمالنا ستتحقق فى النهاية ، وأن القدر سيعدل فجأة عن قسوته ومكره السيء ، فيحطم كل تلك العقبات ويجمعنا فى غمضة عين ؟ من كان يظن أن مصيرنا سيتحوّل مثل

هذا التحوّل السريع ؟ . ترى هل يكون هذا آخر تحوّل ؟ . .

— من يدرى ؟

— ليتحوّل كما يشاء . . لقد عزمت على ألا أستسلم قط . لن أتركك مهما حدث . . وأنت ؟

— معك حتى آخر العمر .

وبدالى « آخر العمر » كأنه شيء بعيد ، بعيد ، لا يدرك الذهن مداه . . شيء وراء الآفاق . . كلما حاولنا بلوغه ازداد منا نأيا .

« آخر العمر » . . ما أبعده وأشد غموضه ، ونحن فى نشوة الأمل ، وفيض السعادة . . ليسائل كل منكم نفسه ، عن آخر العمر . . متى ؟ وأين ؟ . . وكيف ؟ . . بعيد . . بعيد جداً . . أبعد من أن نفكر فيه .

ما من أحد منا إلا ويعيش أبداً . . إن حياتنا تبدو بلا نهاية ، حتى ولو كنا من النهاية قاب قوسين أو أدنى .

وهكذا ملأ قوله « معك حتى آخر العمر » بالسكينة قلبى وأفعم بالطمأنينة روحى

وقضينا اليوم بطوله ونحن نرتع ونمرح . . كأننا — على حد قوله — جياد طليقة فى مرعى خصيب . . لا تحمل عبئاً ، ولا تضيق بهم . . لا نعرف من حياتنا أمس ولا غد .

وأخيراً عدنا إلى الدار والظلمة قد سقطت ، وكانت

السماء قد بدأت تهمى رذاذاً خفيفاً كسا الطريق طبقة لامعة انعكست عليها أضواء المصابيح .

ووصلنا إلى الدار ، وأزلنا عنا غبار اليوم ، وارتدينا ملابس النوم ، وتناولنا العشاء ، ثم أوينا إلى الفراش كأننا زوجين .

* * *

ولم أك أعرف كم بلغت الساعة من الليـــل . . عندما استيقظت فجأة على صوت أنين أحمـد وهو راقد بجوارى ، وسمعت صوته يهتف بى فى الظلمة :

ـ عايده .. أيقظة أنت ؟

ـ أجل . . مابك يا أحمد ؟ مابك يا حبيبى ؟

ـ آه ! . .

وعاد أنينه يشق السكون ويمزق أحشائى .

وكانت الظلمة تسود الحجرة ولا أثر للمصباح « السهارى » الذى كان يضىء الصالة فى أول الليل .

ونهضت من الفراش وأنا أرتجف مذعورة وقد تملكنى اضطراب شديد ، واتجهت إلى مفتاح النور فى الحجرة وأنا أتحسس طريق بيدى حتى وضعت يدى عليـــه فضغطته . . ولكن النور لم يضىء . . . وقلت لأحمد وقد زاد اضطرابى :

ـ أحمد . . إن الكهربا لاتضىء !

ووصل إلىّ صوته يجيب فى خفوت :

ــ قد يكون أصابه تلف .. أضيئى مصباح الغاز الموجود في المطبخ .

وعاد يتأوه ويئن ، وسألته فى صوت مرتجف :

ــ مابك يا أحمد ؟

ــ مغص . . مغص شديد يمزق أحشائى .

وسرت أتحسس طريقى فى الظلمة الدامسة إلى المطبخ ، وسمعت الريح تصفر والبحر يهدر ، وقطرات الماء المتقلة تتساقط على زجاج نوافذ الشرفة ، وفجأة أضاء فى الشرفة ضوء ساطع سرعان مااختفى ، ثم أعقبه دوى شـديد .

وما أظننى قد خفت من قبل من المطر والبرق والرعد . . ولـكن فى تلك الظروف القاسية بدت لى تلك الظواهر الطبيعية كأنها جزء من خطة هجومية مخيفة يوشك أن يصوبها إلىّ القدر .

كان كل ما حولى سلسلة متصلة الحلقات من عوامل الخوف والذعر .

أنين أحمـد ، والظلمة الدامسة ، وهدير الموج ، وطرقات المطر ، وعصف الريح ، ثم لمع البرق ودوىّ الرعد ، كل ذلك تعاون على أن يجسد لى شبحاً مخيفاً يوشك أن ينقض علىّ .

وبدا لى أن دهراً مضى قبل أن أعثر على المصباح وأوقده ثم سرت أحمله فى يدى ، وقد أخذ ضوؤه يرتجف ويهتز .

وعلى صوته الشاحب أبصرت أحمد وقد حاول أن يبدو هادئاً، وأن يكتم صيحات الألم التى توشك أن تفلت من صدره .

ووضعت المصباح على المنضدة .. وركعت على ركبتى أمام الفراش ووضعت خدى على خده وقلت فى لهجة باكية :

ــ بماذا تحس يا أحمد؟ ماذا يوجعك ؟

وأجاب وقد كسا شفتيه شبح ابتسام

ــ لا تقلق نفسك . . تلك نوبة سرعان ما تزول ، لقد أصبت بها مرة منذ سنة ، ومرة منذ بضعة أشهر ، وقد شك الطبيب فى أنها لا بد أن تكون أعراض الزائدة الدودية . على أية حال لا بد من إجراء العملية فى أقرب فرصة ، عندما نعود إلى القاهرة.

وكان يتحدث بنبرات متقطعة وصوت متعب متهدج . . وقلت متسائلة :

ــ إذاً فلم يكن ماحدث لك فى الصباح نتيجة برد ؟

وهز رأسه بالإيجاب ، وقلت له مؤنبة فى لهجة حنون .

ــ لِمَ لم تقل لى

ــ وما الفائدة ؟

ــ كنا نستطيع أن نذهب إلى أحد الأطباء .

ــ وماذا يمكن أن يفعل ؟ إنها تحتاج إلى عملية جراحية ، وأظننا نستطيع الانتظار ، فهى ليست مسألة خطيرة ولا عاجلة.

– بم تحس الآن ؟
– أحسن .

ولكنه لم يكن أحسن . . بل كانت حالته تزداد سوءا . ولم يعد يستطيع الحديث ، وأغمض عينيه ، وعاد إلى الأنين الخافت المتقطع ، وبدا لى كأن قشعريرة تسرى فى جسده .

وعاد البرق يضىء والرعد يدوى ، واشتد صفير الريح من خلال زجاج النوافذ ، ووجدت نفسى أرتجف وأنا أمسك بيده . . وأخذت أناديه بصوت ملؤه الحنان والتوسل :

– أحمد . . أجبنى . . قل بم تحس ؟ قل شيئاً ؟
– آه . . .

ولم يزد عن ذلك ، ومرّ بذهنى ما عرفته من قبل من أن نوبات الزائدة قد تنتهى أحياناً بانفجارها وتسمم المصاب إذا لم يسعف بعملية تستأصلها .

وأحسست أن رأسى يوشك أن ينفجر ، وأن قلبى يغوص بين جنبى ، وأن حلقى جف .

لقد قال أحمد إن النوبات انتهت فى المرات السابقة على خير . . ولكن ماذا يحدث لو انفجر فى هذه المرة ؟ .

وقفزت من مكانى كأن أفعى قد لدغتنى .

كيف أجلس هكذا عاجزة ؟ يجب أن أحضر طبيباً . .

يجب أن أفعل شيئاً لإسعافه .

واندفعت من الباب في جنون ، عارية القدمين ، لا يستر جسدي سوى البيجامة .

لن يهزمني القدر هذه المرة ، سأقاوم وأقاوم ، لن ينتزعه من يدي أحد ، حتى ولا الموت .

وصدمتني هبة من الريح عاصفة عاتية ، وأحسست بقطرات المطر تنهمر على رأسي ووجهي وجسدي ، وكانت الظلمة دامسة إلا من لمحات البرق ، تنير الكون برهة ثم تتركه أشد حلكة .

وفي لمح البصر كنت قد هبطت الدرج واجتزت ممر الحديقة ، وأخذت أعدو في الطريق .

إلى أين ؟ . وبمن أستعين ؟

لا أدري . . كنت أندفع في العدو متطلعة إلى بارقة ضياء ، أسأل فيها عن أقرب طبيب . . أو أقرب تليفون . . أستدعي منه طبيباً ، أو أطلب الإسعاف .

وكلت قدماي ، وتقطعت أنفاسي ، وأنا لا أبصر سوى ظلمات فوق ظلمات ، وكان الماء يتساقط من شعري ومن وجهي ، وثيابي قد التصقت بجسدي بعد أن بللها المطر الذي ما زال ينهمر من السماء كالمزاريب

أما من ضوء ؟ أما من كائن حي ؟ .

ماذا أفعل ؟ ! حاولت أن أصرخ . . فضاعت صرخاتى بين هدير الموج وعصف الريح .

أيمكن أن يكون ما أنا فيه حقيقة واقعة ؟ أحقاً أسير على شاطىء البحر فى الظلمة الدامسة ، مبتلة الثياب ، عارية القدمين ؟ أتلك السائرة كالمخابيل هى أنا ؟ أم أن كل ما بى لا يعدو حلماً مزعجاً وكابوساً مخيفاً ؟

أحقاً أنى تركت أحمد وحيداً بين الحياة والموت ؟ .

ولكن كيف تركته ؟ يالى من حمقاء طائشة مجنونة ؟ . كيف فقدت أعصابى فاندفعت هكذا أعدو فى الظلام وأضرب على غير هدى ؟

أما كان يجدر بى أن أبقى بجواره فقد يكون فى حاجة إلىّ ؟

أجل . يجب أن أكون بجانبه . إنى لن أستطيع أن أعثر فى هذا المكان المهجور ، وفى ذلك الجو العاصف ، والظلمة الحالكة والساعة تربو على الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل على مخلوق يعيننى . . فيجب أن أعين نفسى ، أو على الأصح أستعين بالله ، الذى لا أظنه غافلا عنى ، إذا ما الناس كلهم غفلوا !

وعدت ثانية إلى الدار ، أعـــدو وأتخبط ، مبهورة الأنفاس ، مرهقة الأعصاب ، مكدودة الجسد ، وصعدت الدرج وأنا أترنح كالذبيحة .

ودفعت الباب فإذا بالظلمة تسود المكان ، ولا أثر لضوء المصباح الشاحب الذى تركت أشعته تتراقص وتهتز .

واندفعت إلى حجرة أحمد وأنا أكاد أتهاوى ، فإذا بالريح تصفر فيها بعد أن دفعت إحدى النوافذ ففتحتها على مصراعيها ، وأخذت تحدث بها طرقات شديدة مفزعة .

وأغلقت النافذة ، ووقفت فى الظلمة ألهث . وصحت أنادى فى صوت مبحوح : « أحمد » .

ولم يجبنى أحد . ولم أسمع وسط السكون السائد أى صوت . . لا أنين ، ولا تأوه ، ولا حتى حفيف أنفاس .

وتذكرت الزائدة الدودية ، والانفجار ، والتسمم .

وانطلقت منى صرخة مدوية . . صرخة لا تفترق عن صرخات المجانين . وأخذت أنادى :

ــ أحمد .

وما من مجيب .

وركعت على ركبتى أتحسس الفراش ، وأخذت يداى تتحسسان جسده ، واستقر وجهى على وجهه وأنى على أنفه وأحسست بأنفاسه تتصاعد خافتة متقطعة .

حمداً لله . . إننا ما زلنا معاً . . فى حياة واحدة .

ونهضت أتحامل على نفسى . وأتلمس طريقى إلى المصباح

الغازى ، حتى أوقده ، فقد كنت فى أشد الحاجة إلى بصيص من الضوء ينشلنى من أعماق تلك الظلمات المخيفة .

وأوقدت المصباح ، وعاد ضوؤه يتراقص فى يدى ويهتز واقتربت به من أحمد ، ونظرت إلى وجهه ، فإذا به شديد الشحوب ، جامد الملامح ، كأنه تمثال من الشمع ، وقد أحاطت بعينيه هالة سوداء زرقاء .

ولمحت جفنيه يرتجفان ، ثم أخذ يفتح عينيه بتثاقل وسمعته يهمس :

— عايدة .

وركعت بجواره وأجبته فى صوت حاولت جهدى أن أجعله طبيعياً :

— أحمد . . إنى بجوارك .

— اقتربى . . ضعى يدك على شفتى .

ووضعت يدى على شفتيه فسرت منهما فى جسدى قشعريرة جعلتنى أنتفض انتفاضة الطير الذبيح .

وعاد أحمد يهمس :

— إنى أحبك يا عايدة ، وأحب الحياة من أجلك . . كم وددت ألا أتركك وحدك فى هذه الدنيا .

— لا تتكلم هكذا يا أحمد . . أنت بخير يا حبيبى .

ـــ أنا بخير ما دمت بجوارى . دعينى أتحسس شعرك .

ومد يده ببطء ووضعها على رأسى ، ثم عاد يهمس :

ـــ إن شعرك مبتل . . وكذلك ثيابك . . لمه ؟

ـــ لقد كنت فى الخارج . . وكان المطر ينهمر بشدة .

ـــ إنك ستصابين بالبرد لو بقيت فى هذه الثياب . أرجوك أن تستبدلى بها غيرها . . كيف خرجت وحدك فى الظلمة ؟ .

ـــ كنت أحاول أن أستدعى طبيباً .

ـــ طبيب ؟ وما الفائدة ! لقد انتهى كل شىء . إنى أحس السم يسرى فى جسدى ، لقد ذهب الألم ، وذهب العمر معه .

وصمت أحمد . . ولم ينبس بعد ذلك ببنت شفة .

أجل . . لقد بلغ آخر العمر

* * *

آه من القدر ومن سخريته المريرة !

« آخر العمر » . . الذى كان يبدو لنا منذ بضع ساعات لا يزيد عن مجرد كلمات ليس أسهل على المرء من أن ينطق بها . . دون أن يحاول أن يفهم لها معنى . . فهى أبعد من أن يحاول الذهن مجرد تصورها .

« آخر العمر » . . البعيد . . . الموهوم . . المزعوم . . قد بلغناه فى غمضة عين !

بين يوم وليلة قد قطعنا الطريق الذى كان يبدو بلا نهاية ووضحت لنا نهايته بشعة مخيفة .

هل تستطيعون أن تتصوروا حالى وأنا أركع بجوار فراشه . . وقد كف عن المنطق ؟ !

لكى تدركوا حالتى جيداً . . يجب عليكم أن تعرفوا أولا أنى لم أبصر ميتاً فى حياتى من قبل . . وما عرفت قط كيف يموت الإنسان . . بل كان الموت والموتى والمآتم والقبور ، ومعدات الدفن ، والجنازات ، كلها أشياء لا أكاد أعرف عنها إلا ما يعرف الإنسان عن الأشباح والعفاريت . . كانت أشياء بعيدة عن ذهنى . . أتصوّرها مخيفة مبهمة غامضة .

كنت إذا سمعت صراخاً من بعد اقشعر بدنى . . وإذا رأيت سرادق ميت أحسست بغشاوة على عينىّ

تصوّروا بعد كل هذا . . أجد نفسى وحيدة فى بهمة الليل . . الريح تصفر من وراء النوافذ وتئن وتعول وترن ، والضوء الشاحب يرتجف ويهتز ، وأنا جالسة .. أمام ميت !! وأى ميت ! !

لا . . لا . . لا يمكن أن يكون ميتاً . . من المحال أن يموت أحمد . . إنه مازال أمامى كما هو ، بعينيه ، وشفتيه ، وقامته الطويلة الممدودة على الفراش .

سأقبله كما تعوّدت أن أقبله . . لابد أن توقظه حرارة شفتي ، ودفء أنفاسي .

وأحسست من شفتيه برودة مخيفة ، ولم أشعر بصهد أنفاسه الذي كان يلفح وجهي .

وأخذت أناديه في صوت متحشرج مبحوح :

ـ أحمد . . أحمد . ؟ أنا عايدة يا أحمد !

وخيل إلىّ أني أسمع صدى صوتي يجيب على . أحمد . . أحمد ، كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ ! ! ولأي حكمة ؟ ولأي سبب ؟

منذ لحظات كان ملء يدي ، وملء أحضاني ، والآن أجده مسجى لاحراك به . . أناديه فلا يجيب ، وأقبله فلا يشعر . . وأبلل بدمعي وجهه فلا يسألني : لِمَ أبكي ، وهو الذي ما روّعه في الحياة شيء كبكائي ؟

هل يمكن حقاً أن يذهب هكذا . . بمثل هذه البساطة ؟ أيذهب كأن لم يكن ، ويصبح ميتاً كلا بين الموتى الذين لم يبق منهم إلا أديم الأرض ؟

ماذا يفعلون بالموتى ؟ ليست لدىّ أقل فكرة ، إلا أنهم يوارونهم التراب .

أنا أواري أحمد التراب ؟

أنا أتركه يدفن وحيداً في باطن الأرض ؟

لا كنت ، ولا كانت الأرض ، ولا كانت السماء !

لا . . لا . . ليفعل الناس بموتاهم كيف شاءوا . . أما أنا فسأفعل بميتي الحبيب ، مايحلو لي ، لن أتركهم يأخذونه مني . . لن أتركهم يوارونه التراب ، فأواه بين ذراعي ، لا بين الأجداث .. إني لن أتركه ، ولو أطبقت السماء على الأرض .

سأنام بجواره ، وآخذه بين أحضاني ، سواء عندي أكان حياً أم ميتاً . . إن أحمد سيبقى أحمد ، لن أعترف بفعل القدر ، ولن أدع أحداً ينزعه من بين ذراعي .

ليشعر . . أو لايشعر . . ماذا يضيرني ما دام يرقد بجواري وأرقد بجواره ؟

لقد بدأت أول خيوط الفجر تنسلل من نسيج الليل المعتم ، وهو ما زال بين أحضاني جثة هامدة ، وجسداً لاحراك به .

ألا يحتمل أن تعود إليه الحياة ؟ . أليس الله بقادر على كل شيء ؟ قادر على أن يحيي العظام وهي رميم ؟

هذه ليست عظاماً ولا رميما .، بل لم تصبح بعد كذلك .. فهي مازالت . . أحمد . . كما هو . . وكما كان دائماً .

ليعيده الله إليّ . . ليحييه لي . . ما فائدة قدرته تلك إن لم يعد إليّ أحمد ؟

ولكن لِمَ أخذه ؟ . ولِمَ أعطاه لى ، إذا كان ينوى أخذه بمثل هذه القسوة ؟

لِمَ يفعل معى كل هذا ؟ . أنا المخلوقة الضعيفة . . التى لاحول لها ولاقوة إلا به .

لِمَ يسخر منى هذه السخرية ؟

إنى أكره الله كما كرهنى . . إنى أكفر به لما قسا علىّ ،

لقد كنت ملحدة بالحب ، فأصبحت ملحدة بالله ، وبكل شئ .

إنى لم أفعل ما أستحق عليه كل هذا .

ولِمَ هذا التدبير المفجع المحكم ؟

لو أنى فقدته قبل الآن . . لكنت أستطيع أن أصبر ، وأتجلد ، وأحتمل . . ولكن الآن . . وبعد أن أصبح لى وحدى . . الآن بعد أن قرب الكأس من شفتى . . أنا المهجورة الصادية ، التى طال بها الظمأ والحرمان ، وبعد أن أحسست بقطرات الماء تبل شفتى وتندى على روحى ، تنزع منى الكأس وتحطم على صخرة الفناء ، ويراق ماؤها فى وادى الموت .

لِمَ يارب كل هذا ؟ أتراك فى حاجة إليه أكثر منى ؟ . هؤلاء البشر . . كلهم عبيدك الذين يملأون رحاب الأرض . ألم تجد بينهم من يغنيك عن أحمد ؟ ! المخلوق الوحيد الذى أملكه فى هذه الأرض ، بين الملايين من المخلوقات التى تملكها أنت ؟

لا . . لا . . هذا كثير . . أعده إلىّ يارب . . ردّه إلىّ .

ألا تسمع !

أنت موجود يارب . . أنت لاشك تسمع . . ردّه إلىّ .

ردّه . . أو لا تردّه . . إنى لن أتركه .

سأحكم غلق الباب والنوافذ . . سأتحصن داخل الدار . . سأتحدى الأرض والسماء . . ليتقدم من يشاء لأخذه وسأريه كيف تكون العاقبة .

إنى أحس برجفة شديدة . . ما زالت ثيابى مبتلة . . لقد أمرنى بتغييرها . . انتظر سأعود إليك حالا بعد تغييرها .

سألف جسدى فى البطانية . . فأنا أعرف أن منظرى هكذا يعجبك . . لا حاجة بك إلى الرد علىّ . . فإنى أستطيع أن أضمن ردّك . . إننا نستطيع التفاهم دون أن يكون بك حاجة إلى الكلام . . إنى أعرف كل مايدور بذهنك .

* * *

وارتميت متهالكة على أحد المقاعد . . وأغمضت عينى . . لشد ما أنا مجهدة متعبة . . واستغرقت فى إغفاءة . . مملوءة بخليط مهوش من الأحلام . . تارة أجدنى أزف إلى أحمد ، وتارة أجدنى غريقة معه .

وهببت من إغفائى . . لأجد الجسد المسجى أمامى . .

ولأجد كل شيء كما هو . . كل شيء موحش خرب .

ونظرت أمامى . . فإذا بى أرى امرأة غريبة . . امرأة شاحبة الوجه . . حمراء العينين . . مشوشة الشعر . . أشبه بالمجانين . . ترى من تكون ؟

إنها تلف جسدها فى بطانية . . مثلى تماماً .

من هى ؟

إنها تتحرك كما أتحرك ، وتهز رأسها كما أهز رأسى .

واعجباً ! . . إنها أنا !

أجل تلك هى صورتى فى المرآة .

ما أشد شبهى بالمجانين ، ولكن أجننت فعلا ؟

لا . . لا . . إنى مازلت بعقلى .

ولكن هل يدرك المجانين أنهم مجانين ، أم يحسون كما أحس بأنهم فى تمام العقل ؟

يجب أن أهدىء نفسى . . وأن أحاول التفكير . . تفكيراً منتظماً كالعقلاء .

من أنا ؟ وماذا فعلت ؟ وماذا أنوى أن أفعل ؟

أنا امرأة . هاربة من زوجها ، لايعرف الناس عنها إلا أنها امرأة خائنة فرت مع عشيقها .

لكن . . إنه لايهمنى مايقول الناس .

ماذا حدث لى ؟ لقد مات أحمد . . مات عشيق فى نظر الناس ، ومات توأم نفسى فى نظرى . . مات المخلوق الوحيد ، الذى يربطنى بالحياة والذى يستحق من أجله أن أحيا . . لقد ضاعت منى الغنيمة التى حاولت اختلاسها من القدر . . لقد استعادها هو مرة أخرى وإلى الأبد .

والآن يرقد أحمد أمامى ، مسجى على الفراش ، جثة هامدة ، لاحراك بها . . ماذا أنوى أن أفعل ؟

أحتفظ به ؟ أبقيه هكذا أمامى إلى الأبد ؟

هذا هو الجنون بعينه . . لن أستطيع أن أحتفظ به ، فلقد تسلل من بين يدى . . لقد ذهب . . وكل ما يمكننى الاحتفاظ به ، هو جسد سيتحلل ويتعفن ، ولا يضحى به شىء من أحمد . . بل سيضحى . . جيفة نتنة .

إنى لن أستطيع أن أبقيه ، ولكنى أستطيع شيئاً آخر ، أكثر سهولة . . . إنى أستطيع أن أذهب معه !

أجل . . تلك هى خير وسيلة ، لكى لا نفترق .

لقد كان هو كل مالى فى الحيـــاة ، وما دام قد ذهب فماذا يبقينى ؟

* * *

وأحسست بالراحة والاستقرار ، وشعرت أنى ست سيدة

الموقف ، وأن حزنى قد تبدد . وعلام الحزن ، وأنا سألحق به بعد لحظات ؟ !

سنذهب سوياً ، سأترك الناس ، جسداً آخر ، ينهشونه بألسنتهم الحداد .

ولكن لمَ ؟ إنى مظلومة . . أبعد كل ما لقيت ، أذهب هكذا مشيعة باللعنات كأى مذنبة مجرمة ؟

أما يجب أن أدافع عن نفسى ؟

يجب أن أقول شيئاً .

إنى الآن جامدة الحس ، باردة الأعصاب ، أستطيع أن أجلس بمنتهى السهولة ، وأكتب لكم هذا الشىء .

أجل هذه هى كراسة أحمد التى كان يقرض فيها الشعر ، والتى لم تكن تفارقه أبداً . . إنها خير ما أكتب فيه قصتنا .

* * *

إن الساعات تمر ، وأنا مكبة على المنضدة ، وأحمد راقد ورائى على الفراش . . إنى أكتب وأكتب ، ولا أفعل شيئاً غير الكتابة ، لا آكل ولا أنام .

ما حاجتى إلى الأكل والنوم ، وأنا سأغادر هذا الجسد الفانى بعد قليل ؟

إن الشمس تشرق وتغرب ، والليل يكر فى إثر النهار ،

والنهار فى إثر الليل ، وأنا لا آبه لليل ولا نهار ، لتشرق الشمس وتغرب كما تشاء ، إنى أكرهها ، إنها جامدة قاسية ترقب مآسى البشر . . بلاحس ولاشعور ، ماإحتجبت قط لحزن ولاأسى !

لقد انتهيت من الكتابة .. انتهيت من تسجيل دفاعى قبل أن أرحل ، ولست أدرى بعد هذا ، كيف سيكون حكمكم علىّ ؟

ليكن مايكون ، فما أظننى سآبه له كثيراً بعد أن أذهب عن دنياكم !

سأضع الكراسة فى حقيبة جلدية ، وأقذف بها من النافذة ، ثم أشعل النار فى الدار .. سأحتضن أحمد ، حتى نحترق سوياً ، وحتى يفنى جسدانا معاً ، ويختلط منا الدخان ويمتزج الرماد . . تلك هى خير نهاية . . لن نفترق لاجسداً ولا روحاً .

انى أعلم أن الله لايرضى عن الانتحار ، ولكن حتى هذا لا أدرى له سبباً .

عجباً !! أبعد كل ما فعل بى ، يجبرنى على البقاء فى دنياه ؟ ألا يهب لى . . حتى حرية الخروج منها ؟

اللهم اغفر لى كفرى وإلحادى . . اللهم اغفر لى فرارى من الدار الفانية إلى الدار الباقية . . اللهم اغفر لى صعودى إليك بدون إذنك .

ولكن . . لا . . إن كل شىء فى الحيـــاة لا يحدث إلا بإذنك . . إنك غفور كريم رحيم .



الخاتمة

١٧

في بهمة الليل . . وحلكة الدياجير . . والكواكب ترتجف في السماء شاحبة ذابلة تقلب في الأرض مقلا أرمدها البكاء . . وكسف أضواءها الحزن . . والريح تعصف صرصراً عاتية .. تصرخ بالبكاء ، وتصدع بالعويل . والبحر يهدر ويزمجر . . نائحاً ملتاعاً . . يلطم بكف الأمواج خد الصخور . . ويسكب من الرذاذ حر الدموع .

وسط هذا المأتم القائم بين السماء والأرض . وفي هذه الجنازة المشيعة من عناصر الطبيعة الثائرة القانطة المعولة النائحة ، السائمة الوجود ، الطالبة الفناء ، المنذرة بالخطوب والشدائد ، بدأ الكوخ كالميت المسجى ، أو كسراب الأمل الضائع في بلقع العيش ، أو كالصدى المتبدد لمتعة غابرة .

لو تراه علمت أن الليالي

جعلت فيه مأتماً بعد عرس

في هذه الزوبعة الصارخة الباكية . . بدا الكوخ في سكونه وصمته لا يكاد ينم عما به من جمرات الحرقة وشعل الجوى . . بل بدا جريئاً على وحشة الليل وعويل الرياح . . رابط الجأش على هول ما يحدث فوقه وتحته من أحداث ونوائب .

وجذاة تعالت من جوانبه التى لفها الليل بحلكته ألسنة من لهب .. بدا كلٌ منها فى أول الأمر ضئيلا خافتاً ، يضطرب فى مهب الريح ويرتجف . . يكاد يخبو كلما عصفت به الهبة تلو الهبة ، فهو يبرق وينطفىء ويخمد ثم يعلو .

ولكنه أخذ يشتد على الريح ، ويقوى على العواصف . وتعالى فى الظلماء جريئاً متحدياً ساخراً بكل ما فوقه وما حوله ، مبدداً من ظلمات الليل ما لم تستطعه النجوم المرتجفة الكاسفة ، ومستمداً من عصف الريح قوة ، ومن هدير البحر أنغاماً يتراقص عليها ، مضيفاً بصفيره لحناً جديداً إلى ألحان النواح والعويل فى مأتم الطبيعة ، مشاركاً العناصر الصاخبة فى أنشودة اليأس والفناء . . مقدماً نفسه زميلا فى الخطب ، وشريكا فى البأساء .

وهكذا استمرت الريح العاصفة واللهب المتأجج والبحر الثائر تنشد لحنها رثاء لما درس من ذاهب الحب وبائد الهوى ، مشيعة الراحلين بأنفاس ملتهبة اللظى محتدمة السعير ، وقطرات من الدموع مثقلة بالحزن مفعمة بالجوى ، وأخيراً خفت اللهب ، وخمدت النيران . وطوت الظلمات أضواءه . . وأسكتت صفيره . . وهبت الريح تذروا الهشيم كما ذرت من قبل ريح الحياة دارس الأمل وضائع الرجاء .

ولاح ضوء الفجر . . على سكون سائد ، وصمت عميم . .
كأن الطبيعة قد انتهت من مأتمها وعادت من جنازتها متعبة منهكة . . فلا موج ولا نوء ، ولا رياح هوج . . بل الكل مخلد إلى الهدوء .

والكوخ قد عفت آثاره فلم يبق منه سوى قائم أسود أشبه بشواهد القبور ، يشهد بأنه فى هذه البقعة تعانقت روحان لم يستطع الموت أن يفرق بينهما ، وأنه فيها ازدهرت شجرة حب وفيها صوحت وماتت .

وعلى مقربة من أكوام الرماد والدخان والبقايا المحترقة شوهدت حقيبة جلدية لم تتطاول إليها ألسنة اللهب وقد فتحت ، وأخذ النسيم يعبث بأوراق كراسة بها . . هى كل ماتبقى ليروى لنا قصة « راحلة » .

وتحت الأنقاض المحترقة . . استقر هيكلان متعانقان لم يبق منهما إلا ذوب رميم أو فتات هشيم .

فهرس

مطبعة السنة المحمدية

الناشر
مكتبة الخانجي بالقاهرة

دار مصر للطباعة
٣٧ (١) شارع كامل صدقي الفجالة